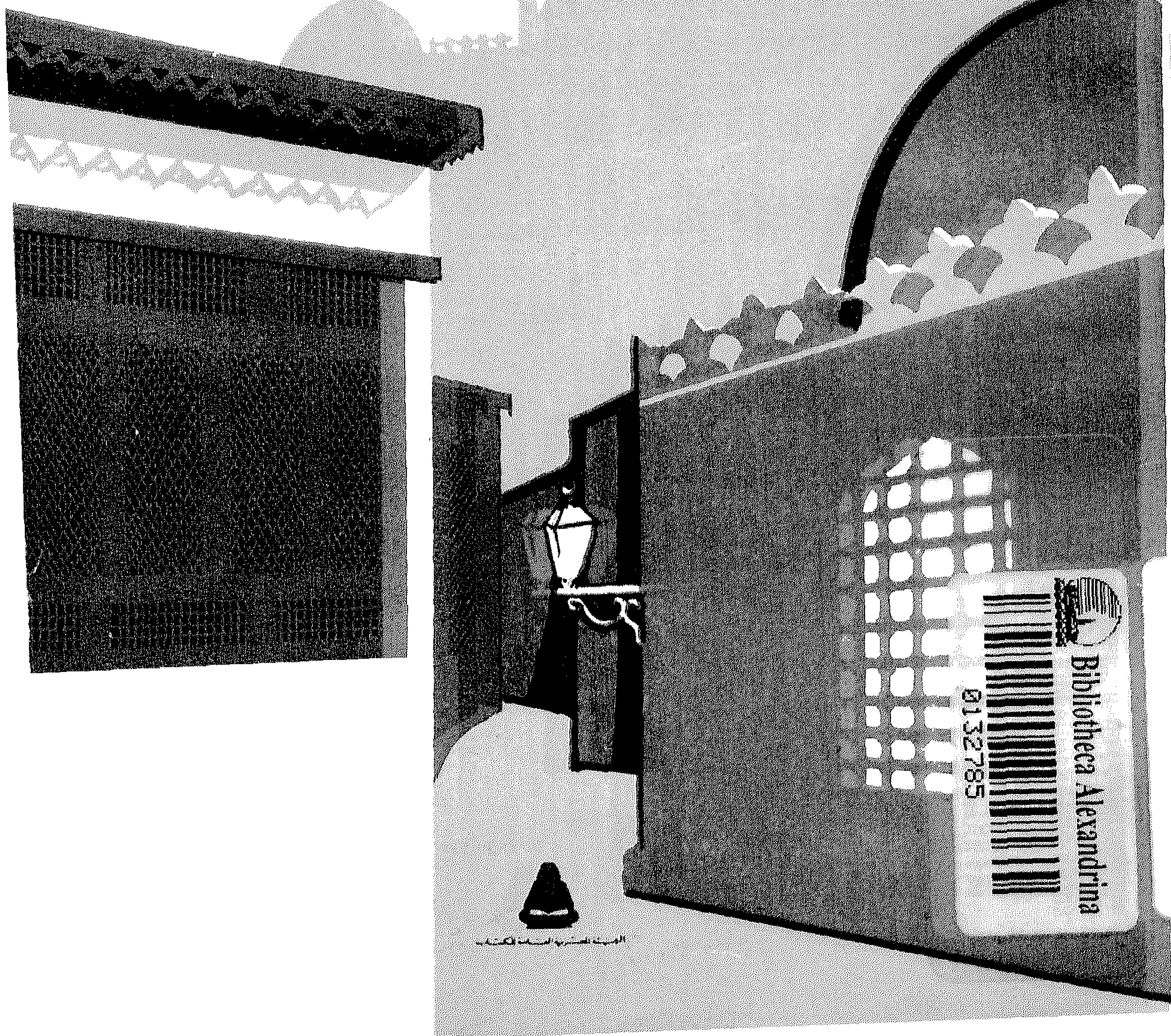
القاهرة فى حياتى

دكتورة نعمات أحمد فؤاد



8

القاهرة في حياتي

القاهرة فى حياتى

د. نعمات أحمد فؤاد



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٦

تصميم الغلاف : البير جورجى
الاخراج الفنى : مراد نسيم

المراجعة والاشراف الفنى : عفاف توفيق

كلمـــة

من طول ما عشت فى القاهرة ، وعاشت القـــاهرة في ، أصبحت مجاليها ومآسيها هي الشاغل أردده فى الحديث ، وأجدده فى الكتابة حتى أنه لا يكاد كتاب من كتبى يخلو منها : وقفة على فنونها (١) أو اطلالة على ربوعها (٢) أو تأريخا لرجالها (٣) أو اعلاء لتراثهـــا (٤) أو وفاء لعطائهـــا (٥) أو ولاء لنيلها ، مقصـــورا عليـــه (٦) أو انتفاضـــة من أجلهـــا (٧) .

وقد توزعت هذه الكتب خاصة ، من بين سائر كتبى ، عمرى . لأنها قضايا عشتها ألما وصراعا ولهفة ثم فرحة فقد كتب الله لى فيها ، النصر على قوى البغى جميعا ، فانتصرت مصر بالكلمة العزلاء ولكنها ، بقوة الحق أمضى من كل سلاح .. انتصرت مصر بما فيها ، على مسـيرة تاريخها كله من اصرار ، وطاقة استمرار .. وانتصرت ، مصرية ، بما فى من وراثاتها ، وبما على من أفضالها وعطاءاتها ..

---

(١) كتاب (أم كلثوم وعصر من الفن) .
(٢) كتاب (فى بلادى الجميلة) .
(٣) كتاب (قمم أدبية) .
« (الجمال والحرية والشخصية الانسانية فى أدب العقاد)
« (أحمد رامى قصة شاعر وأغنية) .
« (أدب المازنى) .
« (ناجى الشاعر) .
(٤) كتاب (التراث والحضارة) .
« (الأدب والحضارة)
(٥) كتاب (شخصية مصر) .
(٦) كتاب (النيل فى الأدب المصرى) .
(٧) كتاب (صناعة الجهل) .
« (أعيدوا كتابة التاريخ) .
« (قبة الامام الحسين وقضية الحكم) .
« (كتاب مشروع هضبة الأهرام أخطر اعتداء على مصر

وكان من طبيعة الألم والأمل أن يحفرا فى النفس آثارا لا تمحى ، فتداخلت هذه الكتب بين الحين والحين فى هذا الكتاب ســـطورا هنا ، وسطورا هناك فقد غدت هواء أعيش عليه ٠ والحى تتساوى أنفاسه عنده بلا تحديد ٠٠ وهى تتتابع تحفظ حياته ، وتنسج أيامه ٠

وأيامى حروف

وحروفى أيام ؟

د. نعمات احمد فؤاد

القاهرة فى حياتى

نقطة تحـول :

أتممت دراستى الابتدائية فى بلدتنا مغـاغة من أعماق المنيـا بالصعيد . وأتممت معها حفظ القرآن الكريم . ولما كانت بلدتنا ليس فيها مدرسة ثانوية للبنات فى ذلك الوقت ، فقد اتجه والدى الذى كان يتحمس لتعليم البنت وله فى هذا كلمة محفورة فى ذاكرتى . كان يقول (البنت المتعلمة تدل على الأسرة أكثر من الولد) .. ومعه الحق ، فان الأسر المصرية جميعا تهتم بتعليم الصبيان من بنيها وهنا يكون تخير الأسرة التى تحتفل بتعليم بناتها . هنا موقف ودلالة تقول .

كنا نريد مدرسة ثانوية بها داخلية فاستشرفنا الى مدرسة حلوان الثانوية للبنات . هذه المدرسة علامة ونقطة تحول فى حياتى عرفت فيها كيف تكون رسالة المدرسة ، وعرفت فيها حلاوة التفوق ، وعرفت فيها الأثر البعيد للرعاية والجزاء والتقدير ، وعرفت فيها ، بحكم الداخلية ، الخلوص للدراسة والتحصـيل الذى طبقته بعد هـذا فى حياتى فعرفت معنى الخلوص للعلم والعـكوف عليه فامتـلأت حياتى ، كبيرة ، بالقراءة والكتابة والرحلة والندوة والقيم الجادة بقدر ما أستطيع .

خطوط عريضة لها تفاصيل كثيرة أتذكرها وأذكرها كاملة كأنها وقعت اليوم لا أمس .. صورة عن عينى لا تغيب . ولكنى أريد هنا أن أتحدث عن حلوان نفسها ..

كان طريقى اليها قطار باب اللوق .. كنت أفرح بركوبه وأحفظ المحطات التى تتوالى بين الواحدة والأخرى دقائق معدودة .. حتى اذا

نزلت فى حلوان تمتعت عيني بضاحية هادئة تحيط بها الصحراء ٠٠ الشارع الرئيسى فيها هو الذى يصل بين المحطة ومدرسة حلوان الثانوية للبنات ٠٠ كان هذا الشارع يبدو فى عينى طويلا جدا هل السبب أنى كنت أقطعه سيرا على الأقدام أو أنى أتعجل الوصول الى المدرسة فقد أحببتها منذ اليوم الأول وانتميت اليها عاطفيا ٠٠ مرة أخرى أقول بحكم الداخلية ٠٠ لقــد كانت بيتي الثانى ٠٠ انتزع نفسى مرة أخرى من الحديث عنها لأعود الى وصف حلوان المدينة لا المدرســة ٠ كان الشارع الرئيسى تكاد تعد المارة به ٠٠ ولاحظ والدى هــذا فكان حريصا على اصطحابى الى المدرسة فى أول العام الدراسى ثم اصطحابى أو من ينيبه عنه من فرع الأسرة فى القاهرة عند الأعياد ومواسم الاجازات ٠

حــلوان :

كانت حلوان واضحة المعالم يقصدها الناس للعين المعدنية ، والحديقة اليابانية ، والجو الصحى للاستشفاء وللشتاء ٠٠ كانت حلوان مشتى من مشاتى مصر كأسوان والأقصر ٠ وبها مثلما فنادق كبيرة جميلة أحدها خلف مدرستى ٠ وكانت حلوان دارا للأسر الكبيرة ٠

ويناديني الحنين اليها بعد أن بعد عهدى بها فأزورها ولكن ماذا أرى صورة غير الصورة ٠ ومدينة غير المدينة ٠٠ لا أصدق عينى أن الجميلة الهادئة الناعمة تعج بكل هذا الخلق ، وتضج بكل هذا الصخب ٠٠ لقد غدت معقلا من معاقل الصناعة ٠٠ لا بأس ولكن المصانع في بلد كمصر تمثل الصحراء $\frac{96}{4}$ منه يجب أن تقوم المصــــانع على أطراف المدن ، وحيث الصحراء تتعطش الى التعمير والحياة ٠٠ ولكن هذا موضوع آخر ٠

كانت مدرستى حلوان الثانوية هى الفصل والحديقة والملعب والمطعم والسرير والنوم واليقظة والصديقة والرفيقة والزميلة والحدوتة والحكاية والضحكة والحلم والأمل ٠٠ كانت الشوق الى الأهل فى البعد والحديث عنهم فى القرب ٠ كانت الخطاب يصلنى من أبى ويصلنى به ٠٠ كانت الانتظار واللهفة ٠٠ كانت الامتحان والدرجة ٠٠ كانت الفرحة والبسمة ٠٠ كانت الحقل وعمرى به نبته تترعرع وتورق وتزهر ٠٠ كانت الصبا بعد الطفولة ٠ كانت التجربة الصغيرة ببراءتها وعفويتها وتلقائيتها وكل شيء فى هذا العمر ، طفولى بريء التصرف والاحساس ٠

كانت زميلاتى من القاهرة وضـــواحيها الأخرى يصرح لهن أهلهن بالخروج فى نهاية كل أسبوع وكن سعيدات بهذا أما أنا فكنت أخرج على مسار العام كله ثلاث مرات ٠٠ فى العيدين وفى نهاية العام الدراسى ٠

كانت تنتابني ظهر الخميس من كل أسبوع وحشة فقـــد كانت الغائبات يتركن فراغا تسكن معه المدرسة فى الخميس والجمعة بعد حركة كخلية النحل ‥ وكنت أيضا أغبطهن للتغيير ورؤية الأهل على مسافات قصيرة ولكنى أعود سريعا الى دنياى الخاصة فأتخذ من الخميس والجمعة فرصة لتنظيم خطوطى فأعيد تنسيق ملابسى وكانت المدرسة تطلب من الأهل أن يزودوا البنت بست وحدات من كل نوع سواء من الملابس الداخلية أو الخارجية ‥ مما كان يشكل فى عينى زحاما يحتاج الى اعادة تنسيق أو تنسيق دورى ٠

الداخلية فى حلوان الثانوية :

كان الخميس والجمعة ، مجالا لنوم أطول ولو أن كل شىء فى أى يوم محدد بجرس فى وقت لا يتقدم ولا يتأخر ‥ الطعام ‥ اللعب ‥ اطفاء النور ليلا ‥ الاستيقاظ من النوم صباحا ‥ الرجوع الى الفصول بعد الظهر للاستذكار ‥ ولكن وجبة الافطار فى يوم الجمعة ، كانت تحين بعد موعدها التقليدى بنصف ساعة ‥ لون من التغيير أو الترفيه على أى حال ٠

كان الخميس والجمعة مجالا للسماح بسماع الراديو ٠ فأتمتع بصوت أم كلثوم وسرعان ما التقط الجميع شغفى بها وولوعى فكن فريقين فريقا يسعدنى بالتنبيه الى بدء غنائها ومواعيده بل مشاركتى فى الاستماع ‥ وفريقا يداعبنى بمحاولة النقد المفتعل فأنبرى للاشادة بها ‥ كل هذا وأنا داخلية وقادمة من الريف لم أرها ولم أقابلها ‥ كم هو حلو منعم الحب بلا مقابل ‥ الحب لذاته ‥ حب الجمال والفكرة والمعنى ٠

ان تذوق الجمال ، نعيم احساس ونعمة من الله يرزقها السعيد ٠ وكبرت وكبر معى هذا الاحساس حتى أنى كتبت مرة منذ شهور ان الناس يعدون الفنون بأنها فن الأدب ، وفن الموسيقى ، وفن النحت ، وفن الرسم ، وفن التصوير ، وفن التمثيل ينسون فنا هاما هو دعامتها جميعا ذلكم هو **فن الرؤية** ٠

هكذا تعيش فى داخلى ‥ فى أعماقى ، أيامى الباكرة ‥ أيامى الأولى ٠

دور الأب :

بدأ تعلقى بصوت أم كلثوم طفلة فى بلدتنا ‥ حتى كنت أغلق على نفسى باب حجرتى لأخلو اليها ‥ واذا كان الوقت ليلا أطفىء النور

حتى لا يشغل حواسى شيء عنها • كنت أستعذب الصوت والنطق واللفظ •• لعل سر هذا أو هو السر الحقيقى أنى حفظت القرآن طفلة فعرفت وأحسست ما فى نطقها من صقل وحلاوة أداء • وكان الفضل فى هذا لأبى الذى حرص على تنشئتى نشأة اسلامية وأدبية •• فقد علمنى القراءة •• بل علمنى « الاختيار » فقد كان يقرأ ويسجل فى كراسة ما يستوقفه من معان وأساليب ثم يعطينى الكتاب أو المجلة لأقرأ وحدى وبعد هذا يسألنى سؤال السمير الصديق ثم يطلعنى على رأيه الذى سبق له تدوينه ••

هذا الاهتمام أذكى حواسي وأشعل حماسي ، وأيقظ طموحي • عرف أبى وهو من رجال الأعمال لا التعليم كيف يشعل ، فى الطفلة ، الشرارة المقدسة •

•• حلوان الثانوية تمثل ست سنوات من عمرى فلا تلوموني ان وقفت عندها فى هذه الصفحات طويلا •• انها كما يقول رامى قصة حبى وقصة عقلى بل قصة قلمى أيضا •

فى مدرسة حلوان الثانوية ومنذ البداية أى فى سنة أولى كتبت موضوع الانشاء فاذا بمدرس فصلى يطلع عليه المدرس الأول للغة العربية •• وبعد هذا يقرأ الموضوع فى الفصل وتكرر هذا وسرعان ما ذاع لى صيت فى المدرسة •

مسابقة فى اللغة العربية :

أراد المدرس الأول للغة العربية أن يرسى معنى معينا هو أن الفنون ومنها فن الأدب ، مواهب تأتى الدراسة فتصقلها وتثريها فأعلن فى المدرسة عن مسابقة فى اللغة العربية عبارة عن موضوع واحد تكتب فيه جميع الفصول من السنة الأولى الى السنة السادسة ويشمل هذا بالطبع فصل التوجيهية التى أطلق عليها فيما بعد الثانوية العامة . وقبل أن تعلن المسابقة وجدت المدرسة كلها طالبات وأساتذة ، الكل يجمعون أن موضوعى فقط ليس الأول فحسب ولكنه خارج المباراة ولكم يا أعزائى القراء أن تتصوروا السعادة التى يمكن أن تغمر ناشئة فى بداية تعليمها .. بل بلغ الأمر أن طالبات الفصول الكبيرة كن يأتين الى مع أن سنة أولى كانت تتهيب الحديث مع الفصول الكبيرة خاصة سنة رابعة وخامسة وسادسة • ولكن هؤلاء جميعا كن يأتين الى تطلب احداهن أن أفتح لها الموضوع على حد تعبيرها والأخرى أن أختم لها الموضوع بعبارة قوية وثالثة أن أكتب سطرين والمعنى مفهوم لقد كتبت فى يوم من أيام تلك

المسابقة ثلاثة وثلاثين موضوعا وبالطبع كان كل موضوع يختلف عن الآخر تحقيقا لرجاء صاحبته وتفاديا للحرج ٠

وأعلنت المسابقة ومنحنى الأستاذ الدرجة النهائية وهذا لا يحدث فى مادة الانشاء العربى ثم كتب لى عبارة منقوشـــة فى عقلى ووجدانى لا أنسى منها حرفا بعد السنين العديدة التى مرت عليها ٠

سحر التقدير :

كتب أستاذى بالمدرسة لى من الثناء ما لا أستطيع وصف نفسى به ولكنى أذكره هنا من باب القصة ٠ وأهم من هذا من باب تزكية المدرس وتأكيد دوره فى حياة الطلاب ومن باب الاعتراف بفضل الذين علمونى ٠٠٠ **رحم الله شاعرنا شوقى فقد أصاب وأثاب يوم قال :**

أعلمت أشرف أو أجـل من الذى

يبنى وينشىء أنفسا وعقـولا

كتب أستاذى فى كراستى :

(ستكونين زهرة فى روض الأدباء ، وماسة فى جبين العـــلماء ، وينبوعا عذبا من ينابيع البيان ، فسيرى قدما الى الأمام) ٠

ودوت فى المدرسة هذه العبارة التى خرجت على كليشيه (أحسنت) و (أجدت) ٠

كان لهذه العبارة دوى امتد أسابيع ، وتوالت بعدها عبارات هذا الأستاذ الذى أدين له حتى كانت الفصول تسعى الى قراءة ما كتب فى الموضوع الجديد ٠ وأصبح « تقليدا » ٠٠

انتقلت الى السنة الثانية فكان أستاذى الجديد كمن يستلم الشعلة ، يكتب لى أيضا عبارات رنانة بعد كل موضوع ٠

من أساتذتى من كتب لى عقب موضوع فى وصف السوق الخيرى الذى افتتحته الملكة : (أقمت من كلامك سوقا للخير) ٠

وكتب آخر فى موضوع شبيه (عاطفة فياضة بالخير فى أسلوب أشهى الى نفسى من تغريد الطير) لولا الحياء من الاسترسال فى كتابات الذين باركونى ورشوا على طريقى النور ، كلمات مضيئة وضيئة ، لملأت صفحات وصفحات ٠

ماذا صنعت بى حلوان الثانوية :

لقد خلقتني هذه العبارات خلقا ٠٠ كانت كل عبارة تبنيني التزمت أى ألزمت نفسى بالاجادة ـ لأحتفظ بمستوى يتوج بهـذه العبارات وألزمت نفسى بالقراءة والتعمق رغبة فى التجويد والتجديد وألزمت نفسى حتى بقواعد الخط العربى لأوفر لموضـوعى الشكل بعد المعنى وألزمت نفسى بمربع من سطرين قبل الموضوع وعنوان أدبى خاص بى ثم عرفت فيما بعد أن هذا كان طابع أدباء الرومانسية فى القرن التاسع عشر ولكنى فعلت هذا بتلقائية ووحى الفطرة ٠

وألزمت نفسى بتكثيف الجهـد فى المواد الدراسـية الأخرى حتى لا يخدش أى نقص الهالة التى أحاطنى بها مدرسو اللغة العربية فضلا عن أنى ذقت حلاوة التفوق والنجاح ٠

ومن هنا قلت أن عبارات التشجيع خلقتنى خلقـا جديدا ٠٠ ان التقدير غذاء لروح الانسان ٠٠ ان قيمة الجواهر تعزا الى عين مكتشفها ٠

مرة أعاد أستاذ لى ورق الامتحان وكانت الدرجة النهائية خمسين ٠ ولكنه قال لقد جمعت درجات الأسئلة فحصلت نعمات على ٤٨ ولكنى خجلت من نفسى ألا أضع لها خمسين وهنا اقتضتنى الأمانة أن أضيف الى كل ورقة فى الفصل درجتين ٠ كم أسرتنى وطوقتنى هذه العبارة ٠٠ لقد بكيت من فرط التأثر ٠٠ لقد كنت اعتدت على الدرجات النهائية حتى غدوت أتوقعها ولكن هذه القصة لم أتوقعها .. والتفت حولى بعض الزميلات يردن معرفة مكان الخطأ واذا بواحدة منهن تجمع الدرجات فتجدها خمسين وهرعت الى الأستاذ الذى أعاد الجمع واكتشف أنه التبس عليه الجمع وأنى أستحق الخمسين بدون اضافة ولكن هذا لم يقلل شيئا عندى من جميله ٠٠ من لفتته ذات الدلالة الكبيرة ٠

وتمر الأيام وينقضى عام دراسى ويهل عام وكل منها يحمل لى وأحمل له هناءات جديدة من هذا اللون أى خيوط ملونة فى نسيج القصة قصتى مع حلوان الثانوية ٠

وقد توجت هذه القصة بمسابقة الأدب العربى التى كانت تعقـد للمتفوقين فى اللغة العربية من طلبة التوجيهيـة التى سميت بعد هذا الثانوية العامة وذلك على مستوى مصر كلها ٠

لم تعلن ناظرة المدرسة عن هذه المسابقة لسببين فى رأيها :

الأول : أن هذه المسابقة كل عام لم تنجح فيها بنت واحدة ٠

الثاني : وهو مرتبط بالأول هو صيانة الوقت والكرامة حتى تتفرغ الطالبات لامتحان آخر العام : التوجيهية ٠

وطلبت الى مدرسى اللغة العربية التكتم على موعد المسابقة ٠٠ ولكن أحدهم كان يكتم ضيقه بصعوبة شديدة ظننتها فى أول الأمر ، لشىء يتعلق به فلما كان اليوم الأخير لانقضاء موعد التقدم لهذه المسابقة ثار وأعلن أنه ضامن ، اذا دخلت المسابقة أو دخلت المدرسة بى المسابقة ، النجاح بل الأسبقية بين الناجحين ٠

وعلمت المخبوء واكتشفت أو تكشف لى المضمر فبكيت بكاء شديدا بل انتحبت وهنا انضم الى المدرس الانسان ، زملاؤه وأساتذتى مدرسو اللغة العربية بالمدرسة ٠٠ وضغطوا على الناظرة ضغطا شديدا لم تملك معه الا أن طلبت الى أن أملأ الاستمارة الخاصة وذهبت بنفسها وقدمتها بعد انتهاء مدة التقدم موضحة ما حدث فقبل المسـئولون فى الوزارة الاستمارة ٠

وجاء موعـد الامتحان التحريرى ثم الشـفوى وبالطبع كان أعلى مستوى ٠٠٠ أعلى كثيرا من منهج الثانوية العامة ٠٠ وظهرت النتيجة فاذا بالوزارة تهنىء الناظرة والمدرسة لقد كنت الأولى على البنين والبنات لأول مرة فى تاريخ هذه المسابقة وبكت الناظرة هـذه المرة واختلط ثناؤها باعتذارها عما حدث والذى دفعها اليه خوفها على نتيجة شـهادة اتمام الدراسة الثانوية ٠

كان يوما مشهودا لم ينقصه الا غياب أبى الذى كان ينتظر هذا اليوم منذ وضعت قدمى على عتبة المدرسة الثانوية ٠٠

كان وزير المعارف فى ذلك الوقت الدكتور محمد حسين هيـكل صاحب (فى منزل الوحى) ، (حياة محمد) ودعا الناجحين ليوزع عليهم الجوائز بالاضافة الى اعلان حقهم فى مجانية الجامعة واختيـار أى كلية يشاءون ٠

وكنت أول من تقدم الى المنصة وأول من سلم عليه وأهـدى الى مجموعة كتب أدبية لكبار أدباء العصر ومظروفا به « عشرون جنيها » ٠٠ وكان هذا المبلغ يمثل شيئا فى الخمسينات أو بالنسبة لمن هم فى مثل سنى فى ذلك الوقت ٠

ومنذ ذلك الحين اتصـلت حياتى بل التحمت بالأدب قراءة وكتابة واستشفافا وتذوقا ٠

كانت القاهرة :

كنت أقيم فى القاهرة أو فى ضاحيتها حلوان كالعابد فى محرابه للناس دنياهم وله عالمه الخاص ٠٠ أثناء العام الدراسى أقيم فى حلوان أى ثمانية شهور وكانت الاجازة وهى أربعة أشهر آمضى نصفها على الأقل أقضيها مع جدتى فى القاهرة وفى كل مرة أتملى القاهرة كمن يراها لأول مرة ٠٠ وكانت القاهرة فى مطلع حياتى لا تشبع العين منها كل شيء فيها يرف من الجمال ويشف من النظافة ٠٠ كان ركوب الترام متعة ٠٠ وركوب الأتوبيس متعة ٠٠ كان نهارها مشرقا وليلها متألقا ٠٠ كان الناس أعنى أهلنا الطيبين ، لا يحجب سماحتهم زحام أو رغام أو ارهاق أو املاق ٠٠ كانوا فى نعمة يرددون معها فى مجالسهم « دا اللى عمل مصر كان فى الأصل حلوانى » والحقيقة أنه ليس اللى عمل مصر وحده ٠٠ كان الانسان المصرى حتى الخمسينات ابن بلد يحب الزينة والمتعة والجمال ٠٠ يعيشه ويوفره لنفسه ما استطاع ٠٠ حتى القلة فيها نعناع أخضر حتى ماء الشرب فيه ورد ٠٠ فهو ماء ورد أو ماء بالورد ٠

كان الانسان المصرى قبل أن تكربه المعاناة والضغوط انسانا صافيا يحب الطرب والسماع ٠٠

لأنه ابن حضارة طويلة منعمة ومنعمة ٠

انسان لطيف أنيس كالنبات ٠

انسان خصيب كواديه ونهره ٠

انسان ابن طبيعته

والطبيعة المصرية ليس فيها قسوة ٠٠ طبيعة لا تعرف الزلازل والبراكين والعواصف ٠٠ حتى الصبحراء المصرية فيها وداعه تبدد الوحشة ٠

الطبيعة المصرية وأهل القاهرة خاصة :

سرى لطف الطبيعة المصرية ورفقها الى الانسان المصرى فكان عذبا ودودا كريما لأنه ابن خير يأتى المصريين غدقا وهم بما عندهم ، يغدقون ٠

كان الحنو والتراحم فى النفس المصرية والانسان المصرى يتبدى فى الحديث رقة ، وفى النمنمة المصرية تحت الربع وخان الخليلى دقة ، وفى الأسطورة المصرية وفاء وعطاء ٠٠ فنجد فيهـا (القربة) التى يسقى منها صاحبها ولا تفرغ كما تحكى لنا جداتنا ٠

وقد عرف المرحوم قاسم أمين الذوق السليم بأنه الشعاع اللطيف الذى يهوى صاحبه الى أن يقول ما يناسب المقام ، ويتجنب ما لا يناسبه ٠٠ والمصريون خاصة فى عصور الرخاء والنعمة يعتقدون أن مصر أم الدنيا وأم الذوق ولهذا يقولون الذوق ما فاتش باب النصر ٠

ويروون فى هذا قصة طريفة يرويها بدوره الدكتور أحمد أمين ٠٠

تقول القصة أن رجلا كان اسمه « الذوق » كان فى منتهى الظرف والكياسة واللباقة ٠٠ كريما رقيق الحس والشعور ٠٠ غاضبه يوما بعض الناس فعزم على الرحلة من مصر ٠ فلما وصل الى « باب الفتوح » مات هناك ومايزال قبره فى هذا المكان الى الآن ويعرف ضريحه « بسـيدى الذوق » ٠

ومن أجل هذا قالوا : الذوق لم يخرج من مصر ٠

كان يموت فيها حيا ٠

وقدر له أن يموت بها راحلا ٠

غلاب هواك يا حبيبة ٠

بأسر القلب والروح معا ٠

غلاب ٠

كانت القاهرة عائلة متحابة ومع هذا كانت أحياء متميزة وكل حى يتعصب له أهلة من اعتزازهم به واحساسهم بالانتماء اليه ذلك الانتماء الذى فقدناه للبلد لا للحى ٠

كانت مصر تزرع الحب فى الأرض وتزرع الحب فى القلب فتسمع سائرا أو زائرا أو مسافرا أو مقيما المثل الشعبى (اللقمة الهنية تكفى ميه) والمثل الشعبى (لاقينى ولا تغدينى) ٠

لا يقول شعب مثل هذين المثلين الا اذا كان يستشعر جو الأسرة يستنشقه هواء يعيش عليه ٠

الذوق المصرى :

هذا هو الشعب المصرى أو هذه هى طبيعة البلد ٠ كما قلت حين كتبت عن (شخصية مصر) ٠

ـ اناء واسع للماء الكل يشرب منـه هو : النيـــل

ـ ومائدة واحـــدة الكل يطعم منها هى : الـــوادى
وتأصل هذا فينا فقلنا : يانعيش سواء يانموت سوا ٠

من تعلقنا بالنيل تعلقا شديدا ٠٠ ومن تعلقنا بالمركب تعلقا شديدا قلنا هذا المثل ٠ والمركب فى مصر محبة بما تربط بينها وبين النيل ٠ والمركب لا تتحرك براكب واحد ٠ ان ركابها جمع يلتقون فى الرحـــلة والمصير ٠ وانتقل المثل من المركب الى الحياة ففهموا معنى الوحدة وروح الفريق ٠

وتواصوا وتواصلوا ٠٠ وبهذه الصفة فينا استمرت الحضارة المصرية بغير انقضاء لأن العمـــل كان أمانة تربط جيـــلا بجيل وكان مصر أسرة واحدة ، وان تعددت أسرات ٠

هكذا كانت مصر ٠٠ وهكذا كانت القاهرة ٠

كانت بنت بيئتهـــا ٠٠ والبيئة المصرية أصـــلا بنت الزراعـــة ٠٠ والزراعـــة أنبتت فى النفس المصرية من المعـــانى أضعاف ما أنبتت من حبوب ٠ وعلى هذه المعانى أرست مصر حضارتها ٠٠ وطرحها بعد هذا فى الصناعة والعلم والفن والأدب والدين انما هو فيوض من عالم النبـــات وعطاء ٠

القاهرة مدينة القيمة :

عرضت لبعض الأمثال الشعبية من قبل التى تتردد فى مصر وفى القاهرة نابعة من بيئة مصر الزراعية مترجمة فلســـفتها فى الحيـــاة ٠ وفلسفتها هذه غير منفصلة وغير مكتوبة لأنها ليست جزئية ٠ ليست من عمل الذهن وحده بل هى من عمل الانسان الكيان كاملا ومجتمعـــا بحواسه وعقله وقلبه ودمه وأعصابه على مثـــال من عالم الزراعة الذى لا تنفصل فيه البـــذرة عن الأرض أو عن الســـاق أو الفرع أو الورق أو الثمر ٠ الكل متكامل ٠

فلسفة مصر لهذا ، وبه ، تأتلف من عطايا العقل وهدايا القـــلب وومضات الشعور ، ويقظات الضمير ٠

ان القاهرة أجل وأعظم العواصم ليس من باب زهو الوطنى فانى أتكلم عنها بمقياس القيمة لا الوسائل الحديثة ٠٠ أعرف أن الغرب يرفع ناطحات السحاب فاذا بالكم فيها وله تأثيره ، لا يحظى بســـحر الدقة الدقيقة فى الترصيع المصرى وحساسية الاتجاه فى الهرم وأبى الهول ، وأنس العمارة فى معابد امحتب ومساجد مصر الاسلامية بقدر محسوب لأنه أسلوب حياة طويلة روية بالدين والتقنين والمعنى ٠٠ حياة نفذت من

قديم الأزمان بل قبل الأديان وقبل الزمان بزمان ·· نفذت الى المجرد من عدل وحق ومعروف وتوجت هذا كله بالنفاذ الى الوحدانية فعرفت بهجة الكشف ، وصفاء المنبع ، وخبرة التجريب ·

وابن البلد القاهرى يحكم حياته الكيف قبل الكم وما أروعه وأصدقه حين يعبر عن ذروة ادراك القيمة بالتكيف فيقول : أنا أتكيفت · ويقصد بالكيف ، ارتفاعه على الكم ·

وهكذا مصر ·· وهكذا القاهرة كما وكيفا ·

أهل البيت :

كان يوم الجمعة فى حياة جدتى ، لأهل البيت · وكانت تصحبنى معها لأنال من بركتهم · كنت طفلة أقفز الى جانبها ولكنى عرفت معنى هذه الزيارات عندما تفتح عمرى فعمرت روحى بذكرهم وقرأت تاريخهم وصار التردد عليهم عادة لى وان كانت على مسافات بعيدة فى الزمان وليس كل أسبوع كما كانت تفعل جدتى · أزور اليوم السيدة زينب رضى الله عنها · والبسطاء الطيبون من حولى يبثون آلامهم فى ساحتها ·· ولكنى أقف أمام ضريحها فأتذكر موقفها الشامخ من يزيد بن معاوية الذى تعمد أن ينكأ جراحها ولم تكن قد برئت ، بعد ، من الجراح وأرى كيف أدخل عليها رأس الحسين قتيلا يحيا فى القلوب وتحيا باسمه دول وملوك فتتقدم تحمل الرأس تاركة المجلس بعاره وهى تحتوى الشهيد بفخاره قاصدة مصر حيث يخرج واليها والناس معه الى حدود الشرقية لاستقبالها وانزالها أكرم منزل · لقد نزل الوالى كما ذكرت على ارادة أهل مصر ونزل للسيدة زينب عن بيتـه مستجيبا لرغبتهم لتحل فيه وتحل البركة معهـا فى مدينتنا كلها ··

وهو ضريحها الآن بعد أن غدا بوفاتها مسجدا ومشهدا بما تمثل فى التاريخ العربى بل فى التاريخ الاسلامى بل فى التاريخ الانسانى أكرم ما فى المرأة من معاني الوفاء والاباء · ما من مرة زرت السيدة زينب الا تذكرت قصتها كاملة فى هذه المحنة التى لحقت آل البيت ·· تذكرت هبتها وقد هجم زبانية « يزيد » على آخر من بقى من بيتها فى موقعة كربلاء على « زين العابدين » فانكفأت على الطفـــل صارخة فى وجوههم اقتلونى أنا أولا وما قتـلوها ولـكن قتـلوا أنفسـهم بما اقترفوه ويكبر زين العابدين ويلتف الناس حوله اذ يحج البيت فى عهد هشـــام بن عبد الملك ويرى هذا الخليفة الذى لم يغن عنه ماله أو سلطانه فيتساءل فى تجاهل العارف : من هذا ؟ وينبرى له الشاعر الفرزدق :

هـذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفـه والحل والحـرم
هذا ابن خير عباد الله كلهـم هـذا التقى النقى الطـاهر العلم
وليس قولك من هذا بضائـره العرب تعرف من أنكرت والعجم
اذا رأتـه قريش قال قائلهـا الى مكارم هـذا ينتهى الكـرم

وتضم القاهرة الامام زين العابدين كما تضم الصفوة من أهل بيته وليس فيهم الا صفى نقى طاهر علم ·· ويحج المسلمون من أنحاء العالم الاسلامى الى مكة ويوفضون الى المدينة حيث مثوى الأعظم العطرات ، ويسعون الى القاهرة حيث آل البيت يضيفون اليها ويضفون عليها وتعرف هى أقدارهم وتحفظ تراثهم وتعلى دينهم وتحمل علمهم ·· والفضل يعرفه ذووه .. والقاهرة مدينة الفضل والعلم والتاريخ والقيمة .. مدينة الأزهر الذى يضم ٣٦ رواقا تحمل أسماء البلاد الاسلامية ويتلقى أبناؤهم العلم ويلقى غريبهم المأوى والملاذ ·

انى سيده لم أتعلم بالطبع فى الأزهر ولكنه يعيش داخلى بالرؤية والسماع والقراءة والتأمل والاستشفاف وحين أتحدث عن حيـاتى فى القاهرة فان أحد خيوط نسيجى حى الأزهر الذى طالما ترددت عليه والجامع الأزهر الذى طالما تطلعت ـ اليه عمارة وحضارة ··· مسجدا ومعلما من معالم القاهرة · انها قصة عريضة تحضرنى الآن ·

تتزاحم الذكريات وكأن حياتى فى القاهرة حيوات كثيرة · ولكن هل هى قصتى وحدى مع القاهرة ··· كلنا رواة هذه القصة وأصحابها · ان القاهرة لها فى كل قلب مكان ليس لغيرها مهما طوف المصرى وطاف ورأى بعد طول المطاف ·· انها القاهرة ·

خـان الخليلى

بصحبة جدتى أيضا ترددت على أحياء القاهرة القديمة التى كانت ترتاح اليها للزيارة أو البركة أو الشراء · وعرفت صغيرة خان الخليلى ·

هناك فى خان الخليلى حيث الصـوانى الصفر المستديرة المتمنمة المحيط يرفعها على كفه ، كالحاوى ، عامل من عمال المقاهى البلدية ومنهم المتأنق الذى يضع الطاقية البيضاء المخرمة فى وضـع مائل على رأسـه تحسبها واقعة لا محالة ولكنها تظل ثابتة (صنعة) ·· ويمشى كالأوزة كأنه يدور مع كورنيش الاسكندرية والطريق مستقيمة أو كأنه دراجة تسير بغير سائق ، وقد تصطك به دون أن تسقط من كفه الصينية بما حملت أو حتى يضيع من الشاى رشفة (مرة أخرى أقول (صنعة) ·

هناك حيث يخب أولاد البلد في القفاطين (الشاهى) التى يتهافت على قماشها السياح ومن في طريقهم الى أوربا فان الحسان هناك يتهافتن بدورهن على ارتدائها في السهرات ٠

هناك حيث تنصاع الفضة لليد الصناع فتشكلها أقراطا وعقودا تستهوى الكثيرات والسائحات خاصة فيسرفن في اقتنائهـا ٠٠ هناك تستطيع الآن أن تعثر على البقيــة من مهرة الصـــناع في التكفيت والتطعيم ٠٠ انهم خبراء هذا الفن الذى دالت دولته وأصبح يقصد الآن للترف أو ـ الاطراف وغالبا ما يكون هواة الطراز العربى « غربيين » ٠

هناك حيث تتحلق ندوات الذكر ينتظمها رجال أطلق معظمهم لحاهم وأسبلوا جفونهم يميلون بجذوعهم يمنة ويسرة في حركة تقليدية يذكرون ويوحدون فاذا علا المنشد في انشـاده اشتدت حماســـتهم حتى ليطرد ترديدهم مع صوت جهدهم المبذول ٠

وفى خان الخليلى وما حوله (جماعية) فالصناع ٠ يتناثرون في تجمعات متناسقة والذاكرون ينتظمون في حلقـات ، والباعة المتجولون يتجمهر حولهم الناس ، والحديث على طريقة العصافير الكل يقول ولا من أحد يسمع ٠ ولعل أكثر الجميع فضولا ، النساء فهن يشتركن في كل شيء بالتعليق اذا كن سارحات ، أو النظر اذا كن خاليات ، أو ٠٠ المناكفة اذا كن شاريات ، أو المجاوبة اذا كن راضيات ٠٠ ففى حلقات الذكر يجدن بالزغاريد ٠٠ والعليمات منهن بأصول هذا الفن يتبرعن به عن طيب خاطر دون سؤال يكفى أن يمر بهن جهاز عروس في موكب من العربات الكارو ، وان كانت تغنى فيه عربة واحدة ، ولكنه التباهى المتأصل فينا أو لعله الرفق بالحيوان ٠٠ يكفى أن يمر جهاز عروس لتدوى الزغاريد حتى ولو لم تعرفها المزغردات فاذا كان المار موكب العروس بلغ الجود أقصاه فترتفع الزغاريد متواصلة ومتداخلة مقتضبة أحيانا أو مسهبة مسترسلة وهذا يرجع الى طاقة الصوت وصاحبته أو لعلها مسألة حظ ٠٠ بين العرائس ٠

هناك ترى أو تسمع عن الدراويش في ثيابهم الفضفاضة ولحاهم المسترسلة وعمائمهم المتكورة وأرديتهم الواسعة وقد لف الواحد منهم حزاما زاهيا على وسطه قد تمرد عليه منتصف ثوبه كأنه يمط شفتيه فيغدو الرجل له (عب) كالذى نراه في الحقول عند جمع القطن ٠

وفى المدرســة تعلمت ان الطريق المستقيمة كنــاية عن الهداية والرشاد ، والطريق الملتوية كناية عن الغواية والفساد ٠ ولعلهم استهدوا قوله تعالى « أفمن يمشى مكبا على وجه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم » ٠

والطريق تستعمل حينا بمعنى الوسيلة ، وآنا تؤدى معنى الكفاح حين يلازمها الفعل (شق) وتارة يعنى « الأسلوب » فترسم الطريق انما هو احتذاء ٠٠

وغير هذا من المجازات والكنايات والاستعارات ٠٠

طريق ٠٠ وطريق ٠٠ ألوان وأنماط ٠٠ مراتب وحظوظ وأقدار ٠٠

كانت الأجازة المدرسية أربعة أشهر نصفها كنت أقضيها فى القاهرة كما أسلفت وتحرص جدتى على امتاعى بجديد كل يوم وفى مقدمة هـــذا الزيارات والشراء والاحتفالات القاهرية بوفاء النيل وسفر المحمل ورؤية رمضان ٠

وقبل أن تسرقنى الذكريات أقف عند الامام الشافعى رضى الله عنه ٠

كم مرة زرت فيها الشافعى ٠٠٠ وأرى الكبار يقرأون الفاتحة ترحما عليه فأقرأها بصوت مرتفع لأثبت وجودى ٠٠٠ وما أكاد أفرغ منها حتى أجوب الضريح ويبهرنى تابوته دون أن أعرف تفسيره وتصعد نظراتى الى المركب أو الزورق الدقيق فوق قبته وعندما كبرت وأعطيت نفسى لدراسة شخصية مصر عمقت نظرتى الى هذا الزورق الذى كنت ألهو بالنظر اليه طفلة ٠٠٠ أصبحت أرى فيه الخط الحريرى الذى يربط الفن المصرى على مسار العصور ٠٠٠ ان اليد البناءة هى هى ولهذا غدا لها طابعا ينعكس على انجازاتها فى مصر الاسلامية كمصر القديمة سواء بسواء ٠٠ ان البناء المصرى الذى رفع هذا الزورق الدقيق فوق قبة الامام الشافعى يلمح زورق آمون فى طيبة وزورق الحجاج بعده فى الأقصر وهو الاسم الحالى لطيبـــة القديمة ٠ أسلوب مصر هو هو على مر العصور وان اختلفت أديان ونظم وأحكام ٠

وأقرأ فيما أقرأ قول الأستاذ حسن عبد الوهاب فى كتابه (من روائع العمارة الاسلامية فى القاهرة) ان الدولة الفاطمية (أحضرت معها فى مستهل حكمها بالقاهرة بعض أساليب العمارة التونسية ، ولم تلبث طويلا حتى تخلصت من تلك المؤثرات وأصبحت لها طابع قاهرى بحت فى جميع تفاصيلها) ٠

وكان قريب جدتى شيخ مشايخ القراء ٠ وكان عالما متبحرا فى علوم الدين ٠٠٠ ولما كانت جدتى تريد أن تجمع لى الدنيـــا بعلومهـــا وطيباتها معا فقد طلبت الى قريبها طيب الله ثراه أن يفقهنى فى علوم الدين وأن يعلمنى القراءات وأن يستمع الى حفظى للقرآن الكريم وهنا ، لى مع العالم الجليل جلسات خصبة ٠

[والضحى والليل اذا سجى]

هذه الآية بالتنغيم غرست فى وجدانى الاحساس الموسيقى طفلة ٠٠ وبالدماثة غرست فى نفسى معانى السلوك ٠

[ولسوف يعطيك ربك فترضى]

هذه الآية عاشت معى طفلة بما تفتح من آفاق الأمل والطمأنينة ٠ وانتقلت معى الى بيتى عندما تزوجت تتصدر فى اطارها ، حجرتى الخاصة ٠

عطاء الله عندى ، كثير ٠٠ لا أقصد المال ولكن طمأنينة النفس ، والضمير ، ومحبة الناس ، والسطور التى أكتبها ٠٠٠ وبعض هذه العطايا كثير غامر لا يترجمه شيء كهذه الآية التى أعتز بها ٠

[اقرأ باسم ربك الذى خلق]

عرفت من هذه الآية أن القراءة ليست نطق الحروف بل من القراءة ، سياحة فى الكون والنفس ومعانى الأشياء ... هذه الآية فى رأيى ورؤيتى مفتاح كبير من مفاتيح الحضارة الاسلامية ٠ ثم تأتى الآية :

[ن والقلم وما يسطرون]

ان الكتابة عطاء نفس وحكمة روح ، وكرامة وموهبة ، والتقاء فن وفكر هو لون من العلاقات الفاضلة ٠

آيات الطبيعة بجمالها وألوانها وجرسها اللفظى ٠٠٠ الآيات التى لا نعلمها فى المدارس ونركز مع الأطفال على آية [القارعة ما القارعة] وقد قصد بها غيرهم ممن ليسوا فى براءتهم أعزائنا الصغار ٠

آيات الشورى والحرية وكرامة الانسان الذى احترم عقله وارادته حين هداه النجدين ٠

آيات مصر والنيل فى القرآن الكريم وهذه الآيات بالذات أوسمة على صدرى ، مصرية ٠ فلم يرد نهر فى سياق الفخر ، غير النيل ٠

ولم يطلق على نهر لفظة الجمع « الأنهار » غيره

ولم يطلق على نهر اسم « البحر » غيره

ولم يذكر بلد فى هذا العدد من الآيات كما ذكرت مصر التى وصفها الله بأنها جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة وحلم الأنبياء وقبلة الرسالات وبيئتها الحضارية ٠

أسلوب القاهرة :

تحدثت عن القاهرة عن أسلوب حياتها اليومية • الآن أتحدث عن أسلوبها اللفظي والحقيقة أنهما ينبعان من أصل واحد هو ايمانها بالدين والقيم والأسرية •

شعور الشعب المصرى بالأسرية تنبع منه الفاظه كما تنبع منه أخلاقياته وتصرفاته ونظراته فى الحياة والناس ، وينعكس هذا على آدابه وفنونه •

ويتجلى هذا فى أحياء القاهرة الشعبية التى يتميز كل منها بحرفة معينة يبلغ من تجويده لها واخلاصه فيها ، واعتزازه بها ، أن ينتمى اليها فيقال حى النحاسين ، وحى الصاغة ، وحى المغربلين الخ • انه لون من الأسرية يقتصر ويعم وهو فى الحالين طابع أمة •

فى أحياء القاهرة هذه اذا عمل القاهرى سمى أستاذا لصنعته (معلما) والصبى يناديه (يا عمى) • ان العمل قرابة ونسب ••• كل شىء فى مصر ، أسرة • والأب المصرى القديم يقول لابنه الذى يحمل الكتاب (حافظ عليه كأمك) فى ادراك عال نبيل للأم والكتاب معا •

واللغة الشعبية تسمى الرحم : بيت الولد فى احساس مورث براحة البيت ودفئه وحنانه •

ان الأسرة بمفهومها المصرى العريق ، بؤرة حضارية يتشرب المرء فيها شعورا قويا ومقوما •• رحيما ومنعما •

يستشعر الطمأنينة والسكينة والوفاق ، اذ يشهد تجربة مثمرة أبوين متفاهمين •

وفى مثل هذه الأسرة يولد الشعور بالالتزام نحو المجتمع الأم •

ان قمة التأدب ، قولنا فى المجاملة « مفيش فرق » والذم عندنا القول (أبو وشين) أى لا التزام عنده • عرفت هذا صغيرة ، من نشأتى الباكرة فى رحاب القاهرة الشعبية • ولكن الآن ماذا أرى ؟ لحقت المجتمع القاهرى حمى العصر اللاهث الآلى فتغيرت الصورة الجميلة فمتى تعود القاهرة الأصيلة النبيلة الى تقاليدها الانسانية الوارفة الظل •

السلطان الحقيقى :

تحدثت عن احياء القاهرة وتقاليدها وحرفها وكيف ان الواحد من

هؤلاء ـ اليدويين (معلم) ولمعلميته أصول وتقاليد ، وله احترام خاص وسمت معين ، وحين فتح سـليم الأول مصر جمع هؤلاء المهرة والفنانين وحملهم معه الى القسطنطينية · ودلالة هـذا بهر الغالب بفن مصر بهرا يسيل لعابه حتى ليعجز عن مقاومته ·· ولم يؤثر عن سليم أنه أخـذ فنانين وصناعا من مكان الى آخر فى الشرق كله ·

ويعجب الناس كيف احتمل الشعب المصرى غزاته بعد عصـور زهوه الحضارى الذى استمر ألوف السنين · ويذهب المحللون فى تعليل هذا مذاهب شتى · ولكننى مصرية بنت هذا الشعب تجرى فى عروقى دماؤه ، اقول ان استمرار مصر فى صناعة الحضارة كان فيه رضى لنفسها فالخلق والابتداع والتفنن هواها وهوايتها منذ القدم ·· أما الحكم فلم يكن يهمها منه الا العدل فيها والتعفف عن أموالها أو عدم الجشع والسطو ·· كان الحاكم من هؤلاء الغزاة أو الطغاة مهما بلغ وظيفته ادارية لا فن فيها حتى لتسميها فى سخرية لاتخفى : (الضبط والربط) ·

من أجل هذا كله زهـد المصريون فى الحكم واعتزوا بالسـلطات الحقيقية السلطة الروحية والسلطة الأدبية والفنية ·

ان السلطان الحقيقى فى عين مصر هو الفنان الذى لاسلطان لأحد عليه ولو كان من أهل الحرف ·

كانت مصر كما تعلمت هذا فى المدرسة وقرأته فى التاريخ بعيدا عن حساب النجاح والدرجات ، تدفع ثمن المماليك من مالها ثم تنظر اليهم وهم يعتلون الكرسى ·· دون أن تعير هذا الذى يحدث وأصحابه التفاتا ·· حين تلتف حول رجل الدين المعتز بنفسه ، العزيز بايمـانه ، وتسميه (سـلطان العارفين) ·· هذا هو السلطان الحقيقى فى عين مصر ·· فعلت هذا مع (ابن الفارض) سلطان العاشقين ، وفعلته مع الحسين أبى على وهو السلطان أبو العلا (سلطان العارفين) صـاحب المسجد المعروف فى بولاق ·

ان السلطة للمعرفة فى تقدير مصر ·

ان الشعب المصرى يعرف انه على مسار تاريخـه كله هو الحاكم الحقيقى من خـلال علمائه وعطائه ·· من خـلال سخطه ورضـاه على السواء ·

الامام الليثي :

تحدثت عن أولياء الله في القاهـرة · وذكرت منهم ابن الفارض سلطان العاشقين والسلطان « أبو العلا » سلطان العارفين ·· وما دمنا بصدد موقف الرجال في هذا الشعب ، أذكر رجلنا الليث بن سـعد الذى تعرفه القاهرة باسم الامام الليثي ويتعلق أهلها بزيارته ويقسمون في ايمانهم (بالامامين) يقصدون الامام الليثي والامام الشافعي ··

الامام الليثي عرض عليه حكم مصر فرفض كما رفض القضاء ولكن السلطان والقاضي كان كل منهما يغشى في نوائبـه وحوائجه مجلس الليث ، التماسا للرأى أو التأييد فان استحقه جاد عليه به امام مصر وفقيهها ·· واذا أنكر رجلنا الليث من السلطان أو القاضي أمرا كتب الى الخليفة فما يلبث أن يأتي ، الحاكم ، العزل ·

وكم طافت بي جدتي مشـهد الامام الشافعي والامام الحسـين والسيدة زينب والسيدة نفيسة وسائر أهل البيت · وتدعـو لي في حضرتهم التماسا للبركة وكانت أمنية الأمنيات عندها عندما كنت طفلة أن تراني أفك الخط فلما تجاوزت الطفولة ودخلت في مراحل الصـبا كانت أمنيتها أن أقرأ (الجرنال) أى الصحيفة وقد عاشـت حتى رأتني أكتب في الصحف وأؤلف الكتب فاذا بها الدنيـا لا تسـع فرحتهـا واذا بها أيضا تعزو هـذا كله الى بركة أهل البيت الذين ربتني في رحابهم في زياراتها السنوية لهم ·

ويستقر هذا كله في أعماقي ويوجـه قراءاتي دون أن أدرى في البداية ثم بوعى كامل مني بعد أن شببت عن الطوق فدخـل في نسيج شخصيتي كل ما هو مصرى الانسان والأثر ·· حتى حبات الرمل في الصحراء ·· حتى ذرات التراب وأوراق الشجر ·· عاش في داخـلي المكان والزمان والناس والأحداث ·· طلب مني ، جندى ، يوما ، بطاقتي في طريق الهرم في أعقاب حرب سـنة ١٩٦٧ ·· كانت عنده تعليمات ينفذها حرفيا بدون تصرف · ونسيت أنه عبد المأمور كما يقول أهلنـا في القاهرة والريف على السواء ورفضت طلبه ·· كبر على نفسي أن يمتحن حبي للقاهرة ·· قلت له وكياني يختلج من الألم ·· هل يخفى عليك أن الواقفـة أمامك مصرية ؟ تطلب بطاقتي وهذا التراب كحل لعيني ؟

وتركني الرجل أسير ·· لماذا تذكرت سنة ١٩٦٧ ·· لا كانت سنة ١٩٦٧ ·· لقـد جرحت الهزيمة حتى البسمات وسنابل القمح ، ورقة

الياسمين ٠٠ جرحت السنين فى شيخوخة الآبـاء ، وجرحت نضارة الطفولة فى الأبناء ٠٠ جرحت السرور فى القلب والكبرياء ٠٠ جرحت الثقة والقدرة والاباء ٠٠ الى حين ٠٠ جرحت الليالى ٠٠ ليالى القـاهرة فلم تعد عذبه ولم تعد فاتنة ساحرة ٠٠ وبكى الفجر فى الحقول حتى بلل الصبر ٠٠ وتشابهت الأيام فلم يدر بها العمر ٠٠

ومع هذا لم تعرف مصر ولم يعرف تاريخها حائط المبكى ٠٠ كانت مصر فى الأعوام الســتة تلملم جراحها وتجمع نفســها ، وتستوعب خصائصها فى عملية تحضــير للعب الدور الجديد الذى بدأ بالعبور ٠٠ قد تشقى مصر ولكن تشفى ٠

قد تمرض ولكن لاتموت ٠

كان قريب جدتى عالما متبحرا فى علوم الدين وذكرت كيف كانت جدتى تريد أن تجمع لى الدنيا بعلومها وطيباتها فطلبت الى قريبها طيب الله ثراه أن يفقهنى فى علوم الدين وأن يعلمنى القراءات وأن يستمع الى حفظى للقرآن الكريم ٠

سمعت من الشيخ حنفى ابراهيم قريبنــا العالم الجليــل أن الشافعى كان له مريد اسمه ٠٠ الربيع بن ســليمان ٠ وكان الشـافعى كلما ارتج عليه شىء يقول للربيع بن سليمان يا ربيع ادع لى سرجا ٠ يريد « سرج الغول » وهو رجل من أهل مصر عالم باللغــة ولا يقول أحـد شيئا من الشعر الا عرضه عليه ، فيأتى به ، فيذاكره ويناظره ثم يقوم سرج الغول فيقول الشافعى : ياربيع نحتاج أن نستأنف طلب العلم ٠٠ كما كان الشافعى يقول عن فقيه مصر قبله ، الليث بن سعد : (الليث أفقه من مالك غير أن أصحابه ضيعوه) (١) ٠٠ ومن أخطائنا ننسى فى اندفاعة البهر بالغريب ، أفذاذا بيننا من حقهم الحفاظ والتكريم ٠

عاش الشافعى فى مصر وآنس اليها واطمأن بها واطمأن لها فحين كيفت مصر آراءه وحورت وبدلت فيها لم يتردد فى كتابة رسالته من جديد نزولا على رأى مصر وعدولا عن رسالته القديمة التى كتبها بالعراق متأثرا فى رسالته الجديدة بالبيئة المصرية وبما خالط وسـمع تلاميذ الليث بن سعد ينقلون عنه آراءه وفقهه ٠

ومثل هذا فعله بمذهبه ٠ ففى مصر كتب مذهبه الجديد وما أوسع الفرق وأبعد الفارق بينه وبين مذهبه القديم الذى كتبه بالعراق ٠ وكتابه

---

(١) قد يكون المقصود بلفظة (ضيعوه) أى لم يدونوا تراثه ٠

« الأم » به شواهد كثيرة على تأثره بالبيئة المصرية كحديثه فى القراطيس وشهادة الشعراء وصيغ الوقف .

لم تنته بعد قصة الامام الشافعى كما وعيتها مما علمتنى القاهرة أصبحت كتب الشافعى هى الكتب المصرية وحدها وربما دل على أنها كانت هى المعتمدة منذ النصف الأول للقرن الثالث ، قول أحمد بن حنبل لفتاه اذ قدم الى بغداد من مصر : هل كتبت كتب الشافعى ؟ قال لا ..

قال ابن حنبل : فرطت . فرجع الى مصر فنسخ الكتب ..

ولقد رووا أن ابن حنبل قال (عليك بالكتب التى وضعها بمصر) فانه كما يقول الأستاذ عبد الحليم الجندى (وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها ، ثم رجع الى مصر فأحكم تلك) .

وكان الشافعى نفسه يقول فيما يروى البعض عنه (لا أجعل فى حل من روى عنى كتابى البغدادى) وفى هذا ما فيه من اعتماده كتابه المصرى واعتداده به وحده .

لقد كان الشافعى تلميذا لمالك . يهاجم فى العراق مدرسة الرأى أى مذهب أبى حنيفة فما ان جاء مصر وتأثر بالحياة المصرية حتى مال عن مالك وكون مذهبه الجديد .

على أن مصر لها قصة مع ابن مالك شبيهة . فقد أبت أن تقبل الروايات كما هى فى الموطأ بل كان عبد الله بن وهب يدقق فى اختيار الأحاديث وهذا المصرى كثيرا ما كان ابن مالك يفتى بآرائه فاذا قال مالك (حدثنى من أرضى) فانما هو عبد الله بن وهب .

وكم لمصر من قصص مع المالكيين . ان الفقيه المالكى عبد الوهاب ابن على الذى وصفه صاحب تاريخ بغداد أنه لم ير فى المالكية أفقه منه ضاقت حاله فى بغداد فتطلع الى مصر الملاذ . واذا أكرمه المصريون و « عاش » بقى فى مصر فلما حضرته الوفاة سنة ٤٢٢ هـ كان يقول : (لا اله الا الله عندما عشنا متنا) .

وأزور الامام الحسين وأتطلع الى حديث سيرته وأعرف أطرافا منها بالقراءة والحديث حتى أكاد أتمثله فى كربلاء بل أتمثله فى طريقه اليها حين سأل قادما منها عن أهلها ومدى مناصرتهم له واستعدادهم للذود منه فقال :

قلوب الناس معك وسيوفهم عليك •

ترى لو كان فى مصر هل كان علاه سيف أو لحقه حيف ؟

سـؤال ••

الأزهـــر الشريف :

أفضى بنا الحديث الى حرم الأزهر الشريف وهو علم من معـالم القاهرة الكبرى •• واذا ذكر الأزهر ، ذكرت ألفاظ بعينها تتردد على السمع كلما أزهر اسمه •• منها (الرواق •• المجاورين الاجازة) •

وقد ذكرت أن بالأزهر ٣٦ رواقا يؤمها المسلمون من مشـارق الأرض ومغاربها يتدارسون فيها علوم الدين وشعائره • وقد أخذت بهذا جامعات أوروبا فى العصور الوسطى وهو نواة التخصص الذى يسير عليه العصر الحديث •

ومن اهم الأروقة بالأزهر : رواق الصعايدة وهو أهم أروقة المالكية . وكان أكابر الأزهر يتخذون مجلسهم بجوار هذا الرواق حيث يتشاورون فى المهمات كما يقول على مبارك فى الخطط التوفيقية •• وبجوار هذا الرواق ، وحبا فيه وفى أهله من الصعايدة وشيخهم الشيخ العدوى ، بنى عبد الرحمن كتخدا مدفنا له •

ومن أروقة الأزهر ، رواق الحرمين مكة والمدينة ورواق الشـام ، رواق الجاويين ، وغيرهم من أهل جزر الهند الشرقية ـ رواق المغاربة لأهل شمال افريقية وهو رواق كبير وهام •

والتقسيم الى أروقة يتبع تارة الجنسيات ويتبع تارة أخـرى التقسيم المذهبى •

وأعظم دلالة على مكانة القاهرة مدينة الأزهر ، وأزهر القاهرة فى العالم الاسلامى وعلو مقامه فى الشعوب الاسلامية ، هو (ثبت أسماء الذين يؤمونه من أقطار خارج مصر تمتد من أواسط افريقية الى الروسيا، ومن أقاصى الهند الى مراكش) كما تقول دائرة المعارف الاسلامية •

وكلمة (المجاورين) نسـبة الى سكنى طلاب الأزهر بجواره • ويقول على باشا مبارك فى خططه ، ان الأزهر كان به ١٠٧٨٠ مجاورا منهم ٣٦٥١ شافعيا و ٣٨٢٦ مالكيا و ١٢٧٨ حنفيا و ٢٥ حنبليا •• وقد تضاعفت هذه الاعداد فى القرن العشرين •

وكنت أسمع من قريب جدتى أن المدرسين فى الأزهر يسمون أنفسهم (خدمة العلم) ٠

وفي الأزهر يحترم الطالب استاذه ويبجله تبجيلا فقد كان للأساتذة العلماء على (المجاورين) أى الطلاب ، سلطان كسلطان الوالد على ولده ٠ فالطلاب يقبلون ايدى شيوخهم بل يحملون نعالهم ويؤدون لهم مختلف الخدمات ٠٠ وهم ينادون شيوخهم بكلمة (أستاذ) أو مولانا ٠

وفى مصر القديمة كان التلميذ ينادى المعلم : « سيدى » ٠

عند الأزهر الشريف أقول : ما من مصرى بعامة أو قاهرى بخاصة أو مسلم فى سائر العالم الاسلامى الا وللأزهر فى نفسه مكان مميز ما هو لجامعة مدنية أو دينية غيره ذلك ان الأزهر من العالم الاسلامى واسطه العقد فهو يؤمه وضعا ويتوسطه موضعا يقوم على أرض الحضارات والعلوم والفنون منذ القدم مما يمده بالبقاء والاصالة والاقتدار ٠٠ وهو لايبعد عن الحجاز مهبط الوحى ومهد الرسالة وموطن الرسول ٠

وهو فى الشمال من افريقيا

وفى الغرب من آسيا

وفى الجنوب من أوروبا

وكلها تسعى اليه وتلتقى عنده بما لايحدث على هذا الوجه الأعم فى غيره وان تعددت جامعات فى العالم الاسلامى ٠

ولعل نظام الأروقة الذى يسود به خير شاهد على هذا ٠ انه جامع وجامعة رسالة وثقافة ٠٠ وأحس بهذا الحكام والمحكومون على السواء فكان الأولون يضيفون اليه فى البناء ، والآخرون يركنون اليه فى الشدائد ٠٠ حتى حين حاول الأيوبيون الغض منه أو الاعراض بالعناية عنه ، مالبث أن ذاع صيته من جديد بعد انقضاء عهدهم ٠

راحوا وبقى الأزهر كعبة للعلم ، ومحرابا للدين ، وحارسا للحضارة ، حين داهمت الحضارة غزوات المغول فى الشرق ، وانقضاض الغرب فى أسبانيا ٠

وحين تهدد مجد الاسلام هنا ، وتبدد حكم الاسلام هناك ، لاذ الدين ومن ورائه اللغة العربية ، بالأزهر فى مصر حيث كانت من خلاله تشع العلم وتجرى الرزق ٠

قام الأزهر مقام مدارس بغداد فى المشرق ، ومدارس قرطبه فى المغرب ثم انفرد بامانة العلم فى بلاد الاسلام ٠

انه أول عمل معمارى فاطمى صاحب مولد القاهـرة المعزية وبقى معها حتى اليوم ٠

وتختلف الروايات والتفسيرات فى اسمه كاسم القاهرة ٠ هل هو نسبه الى فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه السلام التى انتسبت اليها دولة الفاطميين قاطبة ؟ ويعزز هذا الرأى المقصورة التى أقيمت فى هذا الجامع وسميت باسمها ٠٠ أم أزهر نســبه الى القصور الزاهرة التى أحاطت به عندما بنيت القاهرة ؟

أم الأزهر تيمنا بما سيصير اليه وما ينتظر العلم والدين على يديه من ازهار وازدهار ومكانة ؟ أم الأزهر ، ردا على مدينة الأمويين بالأندلس . الزهراء ٠٠ التى سبقت مولده بأربعة وثلاثين عاما (٣٢٥ هـ) تلك المدينة التى أشار اليها ، وأشاد بها شاعر الأندلس ابن زيدون فى رســالته الى ولادة ٠

انى ذكرتك بالزهراء مشــتاقا والأفق طلق ووجه الماء قد راقا
وللنسيم اعتــلال فى أصائله كأنما رق لى فاعتل اشفاقا

تفترق التفسيرات أو تلتقى فان جامعنا الأكبر بها أو بدونهــا ٠٠ أزهر ٠٠ ومنارة للعلم والدين منذ جلجلت فوق سامقات مآذنه : كلمة الله أكبر ٠

انه الأزهر ذو التقاليد العريقة الراسخة ٠٠ انه الأزهــر الذى كانت (أجازته) شهادة لها قيمتها ٠٠ شــهادة حقيقية صعبة المنــال فلم تكن تمنح الا للقادر على الفهم والاضطلاع بمسئولية التدريس ٠

كان أستاذ الأزهر يرتفع بنفسه ويرتفع بعلمه على التبعيه لايسعى بل يسعى اليه ٠ يقول على باشا مبــارك ان الشــيخ البيجورى كان (عباس باشــا فى جلوسه على تخت مصر يزوره فى درســه بالأزهــر فلا يقوم له بل يوضع كرسى من جريد يجلس عليــه خارج الدرس هنيهه ثم يخرج) ٠

ونستطيع أن نقارن هذه الصورة بنقيضها لنعرف الفرق الجسيم ٠

من اعتداد الشيخ العالم بكرامة العلم وحرمة الأزهر ، اعتد بنفسه وأحترم رسالته الدينية والعلمية ٠ ولو تصاغر لصغر فى عين عباس ٠ وويل للأمة التى تسقط فيها هيبة العلم والعلماء فيسود الجهل والجهلاء ٠

كان أستاتذه الأزهر رجالا وكانوا قيمة وكانوا قمة ٠

من رجال الأزهر رفاعة الطهطاوى وسعد زغلول وعلى مبـــارك والشيخ محمـــد عبـــده والشيخ المراغى والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ شلتوت والشيخ عبد الحليم محمود ٠

ان النهضة الحديثة تدين للأزهر بروادها كتابا وأدباء ومفكرين وعلماء حتى أولئك الذين انســـلخوا منه في فوعة الشـــباب ، وثورة الطموح أمثال الدكتور طه حسين وصاحب الرسالة الأستاذ أحمد حسن الزيات والأستاذ الزناتى ، لم ينسوا الأزهر فى حياتهم أو فى كتاباتهم أيامهم به وآمالهم فيه ٠

حين ترجم الأستاذ الدكتور أحمد أمين لحياته وقف وقفة طويلة عند الأزهر ٠

بل ان الذين تخرجوا من القضاء الشرعى انما يمتدون بجذورهم العلمية الى الأزهر فقد كانت تجهيزية الأزهر ، وسيلتهم الى مدرســـة القضاء وأحد هؤلاء الاعلام الأستاذ أمين الخولى ٠

وفي الأزهر تحلقت حول جمال الدين الأفغانى ، النـــدوة ٠٠ والى الأزهر اشرأب الملوك والسلاطين والأباطرة يجسون نبض شعوبهم على وقع كلمات الاصلاح تنادى بها السلطة الحقيقية وهى السلطة الروحيـــة ممثلة فى علماء الأزهر ورجال الفكر والعلم حتى لقد طلب الشاه وساطة سلطان تركيا عند جمال الدين الأفغانى أن يوقف الحملة عليه فقـــال العالم فى عزة المؤمنين الذين قرنهم الله برسوله فى الآية : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » قال الأفغـــانى رادا على رســـالة سلطان تركيا : (قد عفوت عن شاه العجم) ٠

وكم للأزهر ورجاله من مواقف فى حيـــاة العالم الاســـلامى ٠٠ وكم للأزهر ورجاله من منازل فى قلوب المسلمين ٠

الأزهر ليس فقط معـــلم القاهرة بل انه معلم م نمعالم العالم الاسلامى ٠٠ انه ألف سنة من تاريخنا الألفى ٠٠ ليس جامعا فحسب وليس جامعة فحسب وليس جامعا وجامعة فقط ٠ لقد اســـتحق هذه الوقفة منا بماله من مآثر ومواقف وبصمات ٠ لقد اشترك الأزهـــر فى صنع الأحداث بمصر والمنطقة العربية بل والعالم الاسلامى ففى رحبانه قام الخطباء والزعماء المصـــلحون وأهل الفكر من أنحاء العـــالم الاسلامى بالدعوة الى اصلاح الدين والدنيا بما يعنيه الاسلام من شعائر وشرائع ٠

وممن تصدروا بالأزهر من أعلام الفكر الاسلامى عبد اللطيف البغدادى وابن خلدون ٠

وبالأزهر اتصلت حياة الأحرار وأصحاب الدعوات كالكواكبى حين جاء من سوريا ، بل من الأزهر سافر الشيخ محمد عبده الى الشام فالتف حوله السوريون سنة ١٨٨٥ م (يتلقون منه دروس العلم والحكمة والخير) ٠ كما ترك الشيخ محمد عبده فى بيروت أثرا عظيما ٠٠ بل ان بعض الدعوات الاجتماعية فى بعض بلاد الشرق ، نهض بها أبناؤها ممن تلقوا العلم فى الأزهر وليس الى الشك من سبيل أن جزءا كبيرا من تاريخ باكستان المعاصر قد كتب فى رحاب الأزهر ٠٠ وفى رحابه كتبت فصول من قصة تحرير أندونيسيا ٠

بل كذلك تونس وليبيا والمغرب والجزائر وكثير من بلاد أفريقيا وآسيا ٠

ان الأزهر حلم الملايين فى القارتين

وفى الأزهر قامت الدعوة الى الاصلاح الدينى على يد الشيخ محمد عبده والشيخ المراغى ٠

كما يمثل الأزهر « **الساهر** » على الثقافة الاسلامية ٠

ان أضبط مصحف كتابة ورسما وشكلا من عمل الأزهر

والمصحف المرتل

والمصحف المجود

انه عطاء للأزهر ولمدينة القاهرة ٠

والذى يسجل للقاهرة ويقف بالأزهر و (عليه) لايفوته أن الأزهر الذى كان يدرس لطلابه العلوم الدينية ، علوم الأدب والتاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية والرياضية أصبح الآن يحمل تبعاته فى نهضة الأمة الاسلامية كجامعة كبرى لعلوم الدين والدنيا ٠٠ من كليات أصول الدين والشريعة واللغة ٠٠ الى كليات الحقوق والطب والهندسة والعلوم وغيرها ٠

ان الأزهر ومن ورائه مدينة البعوث الاسلامية ينهض برسالة ضخمة اليوم كالأمس ٠ رسالة دينية واجتماعية وسياسية ٠

رويت أطيافا من قصتي مع القاهرة مثوى الحسين والامامين والهاشمية الكريمة السيدة زينب ٠٠ مفاخر القاهرة ٠٠ وتعمل القاهرة كل يوم على تعميق الدين في وجداني ٠٠ أقول كل يوم فالآذان فى القاهرة يسعد الاحساس فان جميع مؤذنى المساجد فى القاهرة كانوا كما يروى الشيخ البشرى فى كتابه « قطوف » (اذا ظهروا المآذن للهتاف بالأولى أو « الأوله » ٠٠ ومن أولة الآذان هذه ، ابتدع بيرم ، فيما أرجح ، حسين تشرب الروح المصرية ، ألوان الأوله فى الغناء ، اذا آن الآذان وقف المؤذنون وقد أرهفوا آذانهم ، وعلقوا أنفاسهم فى انتظار الأمر الذى يصدر اليهم عن مئذنة الشيخ صالح أبى حديد بالنغمة التى يجرون فيها الأهازيج لليلتهم ٠ فاذا جلجل مؤذن الشيخ صالح بنغمة الرصد مثلا ، أسرع مؤذنو المساجد حوله بالهتاف بها ، وأخذ أخذهم مجاورهم ومن تفتح لسماع أصواتهم ، وهكذا فلا تمضى دقائق الا والقاهرة كلها تجلجل بنغمة الرصد ، واذا بدأ بالبياتى أو بالحجاز أو بالسيكاه ٠٠ الخ فهكذا ٠

وهذا دليل على القصد الى ضبط المؤذنين لأصواتهم ، وتحكمهم فيها بذاتهم وعدم تأثرهم بالأنغام الأخرى ، والا اضطروا الى الخطأ ، ودفعوا الى النشاز ٠٠ وهو دليل فى الوقت نفسه على أن أهل مصر أو أبناء القاهرة على الأقل ، كانوا أصحاب فن ، وأهل ذوق ، وعشاق تطريب ٠

على أن الشيخ البشرى لايخفى دهشته من أين جاء مصر هذا التقليد ولا حتى أين كان مهبطه من الزمان القريب أو البعيد ولعل ذلك يرجع أن « البياتى » هو نغمة البلد الأصلية ، أو هو من أصل النغم التى تتقلب فيها حناجر المصريين ٠٠ ففى الحق أن هذه النغمة ، فوق سعة أفقها ، وتقبلها لكثرة التصرف والتكوين ، فان المصرى يجد من الاستراحة اليها ، والانس بها ، ما لا يجد لكثير ٠ أو لعله يرجع الى هدوء فى طبيعتها ، يلين للحناجر قبل أن تصقل وتجلى ، ثم يتلطف لها بعد ما نهكها الجهد الشديد ٠

لقد موسقت مصر الدين بطبعها الفنان ٠ وقبل الاسلام كانت موسيقى مصر الكنسية (أقدم مدرسة موسيقية معروفة فى العالم) ٠

بل تكاد تكون أغناها أيضا بما انبثقت عنه من موسيقى مصر القديمة موسيقى المعبد التى تحمل أسماءها الى اليوم ألحانا كاللحن السنجارى نسبة الى بلدة سنجار التى تقع شمال محافظة الغربية وكذلك اللحن

الاتريبى نسبة الى أتريب القديمة بالقرب من الديرين الأحمر والأبيض بمنطقة اخميم ٠

ومن موسيقية مصر انها اتخذت دورا ذائعا فى علم القراءات فعن ورش المصرى أخذ المغرب عن تلميذه الأزرق بن عمرو بن يسار المصرى وأخذ الأندلس عن عبد الصمد المصرى أيضا ٠ كم تفجر القاهرة بما هى عاصمة مصر وعاصمة العواصم ٠

رويت أطرافا من قصتى مع الأزهر ٠٠ ولكن الأزهر ومن ورائه دولة الفاطميين له مع مصر قصته ٠ ودولة الفاطميين كما تعرفون شيعية ٠٠ ولكن مصر لم تتشيع بل تهكمت من الفاطميين حتى فى أوج حكمهم ، ومن تعاليهم حتى اضطروا كما يقول الدكتور كامل حسين الى (أن يغيروا عقائدهم حتى تتلاءم مع طبيعة المصريين) بعد أن باءت كل محاولاتهم لحمل مصر على اعتناقها بالفشل ٠

ابتدعوا الأعياد ومناسبات السرور والترفيه والوانا من الطعام والشراب ولكن مصر لم يستهوها شىء وان كانت جاملت أو سايرت فى الأمور البسيطة ولو من باب التغيير أو التفويت أو الثقة بالنفس فهى الباقية بعد كل السطحيات ٠ لقد مكثت الدولة الفاطمية نحو مائتى سنة ومن ورائها ذهب المعز وسيفه ولكنها انتهت وبقيت مصر التى جمعت رفاتهم ودفنتهم فى الدراسة ثم عادت تمارس النقش والتفويف والنمنمة والتكفيت والترصيع وصياغة الذهب والفضة فى خان الخليلى لأن الفن هواها وهوايتها منذ القدم ٠

لقد زين ثلاثة من الدعاة للحاكم أن يدعى الألوهية استغفر الله وراحوا يدعون له بين المصريين بعد أن نجحت هذه الدعوة فى الشام ومن بقاياها طائفة الدروز بجبل لبنان وهم أتباع وأشياع الحاكم ولكن مصر ثارت على دعاة الحاكم وقتل المصريون واحدا منهم وفر الآخران من مصر ٠

واستدعى الحاكم ، رجله الكرمانى (الذى يعرف فى الدعوة الاسماعيلية بحجة العراقيل) ، لتهدئة الخواطر ٠ ولكن الكرمانى شايع مصر لا الحاكم وكتب رسالة فى الرد على أحد دعاة تأليه الحاكم وأنكر فى رسالته هذه ، ألوهية الحاكم وكفر القائلين بها ٠

وهنا ثاب الحاكم الى رشده بعد أن لقنته مصر درسا ٠ فعدل عن ادعائه ٠ وقديما أعادت مصر الرشاد الى جده العزيز بالله بعد أن تهكمت عليه كدأبها يوم ادعى علم الغيب فكتبت له ورقة أودعتها المنبر يقول فيها المصريون :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقة
ان كنت أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقة

وأقلع العزيز عن بدعته بل اعتذر أخوه العباسي وكان شاعرا ، بلسانه في قصيدة طويلة . انها مصر .

رأينا موقفا من مواقف القاهرة مع الفاطميين .. موقفا من العقيدة يتفق مع طبيعة الاسلام البسيطة السمحة ، ومع طبيعة مصر الصافية السهلة بلا كلفة أو تعقيد .. رفضت مصر أن تسلم بالآراء والأهواء التى عرفت فى بعض البلاد الاسلامية من التشيع أو سواه . لم تمل لهم مصر ولم تتجاوب معهم بل لاذت بالمعنى الجامع والكلمة الشاملة .

واذ آنس حكامها منها هذا الميل ، نزلوا على رأيها أو نزلوا عن رأيهم .

وعرف الاسلام مصر ذات العقيدة الخالصة ففى القرن السابع الهجرى عندما كثرت فيه الفرق والنحل واستشرى الخلاف بينها .. واذ حزب الأمر تطلع الاسلام والمسلمون ا لىمصر لتحسم الموقف كدأبها فى الأزمات الكبرى فاتفق رأى العلماء على رجلنا الشيخ تقى الدين السبكى ليوفق بين المذاهب الأربعة ويخرج منها بالنفاذ المصرى واللمح المصرى ، والوجدان المصرى مذهبا يرتضيه الناس ويرتاحون اليه ، ويقرون عنده (١) .

ويتكرر الموقف مرة أخرى فى عصر الشيخ الشعرانى وهو بلدى السبكى . وقد حاول الشيخ الشعرانى ، مرة أخرى التوفيق بين المذاهب الأربعة كمحاولة التوفيق بل أهل الكشف والعيان وأهل النظر والاستدلال ويقول الباحثون الغربيون انه مصلح يكاد الاسلام لا يعرف له نظيرا .

ان أبرز ما تجلت شخصية مصر فى العصر الفاطمى الذى تم فيه تعريبها .. ففى عصر الفاطميين الذى يعتبره المؤرخون نقطة تحول فى تاريخ مصر من الناحية الدينية .. فى العصر الفاطمى هذا وقفت مصر كما رأينا وقفتها فى الدين ، وفرضت أسلوبها على الفن فظهرت من جديد طريقة الحفر العميق التى ألفها أجدادنا فى منبر مسجد قوص وفى محراب السيدة رقية .. وفى ألواح القصر الفاطمى الصغير فى المتحف الاسلامى .

---

(١) كتاب (شخصية مصر) للمؤلفة .

ومع الحفر الغائر والبارز ، التلوين والتطعيم والتخريم والترصيع بالمينا ·· حتى الفخرانى المصرى البسيط تفنن فى تشكيل القلل وزخرفة شبابيكها زخرفة تظفر باعجاب الرائى ·

والفن الاسلامى فى مصر حين يطعم ويرصع ، انما يستجمع خبرات المكان الذى أنطق الحجر ، ولعب بالذهب ، ومهر فى التشكيل والتصوير؟ وهنا تخرج المشكاوات المصرية وكأنها صيغت من ضياء الجواهر النادرة أتكلم عن حرف القاهرة ، تصعد جبل المقطم ليمنحنا اطلالة جامعة على القاهرة ·

كانت الوقفات السابقة عن عقل القاهرة وتفكير القاهرة فما كان لنا أن نقف بالأزهر دون أن يفضى الحديث عن دور القاهرة الاسلامية فى الدين والفن ·· أقصد لمحات من هذا الدور فان استيعابه كاملا يملأ مجلدات ·

ولما كان الأزهر يتوسط القاهرة الاسلامية بأحيائها الشعبية وما تحفل به من حرف وصناعات تروق وتشوق فانى آثرت قبل أن أتكلم عن حرف القاهرة ، أن نصعد جبل المقطم ليمنحنا اطلالة جامعة على القاهرة ·

وأهل القاهرة منازههم النيل والمقطم ·· أما النيل فأنتزع نفسى انتزاعا من الحديث عنه الآن حتى لا يستوعبنى دون أن أستوفيه ·· أتحدث الآن عن المقطم لقربه من الأزهر ·

ان الجالس فى أعلى المقطم يرى منظرا عجبا ·· هنا تطل عينى وقلبى على القاهرة · المنازل تبدو لعينى أشبه بتلك التى يعرضها والت ديزنى على الشاشة ·

كل شىء يصغره البعد العادى منه والمعنوى ، ويكبره القرب ويكبره الحب ، الا الله فهو وحده الذى يظل فى الحالين كبيرا كبيرا فى العين والقلب والضمير ·· قربه رحمة ورضاء ·· وبعده قوة وامتناع ·· ليس كمثله شىء وليس له كفوا أحد ·

أعلى المقطم القاهرة تبدو وكأنها تزحف ببيوتها وعمرانها الى سفح الجبل · لقد علته واستراحت هذه الدءوب الطموح وسحبت فى ركابها أعمدة النور وأسلاك البرق ·

عينى ترى منازل للحياة ومنازل للموت كان يظن فى وقت من الأوقات انها نهاية الأحياء ونهاية حدود مدينة القاهرة فاذا بالحياة تمتد بعدها الى مدينة المقطم حتى لتحصرها بينها وبين القاهرة القديمة ·· دائما الحياة أقوى من الموت ·

عينى تتزاحم عليها أشياء كثيرة يقابل بعضها ، بعضا ٠

من على المقطم يصفو وجه القـاهرة لرائيه ومتمليه ٠٠ الشـمس تسكب على مدينتنا الحبيبة دافقا من النور أبيض وهاجا ٠٠ وضحكت لى من بعيد القاهرة ٠٠ الجميلة الآسرة ٠٠ العظيمة الآهلة ٠٠ أسفرت على يمينى المنازل الكبيرة والعمارات الشاهقة والمآذن السامقة والقباب ٠٠ وأرى من المقطم القلعة بشموخها ورسوخها ٠٠ ما أحفل تاريخ الانســان بالعبرة ٠ هذه القلعة بقبابها المتدرجة فى الارتفاع تمثـل تاريخـا فى العيش والتفكير ٠٠ كان الانسان حين بناها ٠٠ يحتمى بالحصون والقلاع يشيدها على ارتفاع ، وينشد عندها الملاذ والامتناع ويرمز بها الى القوة والضمان فاذا به اليوم بعد غزو الفضاء وسيادة الطيران يرجع الى الأرض وما أكثر ما يرجع اليها ـ يودعها ذخائره وينحت خنادقه فى هذه الخالدة الباقية ٠٠ هذه الأرض الطيبة منها خلق ، وفى رحابها نشأ ، وفى مناكبها مشى ، وبها شب ، وعليها درج ومنها خرج ، واليها يعود ٠

جبل المقطم :

وفى اطلالة على القاهرة من الجبل رأيت كثيرا ٠٠ وبعض هذا حى الراحلين ٠٠ وكانت جدتى فى المـواسم كسائر المصريين تتـذكر الأعزاء الغائبين وتترحم عليهم ٠٠ أما أنا فكنت أرى فى القرافة أشياء أخرى ٠٠ لاحظت صغيرة أن الزحام يعرف حتى القرافة فهى لا تظفر بالهـدوء أو الصمت ان الزحام فيها ، ألوان ٠٠ فى الأشخاص والأصوات والحركات والمعانى والعبر ولعل أشد هؤلاء اثارة للانتباه ، الفقهاء ٠

هؤلاء الفقهاء معلم بارز من معالم (القرافة) فهم فى (المواسم) يجوسون خلال المقابر فى البكرة الندية يمشى الواحد منهم يتدلى ذراعه الى جانبه ويتدلى من الذراع جعبـة انطبق بعضها على بعض ٠ أما عيناه فهما تدران فى كل اتجاه كالصائد الذى يتشمم ريح فريسته حتى اذا لمح على البعد شبحا جلله السواد حث الخطى نحوه وتنحنح وسعل فاذا دنا منه ألقى تحية الصباح ٠٠ وقبل أن يجيئه الرد يعرض خدماته ثم يردد عبارات محفوظة فى حكمة الحياة والموت والزوال والبقاء يستنزل بعدها للمرحوم الرحمة ، ثم يعود الى موضوعه الأصلى فيقترح عـلى السـيدة المحزونة أن يقرأ سورة فاذا هبطت عليه بعد طول الحاح الموافقة ، قعد القرفصاء وأخذ يتلو متمهلا مجودا ، وعيناه ٠٠ عيناه لا تستريحان من مهمتهما بل تظل كما كانتا تدوران فى كل اتجاه ، حتى اذا لمحت على البعد مرة أخرى ، شبحا اسود ـ أسرع فى القراءة متخطيا آيات مزدردا

أخرى ، وكأن مسا من كهرباء سرى فى لسانه وجسمه كله ، فهو يطوى السورة طيا حتى يصل الى آية مبشرة تصلح للوقوف عندها ثم يهب واقفا وقد مد يده فى انتظار الأجر ومد رجلا على استعداد للعدو واللحاق بالصيد الثانى .. وهكذا .. وهكذا يظل واحدهم يومه كله فى مطاردة واقتناص .. وأكثر السور دورانا على ألسنتهم ـ (الكهف) و (الرحمن) لست أدرى هل لسهولة يحسونها نحوهما من طول ترديدهما أم بناء على طلب الزباين فان لهاتين السورتين جاذبية خاصة عند السيدات والكبيرات خاصة وفى سورة (الرحمن) موسيقية عذبة لأنها تجرى فى الأسلوب على نظام الفواصل مع القصر والتتابع والألف فى الآية التى تتخلل السورة كثيرا « فبأى آلاء ربكما تكذبان » حرف المد هذا مريح ، ثم الصور الجميلة فى السورة .. النعيم الموعود ، فيه من كل فاكهة زوجان .. ونخل ورمان وحور عين كأمثال اللؤلؤ والمرجان تستهوى من علت بهن السن أو لعلها تغريهن فى مغرب العمر عن الدنيا الذاهبة هذا اذا كان هناك سيدة تعترف بالسن . والحقيقة أننى كلما سمعت هذه السورة تملأ على صورة جدتى خيالى ونفسى بل تملأ على المكان كله فقد كانت تصغو الى المقرىء وهو يقرؤها فى استغراق وحنان وتتمتم ، وأذنى تسمعها كلما ورد ذكر الجنة « لم يتمتعوا فى الدنيا يتمتعوا فى الجنة ونعيمها » وتنشج روحى من أجلها ومن أجل أعزائها أعزائى ـ حتى اذا انتهت السورة أحسست أمى الكبيرة براحة كبيرة تسرى بدورها الى ، وكأن السورة سكبت عليها برد الرضا وشآبيب الرضوان .

ولكن أشد ما يضايقنى من مقرئى القرافة ، ازدرادهم كلمات الكتاب الكريم وخاصة فى هذه الآية التى أعدها لوحة رائعة لا أمل النظر اليها والتعمق فيها « وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ، ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا .. تحسبهم أيقاظا وهم رقود وتقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » .

هذه الطاقة الهائلة من المعانى والصور التى شحنت بها الألفاظ .. أى كهف هذا وأى ناس أولئك الذين راحوا فى سبات عميق .. لا يحسون نأمة ولا يسمع لهم ركزا ليسوا من الدنيا اليقظى حولهم ولا الدنيا منهم حتى الشمس تزاور عن كهفهم فى المشرق والمغيب . أنا عاجزة عجزا تاما عن تصوير ما بنفسى من الاحساس نحو هذه الكلمة « تزاور » بما فيها من عزوف مقصود أو غير مقصود .. بما فيها من تجاهل .. بما



منظر للقلعة والقرافة الشرقية (قرافة المماليك)

فيها من اعراض ، ان الشمس التى تزور الدور كالقصور بدون تمييز أو محاباة تزاور عن كهفهم ..

هذه الآية المشحونة بطاقات التعبير وقدرات الكلمة الغنية بالرمز والاشارة تضيع فى تطوحات رأس فقى القرافة ورقبته المترنحة .. تضيع على لسانه الذى يدور .. كالطاحون ينهب الحروف نهبا فيطوى السورة فى دقائق تسيء الى المعانى والصور وأرقى وأجل فنون البلاغة . أنا أعرف كلمة فقيه بمعناها المقصود من التسمية كلمة جليـــلة عالمة ولكنها حين خرجت عن مدلولها الأصلى لنطلق على هؤلاء نصل لونها حتى لتذكرنى بالمثل الشعبى (من خرج من داره اتقل مقداره) وكثيرا ما تصدق الأمثلة على الأشياء كما تصدق على الأشخاص .

ليتنا نقرأ الفاتحة بأنفسنا فى احتشاد وفهم واحساس . فنحفظ للأعزاء الراحلين جـلال الذكرى ونحفظ للكتاب الكريم هيبتـه ومكانه وكلها بلا حدود .

فى الصفحات السابقة زرنا حى الراحلين ورسمت صورة لمقرئيه ولكنى بعد أن تعلمت وقرأت وطفت بكل شبر فى القاهرة بل فى مصر كلها سياحة فى المكان والزمان أصبح لحى الراحلين صــــورة مقابلة فى ذهنى .. لقد أحبت مصر الحياة .. بل ا نحضارتها حلم بالخلود ورغبة حميمة فى البقاء وتعلق به .

كان أسلافنا من حبهم للحياة لا ينطقون اسم الموت بحروفه بل يكنون عنه فيقولون عن الميت (عبر الى الضفة الأخرى) أو (ربط حبال السفينة فى المرساة) أو (سافر حيا) .

وكما نعتقد بعد الاسلام أن الانسان الصالح جزاؤه عند ربه جنة النعيم ، كان قدماء المصريين يعتقدون أن الحياة الأخرى انما تكون فى السماء ، والعالم الآخر عندهم ليس العالم السفلى بل العالم السماوى (الموت هو الصعود الى السماء على شعاع من نور فكانوا يقولون (ولقد ضرب لنفسه شعاع « رع » ليصعد فيه) .

والمصرى القديم كان يرى فى بهاء سماء مصر الصافية ليلا ، أرواح أعزائه السابقين تتلألأ وتطل عليه فى شكل نجوم .. فنجوم السماء فى عين المصرى أرواح الأحبة .

كان المصرى لا يتصور أحبابه الراحلين موتى فى بطن الأرض بل أرواحا مجنحة تحلق كالطيور وترتفع فى السماء وترتفع على الأعداء فاذا

أقبل الليل ، تملاها فى الجهة الشمالية من السماء نجوما أبدية أو كما يسميها (غير الفانية) •

وتصوره هذا يفسر بأنه يقصد النجوم القطبية التى لا تغرب ولا تغيب •

شفاف هفاف خيال مصر كروحها •

التابوت المصرى ، فى المتحف ، غطاؤه فيه نوت الهة السماء تنشر ذراعيها كجناحين أى دعاء بالرحمة والصعود فى انطلاقة من الاسار الى الرحبات العليا •

الراحل المصرى تظلله السماء وترعاه

الحنان لا يفارق المصرى حيا وميتا •

والموت في الرؤية الدينية ، رقي ، بالانتقال من حياة الجسد الى الروح وقد تكشف القلب المصرى هذه الرؤية قبل الأديان فاستعلى على الموت بالخلود أعمالا باقية وذكرا عاليا ، وتاريخا مسطورا •

وما الخلد مرتبة تلقى — وتؤخذ من شفاه الجاهلينا
ولكن منتهى هم كبار — اذا فنيت مصادرها بقينا
وأخذت من فم الدنيا ثناء — وتركك فى مسامعها طنينا

حديقة الأزبكية

تكلمت عن حب مصر للحياة والفرحة بها • وأظهر ما يتجلى هذا فى الفن •• حتى حين تكون مصر جريحة مثخنة بالجراح والديون •• لم ينقطع عطاؤها للفن •• والقاهرة في طفولتي وصباي ولم تكن مصر قد استقلت بعد ، كانت تشرق بحديقة الأزبكية وأكشاك الموسيقى والفرق الموسيقية والمسرحية العالمية وكان شارع عماد الدين حاشدا بالمسارح حتى كان يسمى شارع الفن •

عند حديقة الأزبكية التى تحولت الآن الى بوليس نجده ولم ينجدها أحد حين ذبحت أشجارها وطمس جمالها •• كانت حديقة الأزبكية كما تحكي جدتي فى وسطها الفسقيات تتناثر حولها المصابيح وبها الجبلاية على أبدع طراز وتخوت الطرب وكانت الكراسى تؤجر بثمن زهيد لعشاقه فلما شبت ثورة ١٩١٩ كانت حديقة الأزبكية مسرحا للمقاومة السياسية منها والاجتماعية ويقول أستاذنا الدكتور حسين فوزى أن البوليس لم يكن يتدخل فى هذه الاجتماعات الا بقدر المحافظة على النظام فيها وحولها •

كانت حديقة وكانت تاريخا •• وقد مسخنا الحديقة ولم نحفظ

التاريخ • رأينا الأوبرا تحترق وفى قبالتها المطافى الرئيسية لمدينة القاهرة فلا تعلل بالتليفون أو المواصلات بل الأوبرا التى كانت تكمل وتتمم بهاء حديقة الأزبكية والقاهرة معا •

الأوبرا التى أنشئت سنة ١٨٦٩ معلنة سبق مصر فى الأخذ بجوهر الحضارة الحديثة وأنشىء معها فى سنة ١٨٦٩ مسرح مصرى تعرض على خشبته تمثيليات مصرية •

وكان ذلك حدثا جديدا • فالى ذلك الحين لم يكن أحد قد كتب أو مثل على مسرح وطنى أمام النظارة كما يقول الناقد الفرنسى (جان لويس بارو).

وكان انشاء مسرح عربى فى ذلك الوقت ، يعد مجازفة كبرى لاعتبارات كثيرة •

وهكذا بدأت الحياة المسرحية فى مصر •• بدأت فيها ، وبها ، قبل أن يفد عليها سليم نقاش وزملاؤه لائذين بها أمام ضغط السياسة فى بلدهم •

وحين أطلق الشام الصبيان فى الشوارع ينادون على المسرحى أحمد أبى خليل القبانى :

أبو خليل مين قالك	على الكوميديا مين دلك
ارجع لكارك أحسن لك	ارجع لكارك قبانى

حين حدث هذا فى الشام تحمس المصريون للمسرح وأقبلوا عليه بل تزاحموا على مشاهدته • بل شاركوا فيه بطريقتهم الخاصة وهى التعليق على الأحداث وتوجيه الأبطال فى عملية تاليف فورية •

لقد اشترك فى كتابة المسرحية فى مولد المسرح المصرى أى فى القرن التاسع عشر الزعيم المصرى مصطفى كامل فكتب مسرحيته (فتح الأندلس) سنة ١٨٩٣ •

هل يعزا هذا الى طبيعة الشعب المصرى أم الى المناخ الثقافي في مصر ؟ أم الى سبقها فى الاتصال بالغرب منذ الحملة الفرنسية وما أعقب الصحوة من ارسال البعثات الى أوربا والوقوف على أسرار التقدم بوعى متفتح بين الفروق حتى ان الشيخ رفاعة الطهطاوى ابن الأزهر وابن الصعيد فرق فى هدوء وواقعية بين الرقص الشرقى والرقص فى الغرب •• فرق بين العفة وبين الاختلاط ولم ير فى مشاركة المرأة ، الرجل ، خطرا عليها طالما كانت محصنة تحصينا صحيحا بالتربية الحقة والتعليم الجوهرى •

وتحكي جدتي عن المسرح وكانت تنطقه المرصح بتقديم الراء وقلب السين ، صادا • وتفيض عن الشيخ سلامة حجازى و « السلامات » التى كان يغنيها والجوقات •• وعن ليالى أرض شريف الذى كان ينفق على المسرح من ماله • كان أغنياء عصرها ، أصلاء وأهل نعمة وأصحاب دور فى الفنون والوطنية لأنهم أصلا من بيوت نعمة •

وتحكي جدتي عن الشيخ سلامة حجازى وكيف نشأ نشأة متواضعة فعمل صبى حلاق وشارك مع المقرئين والمنشدين فى الأذكار وتعلم أثناء ذلك العزف على (السلمية) ولحلاوة صوته وهو فتى ، جعلوه يؤذن الفجر فى مسجد بالاسكندرية فكان صوته يجذب النهار •• والناس •• الناس •• كانوا ينظرون مذهولين كأن الآذان انهل عليهم من السماء ، عليه نفحة من روح بلال مؤذن الرسول •

تقول روز اليوسف فى مذكراتها عن تلك الفترة ، ان روايات المسرح فى ذلك الوقت (لابد أن يكون بطلها مطربا ، ولابد أن يغنى المطرب فيها بضع قصائد لا علاقة لها أبدا بموضـــوع الرواية •• بل لمجرد اجتذاب الناس الذين كانوا لا يشهدون الا اذا كان فيه « مغنى ») •

ألم أقل ان أهل القاهرة أصحاب ذوق وأهل فن وعشاق تطريب ؟

ومن حديث روز اليوسف نفهم سر زج الشيخ سلامة حجازى بالأغانى فى مسرحياته حتى الدرامية العنيفة مثل هملت وعطيل بل كان يزج فيها بمنولوجات الوعظ والارشاد مثل منولوج (فتى العصر) و (فتاة العصر) .

وكان يختتم مسرحياته بفصل مضحك ولا موضوع له ولا هدف منه الا (الاضحاك) لا غير ترويحا وترويجا •

ويبدو أن تقليد (الفصل المضحك) انتقل من الشيخ سلامة حجازى مع رواياته الى فرقة عكاشة •

ومن طرائف التمثيل فى ذلك العهد أن المسرحية كما تحكى جدتى كانت أحيانا تختتم باستفتاء غنائي عن الرواية المعروضة • فقد ختمت مسرحية (البدر لاح) وكان مؤلفها عبد الحميد كامل بهذا الاستفتاء :

مش بشرفكم وبذمتـبكم الرواية دى جت على كيفـكم

قولوا الحق يا أيوه يا لأ ماحـدش راح يزعل منـكم

وهو استفتاء خفيف الظل وان كان يبدو أنه صاحب نظرية نعم •• أو لا اياها •

وتحتفظ ذاكرة جدتي بأسماء كثيرة في عالم المسرح في زمانها ٠ وعندما قرأت لنفسى عن المسرح لمست صدق ذاكرتها تلك المصرية التى كانت لا تقرأ ولا تكتب ٠٠

حين قرأت لنفسى تبينت أن بداية القرن العشرين كانت بداية كبيرة للمسرح المصرى عمادها جورج أبيض وعبد الرحمن رشدى المحامى وعزيز عيد ونجيب الريحاني وعمر وصفي وأحمد فهيم وأمين صدقي ومحمد بهجت وفؤاد سليم وعبد العزيز خليل والماظ ستاتي وسرينا ابراهيم وصالحة قاصيه واستر واحسان كامل وغير هؤلاء ٠

ومن بين هؤلاء كون جورج أبيض فرقتـه التى عمـلت على مسرح برنتانيا القديم الذى يحل محله الآن محل شملا بشارع ٢٦ يوليو ٠

وقد شهدت القاهرة نهضة مسرحية حين كان شارع عمـــاد الدين يزخر بالمسرح والفرق التمثيلية وخيال الظل والألعاب البهلوانية بل عملت فيه فرق تمثيلية واستعراضية أوروبية كان يجذبها اليهـــا فعلى خشبة الكورسال رقصت أنابافلوفا أثناء طوافها حول العالم ومثلت ساره برنار فى أواخر أيامها ٠

وأقبل القـاهريون على المسرح حتى ان أصـــحابه الرواد لم تعيهم الوسيلة فقد حدث أن (عزيز عيد) لم يجد مسرحا خاليا حين كان يقوم بتمثيل رواية : (خلى بالك من اميلى) فقرر أن يستأجر صالة جراج فى شارع الفجالة فيها ما يشبه خشبة المسرح غير أنها مكشوفة ليس لهـــا سقف ، وأرضها واسعة ليس فيها مقاعد ٠٠ ونشر فى الاعلانات عن الرواية (ان على كل مشاهد أن يحضر معه مقعد ليجلس عليه) ٠

ولعله كان أول مسرح فى الهواء الطلق عرفته مصر ، وتروى فاطمة اليوسف أن كل واحد من المتفرجين كان يجيء بخادم يحمـــل له مقعدا أو (فوتيـلا) ضخما من الفوتيلات المغطاة بالتيل الأبيض التى كانت شائعة فى البيوت فى ذلك الوقت ، فاذا جاءت أسرة بأكملها احتاجت الى حمولة عربة من المقاعد والفوتيلات ! فكان هذا المسرح من أعجب المسارح فى تاريخ التمثيل ٠

ومما يحكى من طرائف المسرح فى ذلك الوقت أن جورج أبيض حين انضم الى أسرة رمسيس ، مثل رواية (سيرانودى برجراك) وهى رواية تحتوى على خمسة عشر منظرا ٠ وهى تحتاج الى أداء محكم سريع واستعداد فنى كامل لتغيير المناظر فى وقت قصير ٠ وهو مستوى لم يبلغه المسرح المصرى فى ذلك الوقت ٠ فكانت النتيجة أن استمر تمثيل الرواية حتى مطلع الفجر ٠

ونام الكثيرون منكمشين من البرد ، فلما خرجوا وجدوا القاهرة وقد استيقظت مع تباشير الصباح ٠

وفى اليوم التالى اجتاحت القاهرة موجة من الطلاق بسبب هذا الحادث الفنى الفريد ٠

كم سمعت عن القاهرة وكم قرأت وكم شاهدت فلا تروى أذنى وعينى على كثرة العب وطول الرشيف ٠

ومع ازدهار الفن فى القاهرة ، ازدهرت الصحافة الفنية فكانت تصدر فى القاهرة سبع صحف فنية غير الصفحات الكاملة للفن فى الصحف اليومية الكبرى وكان للنقاد الفنيين فى النهضة المسرحية دور لا يقل عن دور القائمين بها أنفسهم ٠

وكانت كل جريدة أو مجلة تفسح للمسرح صفحة أو صفحات وتخصص كاتبا من كتابها اللامعين للنقد المسرحى ٠

رأينا اهتمام الصحافة بالفن الذى كانت له صحف ومجلات قائمة بذاتها فضلا عن الصفحات فى سائر الصحف التى كانت كل منها تخصص كاتبا من كتابها اللامعين للنقد المسرحى ٠ كان الأستاذ التابعى يكتب عن المسرح فى « الأهرام » بتوقيع « حندس » والأستاذ ابراهيم المصرى يكتب فى مجلة « التمثيل » والأستاذ محمود كامل المحامى فى جريدة « السياسة » ومحمد على حماد فى « البلاغ » وزكى طليمات فى « المقطم » ، وعبد المجيد حلمى فى « كوكب الشرق » وظل الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية الأسبق زمنا يكتب عن الفن فى « روز اليوسف » أول صدورها ، كما كان الأستاذان ابراهيم عبد القادر المازنى ومحمد توفيق دياب يكتبان أيضا عن المسرح من حين الى آخر ٠

وكان أديبنا المازنى من نقاد الفن ٠ ومما يروى عنه ، أنه كان مختصا بكتابة النقد الفنى فى جريدة « الأخبار » التى كان يصدرها المرحوم أمين الرافعى . ومن نقاد المسرح فى نهضته الأساتذة حبيب جاماتى وجمال الدين حافظ عوض وفكرى أباظة وحنفى مرسى الذى كان يوقع باسم (الأحنف) .

كان شارع عماد الدين يسمى شارع الفن لكثرة ما به من مسارح وفنون ٠ وكانت المسرحيات يعتمد كثير منها على الترجمة ومنها مسرحيات الريحانى التى كان أكثرها فرنسى الفكرة مصرها الرجل الموهوب وأجاد توزيع الأدوار ثم يأتى بعد هذا كله (شخصية الريحانى) وكان لها أثر كبير ٠

وشـــمل الاقتباس والتعريب مسرحيات ســـليمان نجيب وبعض مسرحيات تيمور العصرية ، كما تمثلت المسرحية التـــاريخ والأســـاطير كمسرحيات الحكيم وباكثير وعزيز أباظة ٠

هذا الى مسرحيات شعبية تشيع فيها الفكاهة والنكتة أو مسرحيات غنائية (أوبريت) مثل العشرة الطيبة التى لحنها سيد درويش ٠

وقد استطاع سيد درويش فى حياته القصيرة أن يحدث دويا لم يخفت صداه بل امتد شأن النهضات الأصيلة ٠ ومن امتداداته ابراهيم فوزى وزكريا أحمد والقصبجى ومحمود الشريف وأحمد صدقى ٠

وتبعا لهذه النهضة وجدت الأوركسترا والتأليف الموسيقى والمقدمات الموسيقية للمسرحيات كما وجدت المعاهد الموسيقية بل أرسلت البعثات الموسيقية الى فرنسا لتكوين نواة للثقافة الموسيقية ولأول مرة فى الشرق تتكون الأوركسترا الكبيرة على يد مصر ٠ وغدت أوركسترا الاذاعة المصرية تضم جميع الآلات السيمفونية ٠

المقاهى الفنيـــة :

وبعد أن تحدثت عن القاهرة والمسرح التمثيلى منه والغنائى وصحف القاهرة الفنية أتحدث عن المقاهى الفنية فى القاهرة فقد كان غير قليل من مقاهى القاهرة فى ابان نهضتها المسرحية أشبه بمنتديات (فقهوة الفن) يجتمع فيها نقاد الفن كما كان يجتمع الأدباء : طه حســـين ــ الحكيم ــ أبو شادى ــ د٠ ناجى ــ أحمد رامى ومدرسة أبولو ــ وكانوا ينظمون الشعر فى كواكب عماد الدين ، كما شهدت (القهوة) معارك حامية بين النقاد وأصحاب الفرق المسرحية ٠ كان هناك المقاهى الوطنية ويرتادها العقاد والمازنى وحافظ ابراهيم والكتاب السياسيون ٠

أما (القهوة التجارية) فى مدخل شارع محمد على فكانت منتدى للفنانين خاصـــة حتى لكأنها نقـــابة لهم ٠ وقد استقل بها اليـــوم فلول (حسب الله) ٠

وفى الشارع نفســـه مقهى الكتبخانة اذ كان يقع أمام دار الكتب المصرية حيث يتصدره حافظ ابراهيم ٠ وفى أوقات العمل الرسمية يندو اليـــه موظفو الدار والأدباء والظرفاء وفى مقـــدمتهم الشـــيخ عبد العزيز البشرى ٠

وبار اللواء وهو مقهى الحزب الوطنى حزب مصطفى كامل ومحمد فريد ٠

ويحكى أن أمير الشعراء شوقى كان يؤثر بار سان جيمس وبار صولت وتكتمل الحلقة فى العاشرة مساء بعد أن يصل فلا تنفض الا فى الواحدة بعد منتصف الليل ٠

ومن مقاهى الفن والأدب وسائر طبقات المجتمع فى الحقيقة خاصة فى رمضان ، الفيشاوى ٠

وقد حكى لى شاعرنا رامى أنه كان فى شارع خيرت مقهى مرح يعلو فيه صوت ظرفاء هذا الشارع ويستطيع السائر أن يميز صوت امام العبد وحسين الترزى وهما يتنادران ويتضاحكان والأخير من أساتذة أم كلثوم فى فن النكتة ٠ وكانت غاليتنا تقول ان أحلى كلمة سمعتها من حسين الترزى قوله فى الشتاء : لو كان الواحد يقدر يحط رجليه فى جيوبه ٠

أما مقاهى روض الفرج الخشبية فى حمى النيل وقربه فقد كانت تعج بالفنانين أصحاب الأسماء الكاريكاتورية وهى بأنسها الشعبى مصيف القاهرة الشعبى ٠

ومن بين هذا الحشد الحاشد من مقاهى القاهرة مقهى لا ينسى هو « كافيه ريش » ولياليه الغنائية والتاريخ الفنى للقاهرة يسجل لهذا المقهى الليالى التى أحياها صالح عبد الحى والشيخ أبو العلا وتلميذته الأستاذة بالموهبة والدرس معا ، أم كلثوم التى جاءوا بها اليه كما يقول رامى ، طفلة تردد التواشيح فكان صوتها ينفذ الى القلب والسمع ويسرى فى مسامع القاهرة صافيا نقيا ماسيا لا ينسى كما سمعه جيلى بعد هذا بسنوات عديدة ، وماسيته أشد توهجا ٠٠ وكما ستسمعه أجيال عديدة فأم كلثوم بعد الرحيل أطول حياة وأطول قامة وهامة ٠ انها علامة ونقطة تحول ٠٠ **انها أم كلثوم** ٠

تحدثت فى الصفحات السابقة عن مقاهى القاهرة بوصفها منتديات ثقافة وفن وأدب ٠ وقد شدنى حديث المسرح فوقفت عنده أكثر من مرة ٠ دعونى الآن أتحدث عن نيل القاهرة أيام كان النيل تحتفل به مصر كلها وتحتفل به القاهرة ٠

طالما ابتهجت طفلة بهذه الأغنية التى كانت ترددها دروب القاهرة عند الفيضان معلنة فرحنا بفيضه ٠

يقول المنادى :

وحل جبر الخاطر ويردد الأطفال وراءه عوف الله
دا شىء من السنة للسنة عوف الله وتعيشوا الى كل عام عوف الله

والنيل السعيد له فرحة عوف الله وكل عام يجينا خاطر عوف الله
تخلى له الأرض ليسكن عوف الله ومجيئه به يسر الخاطر عوف الله

والأغنية طويلة جميلة سجلها على مبارك باشا فى الخطط التوفيقية بل سجلها ادوارد لين فى كتابه عن عادات وسلوك المصريين المحدثين ·
The manners and Customs of Modern Egyptians.

يقول ادوارد وليم لين :

ويعلن ارتفاع النيل فى شوارع العاصمة يوميا ، ابتداء من السابع والعشرين من بؤونة (الثالث من يوليو) أو ما يقرب من ذلك · وهناك عدة منادين يقومون بهذه الوظيفة ·· فيختص كل منهم بقسم من أقسام القاهرة ·

وكان المنادى يجول مبكرا فى الصباح ويصحبه ولد ويعلن أهل الحى ببشرى فيضان النيل ·

وقد كنت أعرف الفيضان بطريقة أخرى فقد كانت جدتى تلبس النيل بالألفاظ طبعا ألوانا فتقول البحر لابس الجبة الخضرا أى مياهه خضراء وتكون هكذا عادة فى شهر يونيه والخضرة هذه ظلال النبات المائية عليــه حين يكون المجرى منخفضا ·· وتقول البحر لابس الجبة الحمراء وذلك عندما تكون مياهه محملة بطمى الفيضان ·

وتسمع أذنى منها ومن الجارات والقريبات ان النيل له يوم فى السنة ينام فيه · والسعيد من يحظى منه برشفة أثناء نومه ففيها روح من قوة ، ونفحة من حياة ، ولمحة من جبروت والشقى من دنا من النيل ساعة يقظته ·· انه عندئذ يطويه · وهى مقولة مصرية قديمة ، وعندنا فى الصعيد · وتردد هذا أيضا فى القاهرة أن فلان يمسح الريال بفركة من أصابعه ·· وتسألهم كيف ؟ يقولون عن ايمان ·· انه قد مسه عرق الصبا ، لاعتقادهم انه فى ليلة القدر يقف الماء فى النيل لحظة ، فمن يشرب منه فى هذه اللحظة يمسه عرق الصبا ·

وهو كما نرى ، امتداد لمعتقداتنا القديمة فيه ·

ولكنى على شغفى صغيرة بهذه الحكايات كان أهم منها عندى أن أرى احتفال الفيضان أى الزفه ··· وطالما سعيت الى هــذه الزفه كلمــا حل

---

(١) نقل الكتاب الى العربية ، الأستاذ عدلى طاهر نور بعنوان (المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم) ·

موعدها وأكون في القاهرة .. حتى حين سارت بي الأيام واخترت موضوع رسالتي في الدكتوراه « النيل في الأدب المصرى » سعيت من جديد الى الشاطيء بوعي أكبر لحضور مهرجان النيل وسعيت قبله الى سراى المحافظة لأرى كتابة الحجة الشرعية التي يحضر كتابتها مندوب عن رئيس الدولة ملكا أو رئيس الجمهورية كما يحضرها العلماء والمدنيون والعسكريون ورجال الصحافة والاذاعة والتجار والأعيان .

وبعد القرار الصادر أمامهم من رجل وزارة الأشغال المنوط به قياس النيل بمقياس ـ الروضة وسماع شهادة الشهود الذين يندبون عادة من وزارة الشئون الاجتماعيه .... بعد الاقرار من هـؤلاء جميعا بأن النيل بلغ بمقياس الروضة ط ١٩ ٢٢ ذراعا واقرارهم بأنه ببلوغ فيضان النيل هذا المقدار يتوفر رى الأراضى المصرية . يعلن مفتى الديار المصرية وفاء النيل المبارك وبذلك يتعين وجوب جباية أنواع الضرائب المقررة الخ.

الذى استوقفنى في الحجه ختامها بهذه العبارة (وتمت بنعمة الله تعالى على هذه البلاد بكمال فيض نيلها المبارك سبب نماء رزقها ومصـــدر حياتها ، فحق علينا جميعا حمده سبحانه والثناء عليـــه بما هو أهله . وشكره على ما أولاه من نعم ، حمدا وشكرا يقربان من رحمته ويجذبان رضاه وتوفيقه . وانا لنضرع الى الله العلى القدير أن يديم على وادى النيل نعمة خصب أراضيه وكل ما يوفر له النماء والرخاء ولأهله السعادة والاطمئنان) .

وقد حرصت وقتئذ على صورة من هذه الحجة أعتز بها بل سعيت في طلب أقدم حجة محفوظة لأتبين من خلالها تطور الصيغة أو مراسم الاحتفال فكان أقصى ما أمكنني الوصول اليه نص حجة وفاء النيل ١٩١٥ من دار المحكمة العليا الشرعية .

أما الاحتفال فقد رأيت بعيني كيف تحتشد الحكومة والشعب على الشاطيء . وركبت الباخرة (كريم) ، ورأيت (العقبة) وهي تسير من ساحل روض الفرج بأعلامها بين عزف الموسيقى ، وقصف المدافع ، وخرير الموج تحدوها الزوارق البخارية لتحيتها .. وكلما أهلت باخرة نيليـــة أطلقت صفاراتها تحية لها . وكلما لاحت لقرية تدافع الأهالى نحو الشاطيء يهللون متواثبين من الفرح . رأيت الأيدى المشققة والوجوه التي لوحتها الشمس .. الرجال والنساء يحملن الصغار على أكتافهن بيد ويلوحن لنا بالأخرى .. رأيت سيدة ريفية تنزع خمارها لتلوح به ورأيت رجلا نزع جلبابه ومضى في التلويح حتى ابتعدت بنا (الباخرة عنه) .

كان الشاطىء بعيدا نوعا فلم أميز وجوه المواكب الساعية اليه · ولكنهم كانوا فى خبب يوفضون وهم يصيحون ويغنون وكانت العقبة تصفق لهم أو معهم ، فاذا أجدت الباخرة فى سيرها ، هرولوا على الشاطىء ليحدوا ركبها وكأن يوم الوفاء قد نسج من ضياء وماء · ومناديل وأهازيج وزغاريد وهمرجة وزياط وحمائم بيض ورايات خضر وجنود وبنود وموسيقى حتى اذا بلغت (العقبة) « باسوس » عادت ثانية الى ساحل روض الفرج ··

ما هي قصة العروس ؟

كنت أتملى النيل وأشارك فى أفراحه فى يوم وفائه ·

رأيت مواكب الأحياء على شاطئيه
ومواكب الموج بين ضفتيه
ومواكب النور في السماء تترسل اليه
ومواكب الشجر والنبت على جانبيه

ولكنى لم أر عروسا تلقى فيه · وعندما درست هذا الموضوع فى رسالتى عنه تبين لى أن قصة عروس النيل خرافة تستند الى أسطورة روجها المؤرخ الاغريقى بلوتارك وروجها بعده كتاب الاغريق واللاتين خرافة تقول أن « اجبتوس » ملك مصر أراد اتقاء كوارث نزلت بالبلاد فنصحه أتباعه أن يضحى بابنته بأن يلقيها فى النيل ففعل ، ثم ناء بالرزء الذى ألم به ، فألقى بنفسه فى النيل فهلك كما هلكت ابنته ·

ولكن هذه الخرافة لا أساس لها من الصحة بدليل أنها لم يرد لها ذكر فى الكتابات المصرية · وهى مع ذلك مصدر الأسطورة التى ذاعت فى الناس قرونا ، ونسج حولها الخيال من فنون الرواية والقصص ما جعل كثيرين يتوهمونها حقيقة حدثت بالفعل وأنها كانت تتكرر فى كل عام ·

لقد كان على النيل محاريب لحابى اله النيل وكان يوضع فى كل محراب طاقة من الزهر تجدد فى كل يوم ، وستة تماثيل من خشب الجميز لحابى اله النيل وستة تماثيل أخرى من الخشب نفسه للالهة « ربيت » زوجة النيل · هذا عدا تماثيل أخرى للاله حابى مصنوعة من الذهب والفضة والأحجار المصرية المختلفة الأنواع كالمرمر واللازورد والزمرد والبلور الطبيعى وكانت هذه التماثيل كلها تلقى فى النيل يوم الاحتفال يعيد حابى فى بداءة الانقلاب الصيفى ويؤتى لها بجديد غيرها فى تلك

المحاريب ، الى أن يحل العيد بعد عام فتلقى فى النهر قبيل فيضانه ، ثم يؤتى فى المحاريب بتماثيل جديدة فى كل عام ٠

ترى هل استمد الخيال قصة عروس النيل من هذه التماثيل التى كانت تلقى فى النهر فنفخ الحياة فى خشب الجميز وفى غيره من المواد التى كانت تصنع التماثيل منها ؟ وهل الالهه « ربيت » زوجة النيل هى التى أمدت الخيال بفكرة العروس العذراء النابضة بالحياة ؟ أيا كان الأمر فالقصة كما نرى أسطورة من أولها الى آخرها زينها الوهم ، ثم خلع القدم على الوهم صورة الحقيقة (١) ٠٠ **حتى الشاعر احمد شوقى سايرها قائلا :**

فى كل عام درة تلقى بـــلا ثمن اليـــك وحـــرة لا تصدق
حول تسائل فيـــه كل نجيبة سبقت اليك متى تحـــول فتلحق
والمجد عنـــد الغانيات رغيبة يبغى كما يبغى الجمال ويعشـــق
زفت الى ملك المـــلوك يحثهـــا دين ويدفعها هـــوى وتشـــوق
ألقت اليـــك بنفسها ونفيسها وأتتك شـــيقة حـــواها شيق
خلعت عليك حيـــاءها وحياتهـــا أأعـــز من هذين شىء ينفـــق
واذا تناهى الحب واتفق القـــدى فالروح فى باب الضحية أليق

والخطورة فى موسيقية شوقى وعبقرية أداء أم كلثوم كصوتها فى هذه القصيدة التى ترسم غناء وكلمات ، لوحة ملونة تضج بالحيوية والحياة وهى أسطورة ٠

لم يعد للوفاء احتفال :

من يصدق أننا أبطلنا الاحتفال بالنيـــل حين استحدثنا احتفالات بمناسبات لا تشائيه أو حتى تدانيه ٠٠ احتفالات لا يحس بها الوجدان المصرى ولا يشارك فيها عن انفعال حقيقى أو رغبـــة صادقة أو عاطفة حميمة ٠٠ ويرى النيل هذا الجحود ويمضى فى سيره ٠٠ فى كبرياء الواثق من نفسه ، الشاعر بقيمته فاذا بالمناسبات المصنوعة تختفى أو تبطل ويظل النيل ٠ النيل الذى تغنى به حتى الغزاة تغنى به شاعر الرومان (فرجيل) وأشار اليه فى ملحمته (الاينيادا) وتغنى به من شعراء الانجـــليز : « شلى » و « كيتس » و « لى هنت » ٠

---

(١) التفاصيل فى كتاب (النيل فى الأدب المصرى) للدكتورة نعمات أحمد فؤاد ٠

وصلت من أجل زيادته الكنيسة المصرية .. ما تسميه « أوشية المياه » التى ترددها بدءا من ثانى عشر من شهر بؤونة الى التاسع عشر من شهر بابه مما يضمه كتاب الخولاجى المقدس . وفى كتاب (دلال أسبوع الآلام) دعاء موصول من أجل النيل وأن يفرح به وجه الأرض . وعيد الشهيد وعيد الغطاس المسيحيان انما هما احتفالان نيليان .

كما صور القرآن الكريم ، النيل ، مسرحا لحوادث التاريخ ورسالات الأنبياء بما رواه من أخبار موسى والخضر على صفحته أو فى واديه .

وصوره شغل المصريين الشاغل من خلال حلم العزيز وتفسير يوسف له وما ترتب على الحلم من أحداث . وقد جاء فى المقريزى فى باب « ذكر مقاييس النيل وزيادته » ان بعض المفسرين قالوا : (ان يوم الزينة هو يوم وفاء النيل . ومن هؤلاء النويرى ويميل الى هذا الرأى الأستاذ عبد الوهاب النجار فى حديثه عن قصص الأنبياء .

واحتفل الفاطميون بكسر الخليج ولهج الشعب بالنيل فى الأغنية والموال والقصة والحدوتة والمثل والفزورة وقد جمع ماسبيرو ، بل واليونسكو ، الكثير من هذا الفيض .

كان عيد الفيضان عيدا فى كل قلب مصرى يستوى فى هذا العلماء والبسطاء فهل يعود هذا العيد وفاء للنيل ؟ (١) الذى يصدق الاحتفال به :

لى فيك مدح ليس فيه تكلف　　املاه حب ليس فيه تملق
مما يحملنا الهوى لك أفرخ　　سنطير عنها وهى عندك ترزق

(١) ناديت سنة ٨٥ على صفحة « الأهرام » بعودة الاحتفال بوفاء النيل . وقد استجابت محافظة القاهرة وجرت مراسيم الاحتفال فى سبتمبر سنة ١٩٨٥ .

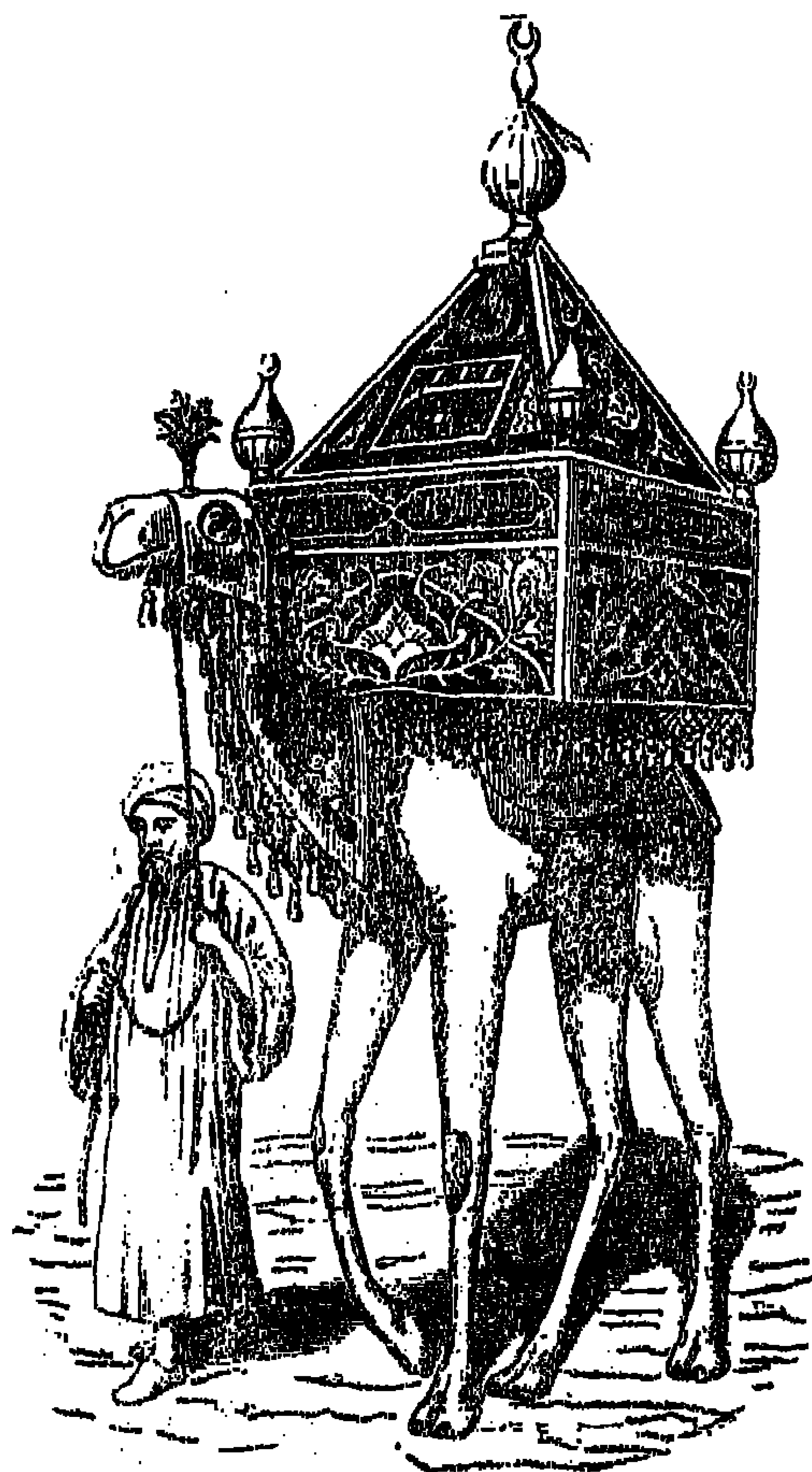
القاهرة بين الأمس واليوم

صور غابت عن القاهرة :

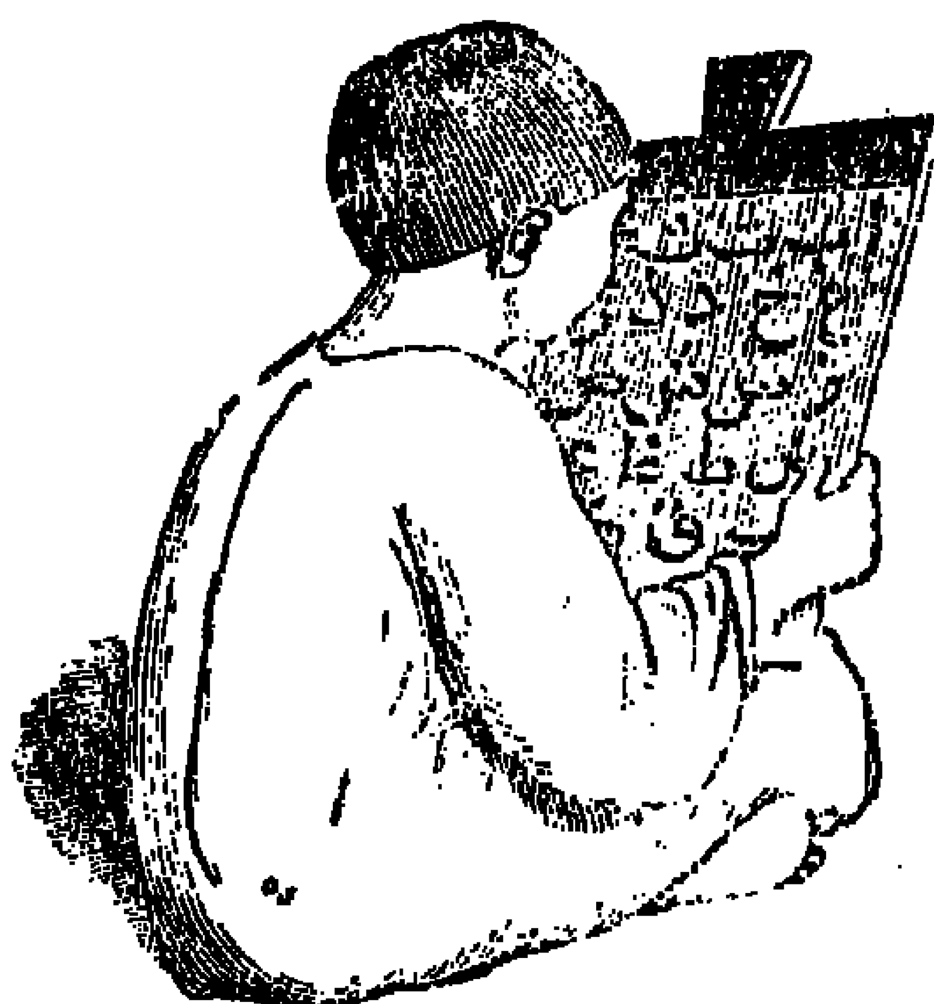
القاهرة الكبرى التى تروع العين بضخامتها وأبعادها ·· القاهرة الكبرى هذه دخلت كلها كلها فى كيانى الصغير ·· أيام عمرى خيوط منسوجة من معالمها ·· من أحيائها ·· من لغتها ذات اللهجة العذبة ·· من أغانيها ·· من أفراحها من أتراحها ·· من فنونها ·· من علومها ·· من صناعاتها وحرفها من بدائعها من روائعها ·· جوايا حبيبتنا القاهرة ·· داخلى ·· فى دمى ·

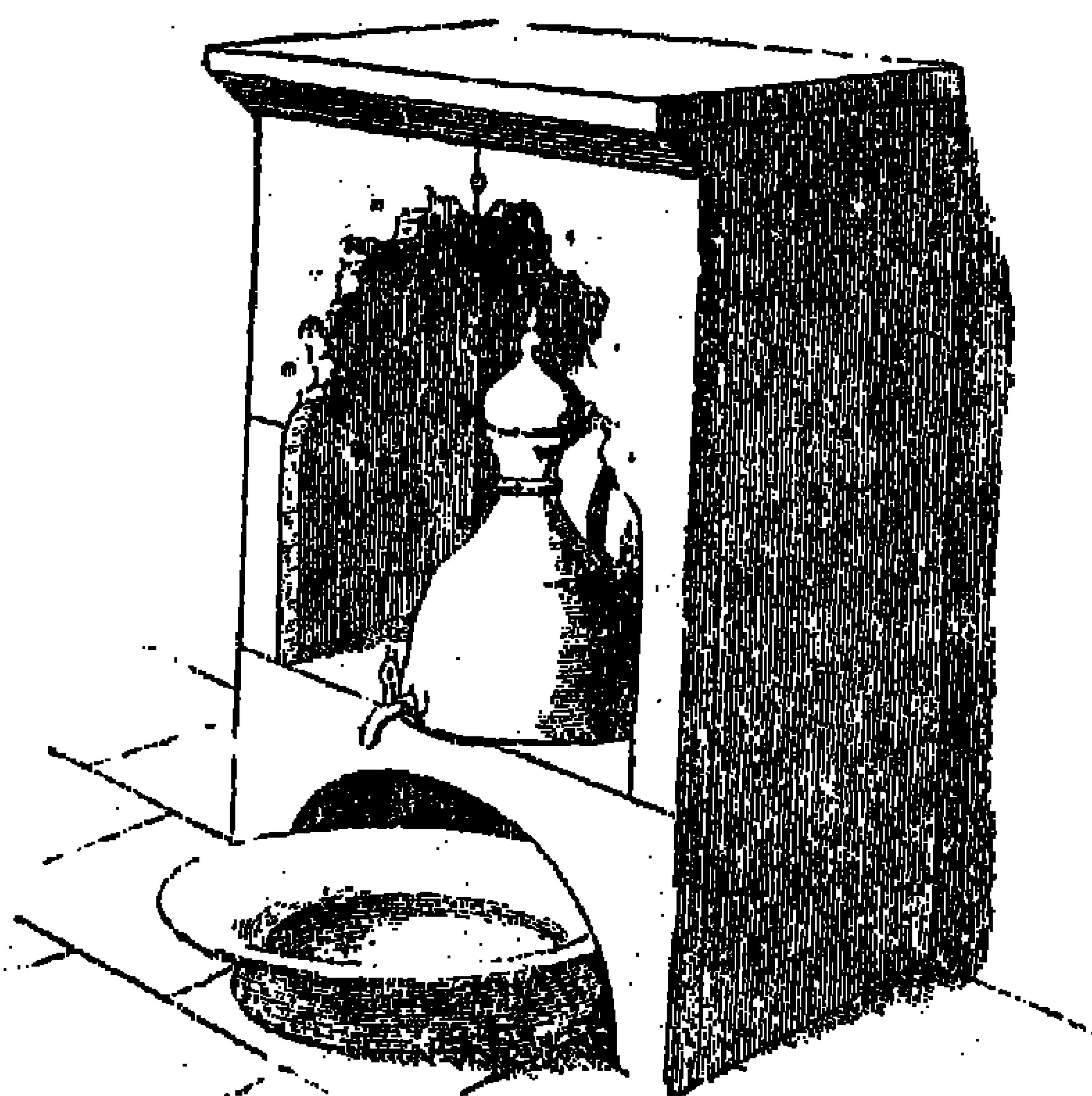
أقول هذا الآن بعد أن وعيت ولكنى قبل الدراسة أحسه بفطرتى ·· كنت أهدأ بعد حركة أمام كل ظاهرة ·· أمام كل صانع : **الفطاطرى** وهو يدحو العجينة ويديرها بحركة خاصة بيده دوائر تتسع مع كل مرة · وأكبر وأقرأ شعر ابن الرومى فى صانع الرقاق فلا يأخذ حفظ شعره مجهودا منى ·· انى أعرف الصورة حقيقة ملموسة · وفى حى الخيمية أكاد أحبس أنفاسى وأنا أرى الأصـــابع المدربة تنمنم وترسم بالقماش والألوان ·· ما نراه على تروك الفراشة باصطلاح المهنة ·· ومن العجيب أن الرسم ، المفروض ، اسلامى ويستعمل فى مناسبات اسلامية ولكنه قائم على اللوتس · أسير والقلب مشغوف بالرؤية ·· فى روحى ظمأ ملهوف على معرفة ما تراه العين وما أكثر ما يرى ويتراءى فى القاهرة .

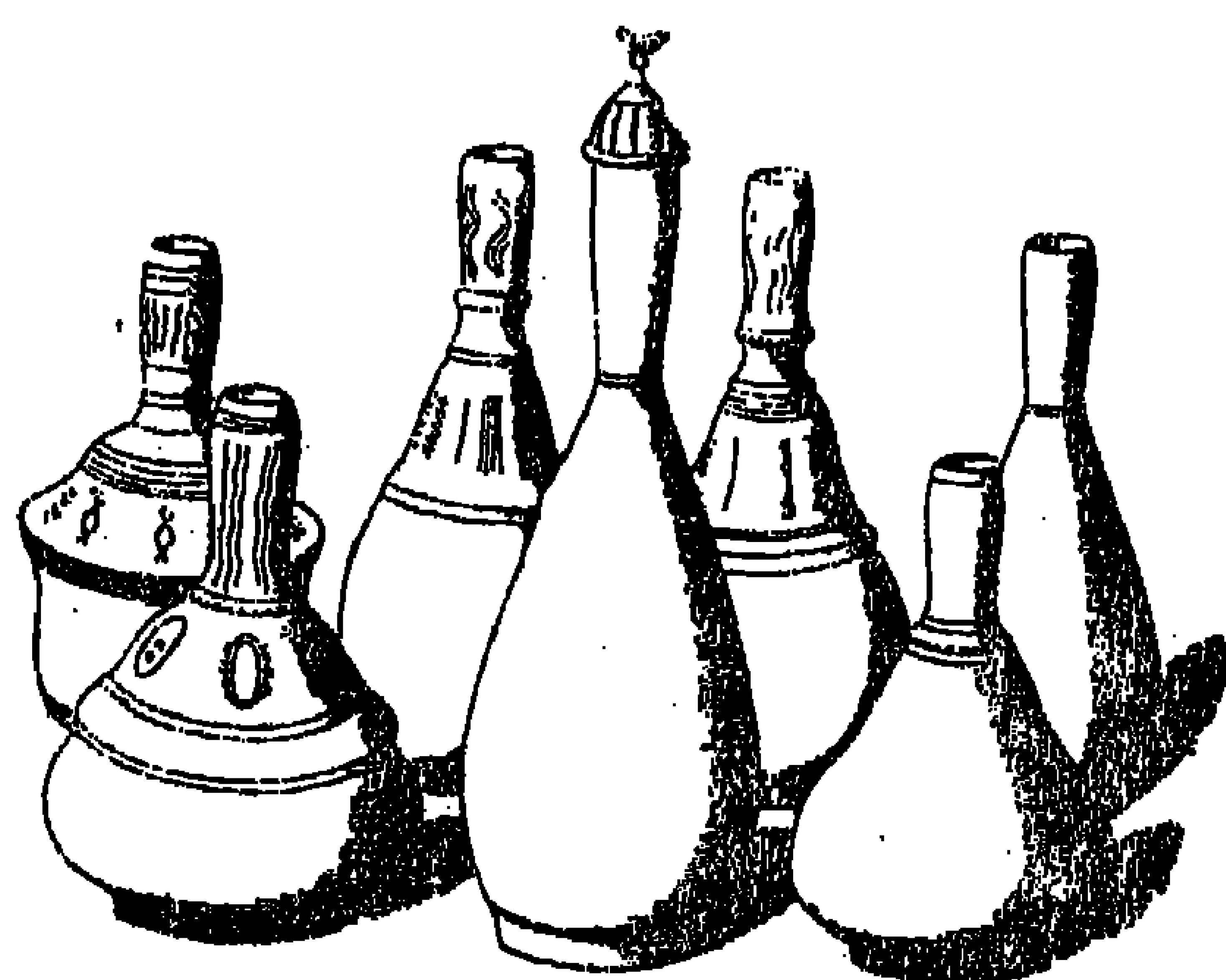
انها فى باب الحرف وحـــدها التى كانت تحيط بى فى القــاهرة الشعبية حشد حاشد ، لقد عد على باشــا مبارك فى خططه ١٩٨ حرفة ووصف التقاليد الجميلة التى كانت تحـكم أهل هـذه الحرف وتســود أوساطهم ·· وقد ظلت هذه التقاليد التى تدل على أصالة وحضارة وأصول

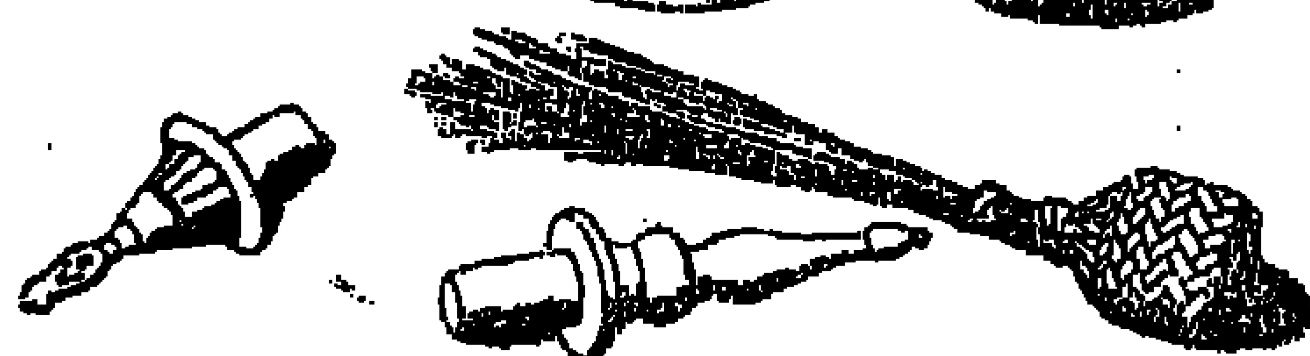




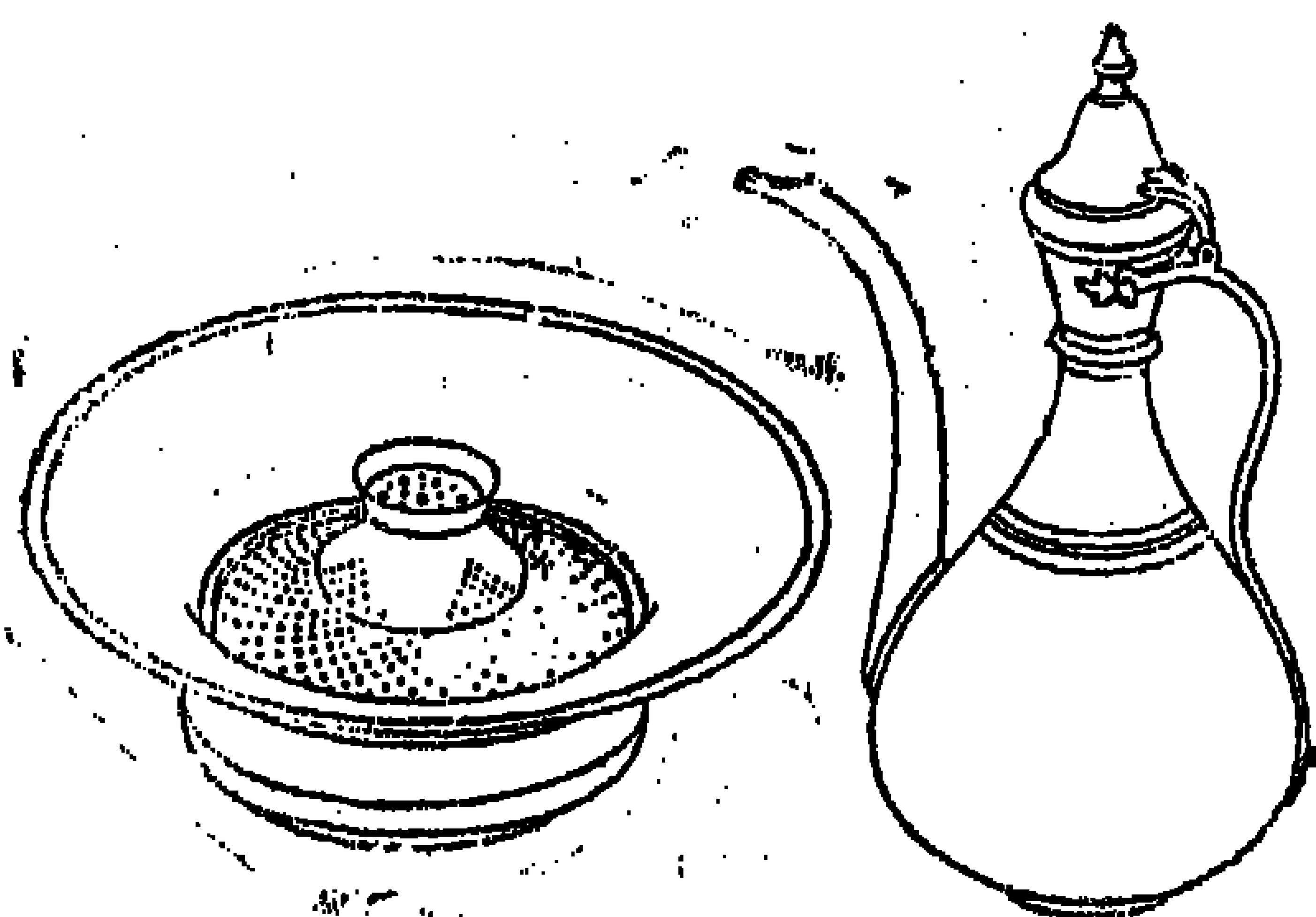


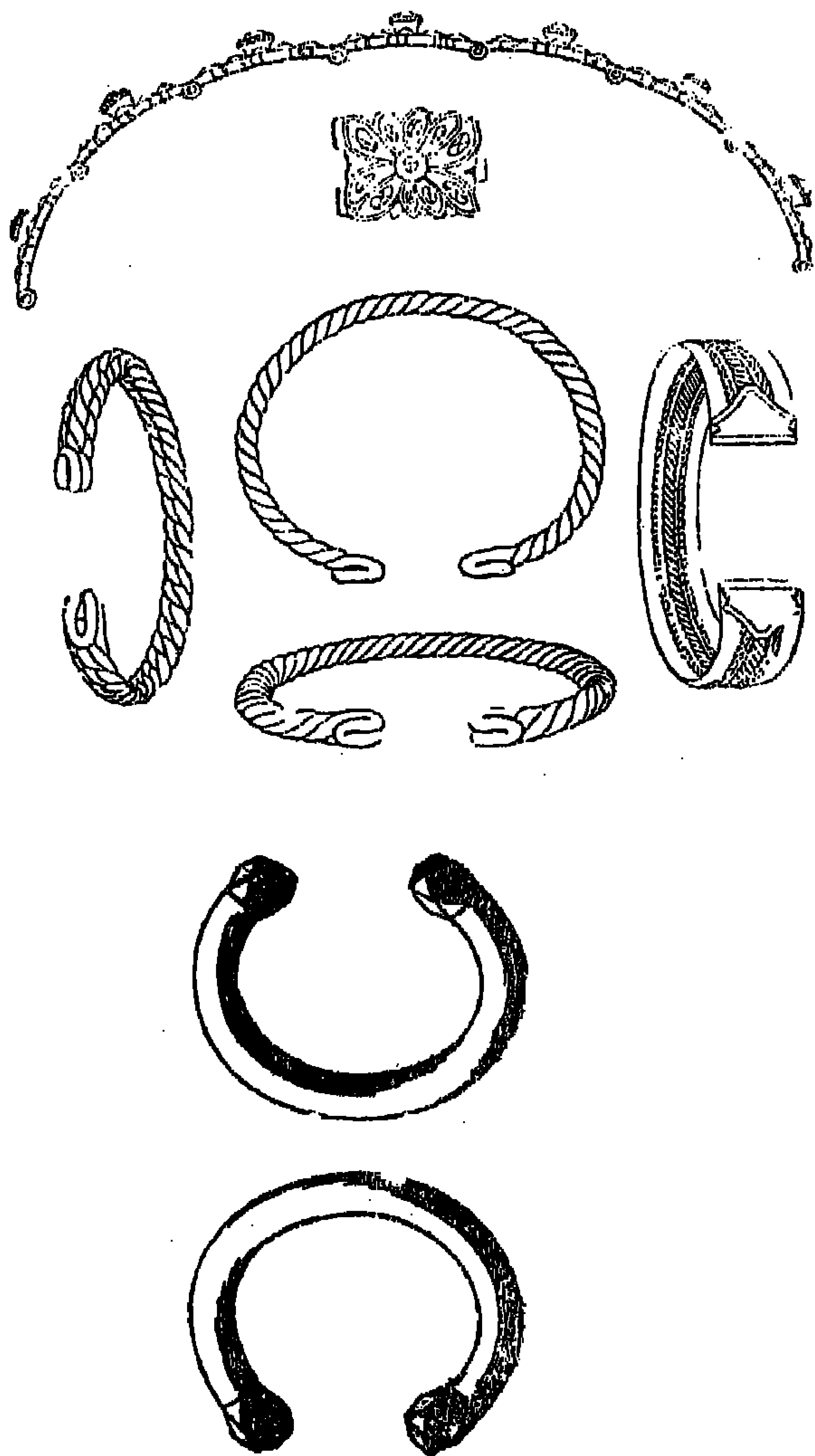






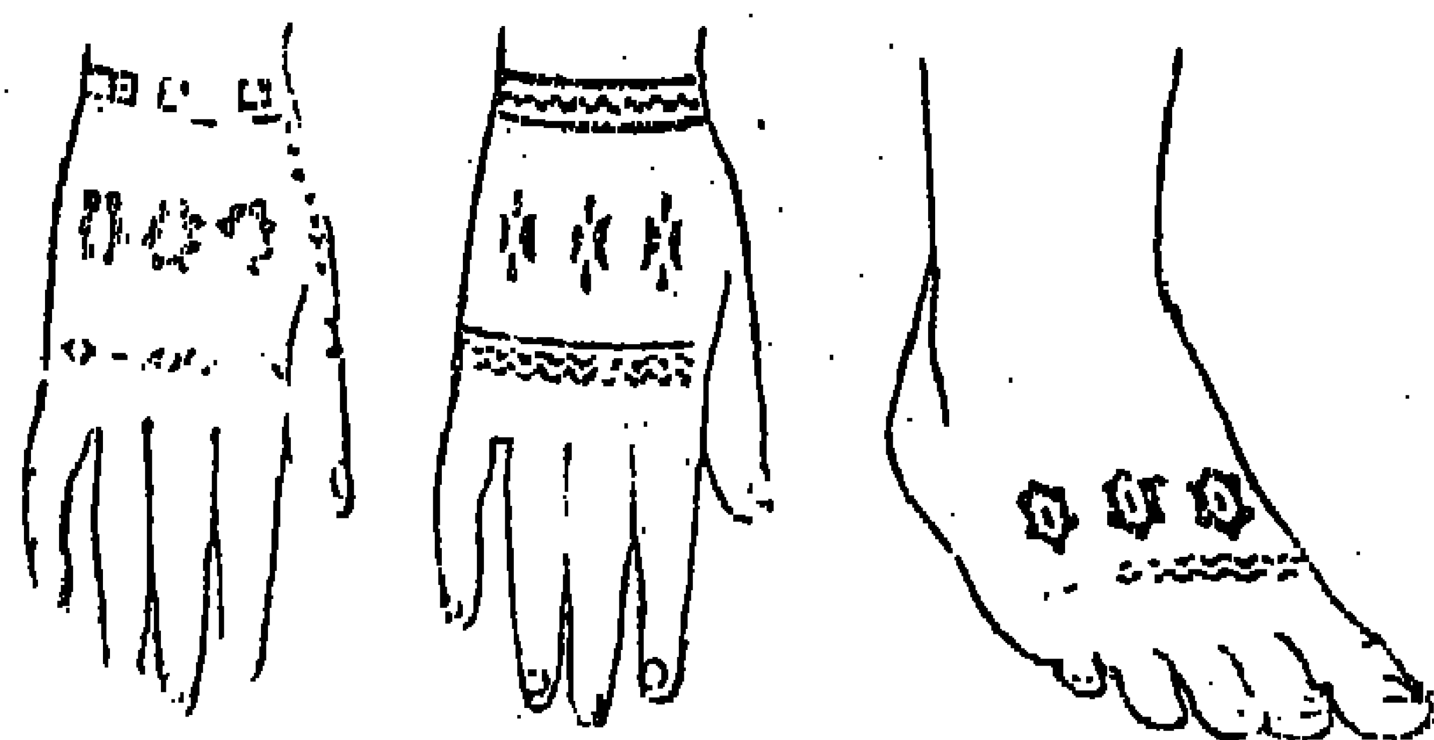


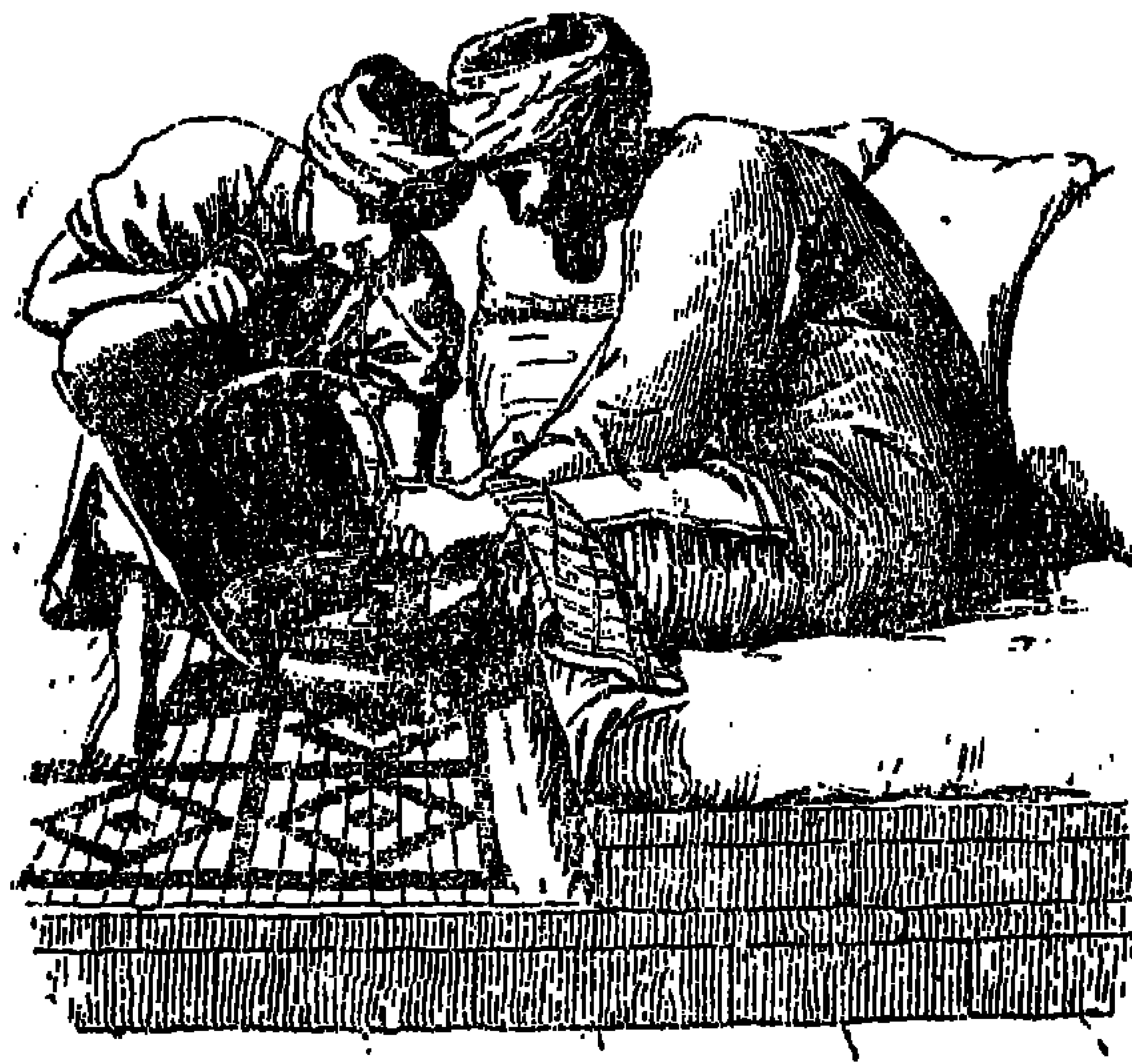


















الى النصف الأول من القرن العشرين ووعينا فى الخمسينات طرفا منها ولهذا أقف عندها تحية للقاهرة مدينة البناء والانشاء والفنون والعلوم والصناعات والحرف .

يقول صاحب الخطط التوفيقية :

(لكل طائفة شيخ ومخاترة ونقباء وأسماؤهم مقيدة فى المحافظة الدائرة البلدية وكان كل من أراد أن يصير معلما فى صنعته لا يتمكن من ذلك الا بعد مهارته فيها بعمل شيء دقيق وخدوا بالكم من «دقيق» هذه فى صنعته يشهد له بأنه يستحق أن يكون معلما .. والاسطاوية حينئذ لا ينالها الا بعد أن يشهد له معلميه وباقى المعلمين من صنعته ويخبرون شيخ الطائفة بذلك فيحضره ويختبره فان وجده أهلا لأن يكون معلما قلده اياها .. أعزائى القراء أحسبكم مثلى تغالبون الابتسام . أو تكنون الاحترام لهؤلاء المعلمين والمعلمين .. الذين يصدقون مع أنفسهم ومع تلاميذهم ومع وطنهم فلا يحسبون عليه جاهلا يجيزونه .

ومن الطريف أنه كما يقول على باشا مبارك أنه حتى طائفة الصرماتية والمزينين والحمامية كانت لا تزاول مهنتها الا بعد امتحان حقيقى على مراحل تمثلها عقد ثلاث فالعقدة الأولى تسمى **الاسطاوية** ويحلها لطالب المهنة ، معلمه الذى رباه وعلمه الصنعة ، والثانية تسمى **الرتبة** ويحلها شيخ الطائفة والثالثة يحلها أحد الاسطوات الموجودين بالمجلس . وهكذا بقية الطوائف من نجارين ونحاتين ونقاشين ومرخمتية .

ماذا نرى الآن ؟ آلاف الأيدى المدربة الماهرة هاجرت الهجرة المؤقتة أو الدائمة الى البلاد العربية والأجنبية . والباقون يرفضون الصبيان أمام الزام قانون التأمينات الاجتماعية بالتأمين على الصبية من أى عمر ، فى تعميم . فحدثت الفجوة التى امتدت نحو عشرين عاما والتى عانينا منها كثيرا سواء فى العمالة أو ردود الفعل الأخرى من اصطياد هؤلاء الأولاد فى ألوان الجرائم المختلفة . ونحمد الله أن تعدل حديثا قانون التأمينات فاقتصر التأمين على من يزيد سنهم عن ثمانية عشر عاما .

على أن معلم الصنعة اليوم أو الصبيان ، تحت ضغط العصر اللاهث وطابع الكسب السريع ، لا يبذلون الجهد القديم أو يحافظون على تقاليد الصنعة . غدت المسألة فهلوة .

وتبلغ الدقة بأهل القاهرة أنهم يقسمون داخل الحرفة الواحدة فطائفة النجارين تقسمهم القاهرة الى :

نجارى طواحين ـ نجارى سواقى ـ نجارين دقى ـ نجارى مراكب ـ نجارى عربات •

وانظر الآن الى حبيبتنا القاهرة فى الزحام فأرى أشـــياء وتغيب أخرى • وتوحشنى القاهرة وأنا فيها •• كيف ؟ لا أدرى •

تحدثت عن حرف القاهرة التى شاهدتها صغيرة والتى لحقها تغير كبير الآن •• لقد غدوت أفتقد اليوم ، صورا قد يعدها البعض بدائية أو متخلفة ولكنها حبيبة بما هى جزء من القاهرة وجزء من أيامى الأولى فيها •• بنت البلد بملاءتها اللف وجسمها الملفوف المشوف •• كشراع المركب فى النيـــل •• أو كما يقول بيرم : بنت البلد فى المـلاية اللف ياولد ياولد •• بنت البلد تركت الملاية اللف وأصبحنا نجد فى الأحياء الشعبية عدة صالونات تجميل •• بنت البلد بعد الملاية اللف تسرح شعرها عند الكوافير لأنها تعمل •• وهى بحكم العمل وبيئته الجديدة ، تحرص على مظهرها بقدر ما تطيق حالتها المادية ولو كانت عاملة فى مصنع •

بائع العرقسوس :

وكان يمشى فى مهرجان تسبقه نغمات طاساته واناء العرقسوس على الرغم من حجمه وامتلائه يجعل له صدره مهادا ووسادا ويمشى يتعاجب واذا صب فى الأكواب يباعد بين الكوب فى يده وبين البزبوز وينزل العرقسوس صانعا بدوره رغوة فى أعلى الكوب •

ونحب نحن أطفال القاهرة العرقسوس ، ويحب الرجل حرفتـــه ويترجم حبه نظافة وشفافية ومعاملة دمثه وتقديم حسن فيترنم صوته على الرغم من ارتفاع طبقته بكلمة : شفا أى شفاء ••• ان عرقسوسه شراب وشفاء •

وباعة القاهرة المتجولون يتغنون بسلعهم • ان الانســـان المصرى أنيس لطيف يحب الغناء ويطرب للسماع فالمشمش عنب وعناب وهدية للأحباب والبلح لا تين ولا عنب زيك يا رطب ، والموز صـوابع الست والكمثرى قنانى العسل وفتافيت السكر حتى الفجل ريان ورور •• كل شيء تدلله القاهرة ذات الدلال •

ومن الصور التى تعلقت بها صغيرة وأفتقدها الآن : **السـقا** • هذا الانسان البسيط كان يشعر أنه رسول النيل الى البيوت • انه يحمل الماء حياة وشفاء وهناءة •

وتحل حنفية ست سنية محله ولكنها لا تخلف فى فنون الأدب والرسم ما خلفه السقا من روايات ولوحات ٠

ومن الصور التى اختفت من القاهرة « القراقوز » وطالما افتقدتنى جدتى وأكون مستغرقة فى متابعة الأراجوز ٠ يقول الدكتور أحمد أمين (شخصية قراقوز محبوبة جدا عند المصريين وخصوصا الأطفال فهى أشبه ما تكون « بميكى ماوس » ٠

رأيت أنا فى طفولتى الأراجوز واليوم أطفال المصريين جميعا يتمتعون (بميكى ماوس) فى المجلات وعلى شاشة السينما داعين للفنان العظيم .. « والت ديزنى » ٠

اختفى بائع الزبادى المتجول بطواجن الفخار الصغيرة وصينيته المغطاة بغطاء كالقبة شفاف أبيض وبداخله شمعة أو لمبة سهارى ينعكس نورها ويعطيه شكلا حالما ٠ وصاحب اللبن الزبادى أو الحليب ينادى « قشطة » ٠ فاذا كان الوقت صباحا ، زاد : نهارنا أبيض ٠٠

الحضارة ذوق والذوق مافاتش باب النصر ٠٠ مافاتش القاهرة ٠٠ مافاتش مصر ٠

الآن الزبادى فى علب كرتون منزوع القشدة ٠٠ والحليب بودرة فى علب صفيح نسبة الدسم فيه ٦٪ أو أقل ٠

اختفت الماكينة والفونغراف وحل محلها الراديو والريكوردر كما حلت محلات العصير محل بائع العرقسوس ٠

اختفى الزار وحل محله السامبا والرومبا ٠٠ وهذا اللون من الرقص صور من الزار وراءه أعصاب مشدودة ونفوس مكدودة وقلق يتنفس أو يغرق نفسه فى الصخب ٠

اختفى النحاس طشوتا وآنية وحل محله الألمنيوم فالتيفال الذى أثبت البحث العلمى ضرره ٠٠ وكالعادة تتخلص أوربا مما يكشف العلم ضرره ونظل نحن سادرين فيه ٠٠ تماما كأقمشة النايلون التى ثبت ضررها حين تأكدت قيمة أقمشتنا القطنية خاصة فى جونا الحار ٠

ليس هذا فقط ٠٠ الصور تتتابع أمام عينى من ماضى وحاضر حبيبتنا القاهرة ٠

---

(١) من اجمل ما كتب الأستاذ يوسف السباعى روايته (السقا مات) ٠

ومن الصور التي اختفت زمنا من القاهرة : « **بيت العائلة** » ·· أصبح الأبناء يستقل كل منهم ببيت ·· أقصد شقة ثم عاد من جديد تحت ضغط الكثافة السكانية وأزمة المساكن ، بيت العائلة ولكن مع الفرق ·· كان السكن فى بيت العائلة ، ومعها ، عن عاطفة ·· ولكنه غدا الآن عن اضطرار ·

ومن الصور التى اختفت من القاهرة موكب الجهاز ·· جهاز العروس وكان أهلها يحملونه على عدة عربات مكشوفة تتقدمها موسيقى القرب أو موسيقى وترية وفى الحقيقة أن الجهاز لا يحتاج هذا العدد من العربات التى يحمل عليها للاستعراض ولكننا من طبعنا التهويل أو التهوين ·

وبمناسبة الجهاز بطلت موضة العوالم وكان أصحاب الفرح يسعون اليهن فى شارع محمد على ويتفقون معهن ويتبارون ليلة الفرح فى رش النقوط اليهن وكانت لهؤلاء العوالم أغان خاصة بهن لهن لغة خاصة بهن وهى لغة السيم التى قص منها أطرافا الأستاذ توفيق الحكيم فى كتابه (عوالم الفرح) هذا الكتاب الذى أهداه بدون أدنى حرج أو تحرج الى احدى هؤلاء العوالم قائلا : (الى الأسطى حميدة الاسكندرانية أول من علمنى كلمة الفن) ·

ومضى فى هذا الكتاب يصفهن : هيئتهن ·· حديثهن ·· ملابسهن وخاصة الصفا البراق على الشعر والمنديل الترتر فى مقدم الرأس ولغة السيم وهى العملة الخاصة بهن فمثلا اطسا معناها أسطى فعندما تنحدر الملاية عن رأس الأسطى حميدة ويظهر شعرها يزينة الصفا البراق وتلتهم عيون الرجال الأسطى حميدة تسرع راقصة الفرقة الى تنبيهها مخاطبة اياها بالسيم أو اللغة الاصطلاحية بين العوالم كما يسميها الأستاذ توفيق الحكيم :

اطسا ·· يا اطسا ·· أفصك نايب أى اسطى يا اسطى صفاك باين ·

وهكذا بدون مدرسة وحصص نحو ، برع العوالم فى الاعلال والابدال الذى كان مدرسو النحو يحشرونه فى رءوسنا ، حشرا أشقانا ، وأشقاهم أكثر ، هؤلاء الفدائيين ·

ومن الصور التى ذهبت من القاهرة وحل محلها غيرها ··

المحمل :

وقد رأيت المحمل فى طفولتى ، المحمل ، مرة واحدة لم تخلف فى ذهنى منه الا بريقه والجمل الذى يحمله · وقد كان مشهدا يشد الناس ·

ولما كبرت فهمت قول جدتى فى المدح (جمل المحامل) فالجمل فى حد ذاته يتمتع بصفات طيبة منها الصبر والكبرياء أيضا .. فأن يكون أيضا جمل محامل أى جملا مختارا لغرض تحفه البركة فهو شيء يستحق ..

وأستاذنا الدكتور أحمد أمين يصف المحمل وصف شاهد عيان فهو اطار مربع من الخشب ، هرمى القمة له ستر من الديباج الأحمر وعليه زخارف وكتابة مطرزة تطريزا فاخرا بالذهب على أرضية من الحرير الأخضر أو الأحمر . وله قماقم أربعة من الفضة المطلية بالذهب ، وينتهى هذا الكساء بشراريب تعلوها كرات فضية يتفرع منها سلوك دقيقة والناس يتبركون بالمحمل وبلمس الكسوة ويقبلون شراريبها .

ويحمل المحمل جمل ضخم يتمتع أيضا بما يتمتع به المحمل من تبرك به واعفائه من العمل بقية السنة .. أى جمل عمده أو كما تقول جدتى جمل المحامل وكان احتفال القاهرة بالمحمل ويجرى مرتين فى العام مرة عند طلوع الناس الى الحج ومرة عند عودتهم منه . وهو يثير فى الجماهير عواطف قوية شديدة نحو الحج .

ومن الصور التى اختفت أو على الأقل تراجعت الى زوايا منسية : الزار . وقد وصف الزار ، أستاذنا الدكتور أحمد أمين فى كتابه الشيق (قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية وصفا مفصلا وما يتبعه من (كدية) . وكرسى الزار ألوان حسب الأسياد واللون المناسب لكل منهم ودقات الدفوف .

ومن الصور التى اختفت من القاهرة « **الحنطور** » وأحسب أن وراء اختفائه عاملين : الأول العصر اللاهث الذى لم يعد فيه مكان للتخطر على أنغام خيل كلها حنية كما يقول مطربنا كارم محمود .. والعامل الثانى الزحام ثم انتشار وسائل المواصلات الحديثة والسريعة على المستوى العام والخاص ووجود الصناعات الكثيرة وأبواب الكسب المضمون .

ولكنى لا أنسى الحنطور صغيرة ، فقد كنت أجد فى ركوبه متعة ورخاء الاسترخاء ؛ ولا أنسى الحنطور كبيرة، فقد درست شعر أمير الشعراء شوقى. وحياته ، وللحنطور فيها قصة . هذه العربة المدرجة ذات الكنبتين المتقابلتين الصغيرة منهما مكشوفة لأن الكبود كان يغطى الكنبة الكبيرة وكنت على كل حال أختار الجلوس على الكنبة الصغيرة لأرى الشارع والناس أكثر . أما مقعـد الأسطى السائق فقد كان مرتفعا يطل على جوز الخيل ويمسـك فى يده كرباجا طويلا . وفى الخلف يتسلق أو يتشعلق الصبية الذين يلعبـون أو يمرون فى الشارع فاذا فات أحدهم متعة اللحاق بالحنطور والتعلق به من الخلف وشعر أن رفيقه أحسن منه حظا ، صاح من غيظه (كرباج ورا ياسطى) فيعرف الأسطى ما حدث من وراء ظهره ويتحرك

كرباجه يحسم الأمر ولكن الصبى يكون قد فر هاربا وقد كان هذا الأسطى وزملاءه أولاد بلد « يفهوها وهى طايره » ــ طبعا الصواب يفهمونها ولكنى أعنى المنطوق الشعبى فى هذا الموضع ــ وكأنهم فى مجلسهم المرتفع يرون أكثر ٠٠ بل كانوا يرون بظهورهم فقد كانوا يفهمون نوعية الركاب بالحداقة والأحبة منهم خاصة فيلبون طلباتهم وهم يبتسمون (على راسى ياهانم وعنيه) ٠

ما حيلتى فى حبيبتى القاهرة ، وذكرها يفجر فى ينابيع دفاقة ٠ انها القاهرة ٠

لقد ولد الحنطور قصائد كاملة من ديوان شوقى من أعذبها وأقربها الى القلب المصرى ، قصيدة النيل ٠ فقد كان يحلو له ، وبيته الذى سماه (كرمة ابن هانىء) على النيل أن يتنزه فى الأصائل على شاطىء النيل فى حنطور ٠٠ ويتأمل الشاعر المترف النهر المترف وكان النيل مترفا على أيامه لا يكدر صفوه أو يرنق نقاءه ما يحدث له هذه الأيام مما نرتكبه فى حقه وهو موضوع طويل ٠

وفى هذه السبحات بدا النيل فى عين شوقى ، وما جاوز الصواب ، بدا النيل الطاعم الكاسى الصانع الفنان ٠٠ رأى النيل بحرا بالمكارم زاخرا عذب المشارع مده لا يلحق وهو كعبة القصاد ، يحج اليه الوراد بين قاص مفتون بشطيه ودان يرمق ٠ **ويهمس شوقى مفتونا :**

من أى عهد فى القرى تتدفق ... وبأى كف فى المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من ... عليا الجنان جداولا و لا تترقرق
وبأى عين أم بأية مزنة ... أم أى طوفان تفيض وتفهق
وبأى نول أنت ناسج بردة ... للضفتين جديدها لا يخلق

حتى اذا انتهت دهشة الاعجاب أو اعجاب الحماسة ، شرع فى الوصف :

فى كل آونة تبدل صبغة ... عجبا وأنت الصابغ المتأنق
أتت الدهور عليك ، مهدك مترع ... وحياضك الشرق الشهية دفق
تسقى وتطعم لا اناؤك ضائق ... بالواردين ولا خوانك ينفق
والماء تسكبه فيسبك عسجدا ... والأرض تغرقها فيحيا المغرق

ويمر الشريط الطويل أمام شوقى فيذكر حيرة الانسانية طويلا فى الوصول الى منابعه وافتنان قدماء المصريين به الذين قالوا فيه فى بساطة تأسر مما ترجمه ارمان (انك أعظم من البحر ٠ حقا انه منبع اللؤلؤ

والمرجان ولكنك تنبت الشعير ومادام النـــــاس لا يأكلون الجوهر الحر فالشعير أحسن) • ويتلمس شوقى لهم العـــذر فى اعزازه من اعجازه فيقول :

دين الأوائل فيـك دين مروءة — لم لا يؤله من يقوت ويرزق
دانوا ببحر بالمـــكارم زاخر — عــذب المشــارع مده لا يلحق

اعذروهم لأنهم :

دانوا ببحر بالمـكارم زاخـــر — عــذب المشـــارع مده لا يلحق
متقيـــد بعهوده ووعـــــوده — يجرى على سنن الوفاء ويصدق
يتقبل الوادى الحياة كريمـــة — من راحتيك عميمة تتـــدفق

ثم انتقل الحنطور بشوقى الى ناحية أخرى من الجزيرة وانتقل شوقى الى دفقة أخرى من القصيدة • استعرض موكب الغزاة ولكنهم كلهم راحوا ••• انداحوا وبقى النيل •

بقيت أنت يا نيل •• تتواصل الحضارة على أرضك وتتراســل العطايا من فيضك حتى بعد أن ينتقل الحكم الى غيرك فاذا بالذى انتقـل الصولجان لا الهيلمان والحكم لا الحكمة •

ويعنى شوقى اللحن الختـــامى فى القصيدة وهو ختـــام لهذه الصفحات :

يانيل أنت بطيب مانعت الهـدى — وبمدحة التـــوراة أحرى أخلق
أصل الحضارة فى صعيدك ثابت — ونباتهـــا حســن عليك مخلق
ولدت فكنت المهد ثم ترعرعت — فأظلهـــا منك الحفى المشـــفق
ملأت ديارك حكمة مأثورهـــا — فى الصخر والبردى الـكريم منمق
وبنت بيوت العـــلم باذخة الذرى — يســـعى لهن مغرب ومشرق
واليك يهدى الحمد خلق حازهم — كنف على مر الدهـــور مرهق
يبنون لله الكنانة بالقنـــا — والله من حـــول البـناء موفق

وكم من قصائد وأغان وأناشيد لهجت به وترنمت ولا تزال تحلو على الترديد لأنها صادقة لا شبهة فيها من رياء أو افتعال ••

لى فيك مدح ليس فيه تكلف — أملاه حب ليس فيــــه تملق
مما يحملنا الهوى لك أفـــرخ — سنطير عنها وهى عندك ترزق
تهفو اليهم فى التراب قلوبنا — وتكاد فيه بغير عرق تخفـــق
فاحفظ ودائعك التى اســتودعتها — أنت الوفى اذا أؤتمنت الأصدق •

شقة للايجار :

لم ينته بعد حديث الصور التى غابت عن القاهرة •

ومن هذه الصور ، لافتة صغيرة كنت فى طفولتى أراها كثيرا تتدلى من النوافذ والشرفات ـ فى سائر البيوت تقريبا • هذه اللافتة تقــول (شقة للايجار) •

كانت الشقق الخالية كثيرة فى القاهرة ففى احصاء الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء عن التعداد العام للسكن والاسكان سنة ١٩٧٦ أن مصر كلها كانت مثلا فى أوائل القرن العشرين عشرة ملايين وفى سنة ١٩٥٢ عشرين مليونا • طبعا قفز هذا الرقم سنة١٩٧٦ الى ١٠٤ر٦٢٦ر٣٦ أما التعداد الرسمى (١) بالقــاهرة ســنة ١٩٠٧ فكان ٠٠٠ر٦٦٠ فلو تضاعف هذا الرقم الى ثلاثة أمثاله فى الخمسينات لما تجــاوز المليــون تذكروا هذا الرقم أعزائى القراء واذكروا أن تعداد القاهرة اليوم ١٢ مليونا لتعرفوا أن حبيبتنا القاهرة تحتمل الكثير واننا نرهقها من أمرها عسرا •• حتى حين تمسها يد الاصلاح نفسه يزيد عذابها سوءا لأنه يشكل عامل جذب اليها طالما الريف تعيسا مهملا متخلفا يزهد أهله فيه فيخلفونه الى القاهرة حيث العلاج وألوان التعــليم (وألوان المناعم أيضا •• وتكون المحصلة الأخيرة ترييف القاهرة بدلا من تحضير الريف • ويتفاقم الوضع يوما بعد يوم طالما نجتزىء بالمسكنات فى حل مشاكلنا لم نرتق بعد الى الدراسات الشاملة البعيدة المدى والرؤية الثابتة غير المتأثرة بتغير الوزارة ولعبة الكراسى الموسيقية •

أعود الى اللافتة التى لا أنساها « شقة للايجار » كانت جدتى تقلق اذا مر على هذه اللافتة أسبوعان فاذا استمرت الحال وامتد الاســبوعان وصارا شهرين مثلا ، ضاقت بالا ؟ وهنا تسرع فى اطلاق البخور فى صلاة الجمعة فى الشقة الخالية حتى يفك الله عقدتها وأفهم عنها ، من حبى لها حتى ما يدور بخلدها ولو لم تقــله بالحروف • فاذا صادق أثناء لعبى أو صعودى ونزولى الذى لا يهدأ ان وجدت مستأجرا يسأل عن الشقة ، عدوت مسرعة أنهب السلم نهبا لأزف اليها البشرى • واذا حدث وتم الاتفاق فانها تضم هذا الحادث وليد الصدفة البحتة والمرهون قبــلا بارادة الله قبل كل شىء ، الى يمن طالعى فى نظرها ، وما لى فضل فيه •

وما كان أسعدها عندما كبرت وزاد قسطى من التعليم ، أن أكتب لها عقود الايجار وايصالات السكان • وتبدأ تسألنى فى كل كبيرة وصغيرة كأنى جهينة عندى الخبر اليقين •

وهكذا عرفت صغيرة معنى المقولة (حسن فى كل عين ما تود) أو معنى البيت :

وعين الرضـــا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

عفريت الليل ، الحمام :

تحدثت عن صورة اختفت من القاهرة هى حلم ذهبى الآن للكثيرين من الشباب أو العائدين من الخارج ، أو من تضيق بهم مساكنهم الحالية ، صورة شقة للايجار.

واليوم أتحدث عن صورة أخرى من الصور التى اختفت من القاهرة التى رعت نشأتى .. صورة طريفة .

أتحدث عن عفريت الليل :

كانت القاهرة اذا حل المساء يمر رجل نوبى نحيل الخطوة سريع العدو .. هذا الرجل عمله أن يضىء فوانيس الشوارع .. ولما كانت الفوانيس كثيرة فانه لكى يفرغ منها ، قبل أن يحل الليل كان بمجرد أن يفرغ من اضاءة فانوس ، يهرع الى الذى يليه ويضيئه . وتكرر العملية وأطفال الحى العفاريت يصيحون : عفريت الليل بسبع رجلين .

ومن الصور المصرية التى اختفت من القاهرة **الحمام** . لقد استرعت الحمامات العامة بالقـاهرة أنظار الرحالة والسائحين شرقيين وغربيين . فعبد الظاهر فى كتابه « قطف الأزهار » يذكر أن عدد الحمامات سـنة ٦٧٥ ثمانون حماما والقاضى القضاعى يقول أنه كان فى الفسطاط (١١٧٠) حماما وان كان على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية يرى فى هذا الرقم مبالغة ، أما الفرنسيون فى خططهم فقد سجلوا أن عدد الحمامات بالطبع فى زمن الحملة تزيد على المائة . وقد أورد المؤرخ الفرنسى « أندريه ريمون » قائمة بحمامات القاهرة عند نهاية القرن الثامن عشر (١) فاذا بها قد بلغت سبعة وسبعين حماما .

وغير « أندريه » ، « جومار » و « بوتى » .. ومنا : على باشا مبارك .

كما التفت كتاب (وصف مصر) الى حمامات القاهرة .

وكانت طائفة « الحمامية » تستتن لها عادات خاصـــة وهى (فى تنظيمها الداخلى لا تختلف فى شىء عن بقية الطوائف)

---

(١) مجموعة دراساته ضمها كتاب ترجمة الاستاذ زهير الشايب بعنوان : (فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية) .

هذه الأرقام على تفاوتها تكشف عدد الحمامات التي فقدناها اذا عرفنا انه لم يتبق فى القاهرة ، ولها الا بضعة حمامات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة !!

كانت جدتى تحمينى يوميا قبل النوم ونظريتها أنه بعد لعب النهار وشقاوة العيال تعطينى حماما ليزول عنى التعب أى عناء الراحة ٠٠ وأنام فى ثياب أخرى نظيفة أو كما تقول تشف وترف ٠

ولكنى مع هذا الحمام اليومى ، كنت أفرح بيوم الحمام الخارجى أى الأسبوعى بينما يقول الدكتور أحمد أمين أنه كان يكره الذهاب مع أبيه الى الحمام ٠

الحمام العام « كانت جدتى تسميه تاره « الحمام الأسبوعى » وطورا « الحمام التركى » لأنه يشمل التكييس وحمام البخار بالنسبة لهـا على الأقل ٠

وكان الحمام العام مكانا واسعا كبيرا شرحا ٠ وبالطبع كنت أجد فيه فرصة للقفز والوثب والفضول أيضا أو الجديد فى باب الاستحمام٠

ويبدو أننى كنت أبذل مجهودا كبيرا لأننى فى كل مرة لا أكاد أصل الى البيت حتى أستغرق فى نوم عميق ٠٠ فاذا استيقظت ، تهللت جدتى قائلة « نوم العافية » كما كانت تقول لى بعد الحمام « حمام العافية » ٠

ونسيت أن أقول أن الحمـام العام كان يتبعه مكان وقود لتسخين الماء يسمى المستوقد ٠٠ وكانت توضع فيه قدور الفول التى يأتى بهـا أصحابها من الباعة للتدميس ٠

وقد اختفت الحمامات العامة بمستوقداتها ولكن الفول المدمس ظل أكلتنا الشعبية المفضلة حتى لنقول « من فاته الفول فاته الفطور » ٠

اقوال يومية :

ونحن المصريين بعاطفتنا الشديدة لنا عبارات دعائية كثيرة فى حياتنا اليومية ٠ فمن يشرب نقول له : هنيا ومن يأكل نقول : بالهنا والشفا ومن يستحم أو ينام نقول له حمام العافية ونوم العافية ومن يعطس نقول له رحمكم الله فيرد العاطس : غفر الله لى ولك ، ومن يحج نقول له «حج مبرور» والقادم نقول له : « حمد الله على السلامة » ومن يزور نقول له : « أهلا وسهلا » وبعد الزيارة نقول له : « آنست وشرفت » ٠ وما يسوء نقول : « لا حول ولا قوة الا بالله » ، وما يسر نقول : « ما شاء الله » ٠٠ ومن

يقص يطلب فى البداية الصلاة على النبى .. ومن يغنى ينادى الليل فى عملية تجميع نفسه للغناء وتهيئة السامعين . كل شىء له عندنا تعليق حتى من يقضى حاجته نقول له : شفيتم .

وهى تعليقات طريفة ولكنها تلفت نظر الغرباء خاصة الغربيين لا سيما حين نزيدها حبتين .

وقد اختفت صور كثيرة كما رأينا من القاهرة ولكن هذه التعليقات لم تختف بل تعيش فى مجتمعنا مرعية الجانب باعتبارها « الأصول » كما تسمعها من الشعب المصرى .

فلها على لسانه مذاق خاص ونكهة معينة على طول عهده بالحضارة والعراقة والأصالة وبعض هذه العبارات نتوسع فيها مثل قولنا للغائب بعد طول غياب : خطوة عزيزة .. زارنا النبى .

هذه الخطوة تتعدد بعد هذا فتصير خطوات أى نسير بها فى طريق طويل من الأقوال . فنكنى بالخطوة عن المسافة القصيرة كما تقول أغنية «بعيد عنك حياتى عذاب» بينى وبينك خطوتين تعبيرا عن القرب والوداد .. هذا بين المحبين من باب الكناية وهى على الحقيقة تعنى أيضا قصر المسافة وينضم اليها عبارة « فركة كعب » .

وينتقل التعبير الى ساحة الوجدان الدينى فنقول : (بين الخطوة والخطوة يفعل الله ما يريد) ما تمشيش خطوة على خطوة الا باذن الله .

وينتقل التعبير أيضا الى دنيا القصص والأساطير فتحدث الجدات جميعا عن **أهل الخطوة** فأبو خطوة انسان مبروك له كرامات يطوى المسافات حتى ليصلى فرضا فى بلد ويصلى الفرض التالى فى بلد آخر .

وكلنا نفعل هذا الآن بل اننا ننتقل فى اليوم الواحد من قارة الى أخرى لا بلدة فحسب ولكن الانتقال السريع قبل شيوع استعمال الطائرات كان من الكرامات .

وفى حياتنا يقابل هذه العبارات التى تقال من باب الأدب والذوق والواجب فى اصطناع الجدية يقابلها على الطرف الآخر عبارات فيها تفكه ودعابة بل سخرية تزيد الضحك ضحكا . والقاهريون بل أهل مصر جميعا مشهورون **بالقافية** .. تشيع فى كلامهم حتى أنهم فى الجد ينبهون عليه من باب الاحتراس فيقولون : بلا قافية يريدون أن المسألة ليست مزاحا بل جد فى جد .

وتشيع **القافية** حتى غدت لكل حرفة قافية فقافية للمزينين وقافية للنحو وقافية للأتراك وقافية للعب وقافية للساعة .

فيقول ظرفاء القاهرة فى باب النحو :

راسك : اشمعنى
مبنية على الكسر

كيسك : اشمعنى
ممنوع من الصرف

ويقول الظرفاء فى باب الساعة :

عيشتك : اشمعنى
مافيهاش تقديم ٠

الخيرات عن بيتكم :

ممسوحة ٠

صنعتك : اشمعنى
رقاص

ومن قافية الهندسة :

آكثر نومك : اشمعنى
فى الزاوية

هذا فى العامية حتى تكلم المصريون العربية وأصبحت لغة الكتابة ولغة الحديث ، لعبوا فيها على الألفاظ ٠ كانت العربية فى باب البديع على المشارقة مجتمعين تسعة وعشرون نوعا فوصلت بها مصر على يد أبى الاصبع الى بضعة وعشرين فوق المائة ! عشرين منها من ابتكارها وبعض ما ابتكرته مصر وأشاعته فى الأدب العربى شعره ونثره (فن التورية) ولا أحسب غير مصر قادرا على التورية واللعب باللفظ فى براعة وغندرة بكل هذا الظرف والرقة اللذين أشاعهما ابن نباتة فى بيتيه وقد أهدى اليه صديق تمرا رديئا ٠

أهديت تمرا بل نوى فقبلته — بيد الوداد فما عليك عتاب

واذا تباعدت الجسوم فودنا — باق ونحن على النوى أحباب

كموج البحر الأشياء والناس فى القاهرة موجة غادية وموجة آتية والموجتان ليس بينهما من الرباط ما بين موج شاعرنا رامى الذى نرى فيه الموجة تجرى ورا الموجة عايزه تطولها تبوح لها ، وتحبها ، وتدور الأسرار ويطول السرار ٠

أشياء كثيرة اختفت وأناس أيضا ٠٠ الفران والعوالم وموكب الجهاز وليلة الحنة والحنطور والمحمل ورؤية رمضان ٠

ابتلعت دوامة الجرى اللاهث ، الرومانسية وابتلعت كثافة السكان كل شيء أو أي شيء يقال وأطلت تفاهات كثيرة برأسها ·· وشاعت أشياء غثة خاصة في الغناء الذى بدأ يرتد الى أغنيـة الســتارة التي في ريح مؤلفي الكاسيتات ·



لقد ذعرت يوما من مثل هذه الأغاني :

يا عم يا ورق ــ حطة يا بطة ــ متيجي يا عسل ــ يا واد يادندشنه ــ الطشت وصاحبته ·

هذه الأغاني وأمثالها تعلن عنها زليخة فون ولعاب فون ومهووس فون وكمون فون الخ ولم أكن أدرى أن مكاتب الصحة تضيف الى كل اسم كلمة فون ··

ان أغنية الســتارة القديمة أثارت غضب رئيس الوزراء في ذلك الوقت محمد محمود باشا ، ابن الصعيد فأنشأ قلم المطبوعات لمراقبـة الانحراف في التأليف ·· ترى ماذا كان يفعل لو رأى وســمع هــذا الغثيان ·

على أن ذلك العصر حفظ في المقــابل قصائد رفيعة غناها صالح عبد الحي وأم كلثوم وتألفت في القاهرة سنة ١٩٢٠ لجنة ترقية الأغاني القومية · وغنى سيد درويش :

مصر أولادها رجال	يفهموها وهي طايره
عطشــان يا صــبايا	دلوني ع الســـبيل

من الصور التي اختفت من القاهرة بعد أن سفرت المرأة المصرية : البرقع ·· ويقول الدكتور أحمد أمين أنه كان يصنع بالمحلة الكبرى ضمن ما تصنعه هذه المدينة · وكان البرقع يغطي الوجه عداالعينين فيتيح فرصة أكبر لجمال عيون المصريات وكأنه اطار لها يركز عليها الاهتمام · وكان للبرقع قصبة تعلق في أعلاه يخرج منها قطان ينتهي عند شريط عريض طويل يلف حول الرأس عند أعلى الجبهة ثم يعقد من الخلف ·

وكانت قصبة البرقع مجالا للتبــاهي فقصبة ذهب وقصبة فضــة وقصبة مطلية فقط بالذهب أو الفضة وقصبة نحاس ·· وأخيرا قصبة من القصب أو الغاب لرقيقات الحال ·· انها طبقية البراقع ·

وقماش البرقع أيضا يتفاوت شكلا وموضوعا فيكون من الكريشيه

أو الحرير اسود أو أبيض ويكون مخرقا خروقا واسعة أو ضيقة فى أشكال هندسية ويسمى (المشخلع) ٠

وتزين بعض النساء البراقع بقطع الذهب يسمى « غازى » أو « بندقى » وخاصة الفتيات ٠ وكانت الفتاة فى الأحياء الشعبية المصرية بعد سن العاشرة تلبس البرقع الا اذا كانت تلميذة مثلى ٠ وتتفنن النساء فى تحلية البراقع كما يتفنن فى زينة ما تحتها من وجوه شربت من ماء النيل وسرت فيها عذوبته دما وروحا ٠

والحقيقة أن « عروسة البرقع » الأصل فيها الغاب ثم تأتى التلبيسة أى الغطاء الذهبى أو الفضى ٠ ومن هنا المثل المصرى الشعبى ٠ لبس البوصة تبقى عروسة ٠ وأصبح يطلق على كل من تجلوه الزينة فتنقله من حال الى حال ٠٠

واختفت مع البرقع التطريحة أو الملاءة اللف كما اختفت الحبرة التركية وان عادت هذه الأيام تحت اسم آخر ٠

واختفى الخلخال وكان حلية أساسية بين بنات البلد حتى الموسرات كن يلبسنه من ذهب وأوبريت الليلة الكبيرة تنادى فيها احدى بنات البلد فى طعامه ياولاد الحلال بنت تايهة طول كده ٠٠ فى رجلها الشمال خلخال زى ده ٠٠ فرصة تكشف عن جمال ساقيها وخلخالها ألم أقل انها طعمة بنت البلد ؟ ٠

وبهذه المناسبة أقول ان لى صورة فى السنة الأولى من عمرى فى رجلى خلخال رفيع وفى معصمى اسورة وفى أذنى حلق لأجلس كاملة الهيئة على حجر جدتى ٠

طفلة بنت بلد ٠٠ لقد ولدت مصرية :

طاسة الخضة :

صورة أخرى من صور القاهرة فى طفولتى ٠٠ أتذكرون طاسة الخضة تلك الطاسة الصغيرة الجميلة ذات الحليات والكتابات ٠ وكان البيت المصرى يحرص عليها حتى اذا فزع طفل من أطفاله سقوه من طاسة الخضة فيهدأ وجيبه ويسكن تحيبه ويطمئن أهله عليه ٠٠ وبعض البيوت لا يملك طاسة الخضة وهنا يستعيرها اذا لزم الأمر أى فزع طفل فيه ٠٠ اتخض ٠٠

وطبعا لا يفوت جدتى ان تقتنى من أجلى طاسة الخضة وكعادتها فى المبالغة فى تدليلى كانت لا تكتفى بالماء تسقينيه من طاسة الخضة بل تضع

فيها تمرا أو تينا جافا ثم تبيتها في العراء أى على قاعدة النآفذة وكانت عريضة في البناء وبها فتحات توضع فيها القلل لتبرد ٠

تبيت جدتي طاسة الخضة بتمرها أو تينها في العراء لينزل فيها ندى الفجر فاذا استيقظت في الصباح أكلتني ما بها عن آخره لتطمئن تماما أن الخضة ذهبت الى غير رجعة وأن الشر عني زال ٠

وما أكثر ما تكرر هذا الموال على أثر كل لفتة أو حركة ٠٠ كانت تقول عن اعتقاد ان نجمي خفيف ، وبناء عليه كل شيء يزعجني أى يخضني على حد تعبيرها ٠٠ على كل حال كنت سعيدة بهذا لما يعقبه من تين وتمر وأطايب أخرى ٠

وبمناسبة أكل الأطفال ، نعم أطفال القاهرة معي بعلى لوز وهو سكر معقود يصب في صوان صغيرة وينثر عليه اللوز وخاصة في الأعياد والمواسم ٠

ويتساءل أستاذنا الدكتور أحمد أمين عن سر هذه التسمية ثم يعزوها أو يرجع على الأقل الى التشيع الذى كان سائدا في عهد الدولة الفاطمية ونسبتهم كل شيء الى على ٠٠ فهذا النوع من الحلوى « على لوز » وعند المطر يقولون : يا فرح على ٠٠ وعند الكرم والجود يقولون : عامل أبو على ونحن الآن نقدم في الولائم نوعا فاخرا من الحلوى نسميه امتدادا لهذا : أم على ٠

ولما كان الريف متواضعا قدم للاسم ، الزيت فغنى على يا على يابتاع الزيت ٠

الفران :

تحدثت عن أشياء وصور اختفت من القاهرة ٠ من هذه الصور ، (الفران) ٠ كانت صناعة الخبز جزءا من البيت المصرى في المدن والريف على السواء ٠ كان البيت يحتشد له بدءا من تنقية القمح وطحنه في القرية ، ونخل الدقيق مرة ومرتين في المدينة وقد عرفت طفولتي الطريقتين ٠

وسواء في القرية أو المدينة وهي هنا كبرى المدائن ٠٠ أى القاهرة كنت أتشبث بالاشتراك في سائر العمليات وخاصة في المراحل التي تدل على المهارة مثل « الخبيز » ٠٠ وارضاء لى كالعادة أوصت جدتي بصنع مطرحة صغيرة خفيفة لى وكانت أثناء قطع العجين قرصا على الألواح الخشبية

تقطع قطعة صغيرة أو قطعتين فتضع لى على المطرحة الصغيرة الخاصة بى قطعة العجين وأقوم برحرحتها على المطرحة فى تقليد للكبار وكنت أفعل هذا فى سعادة غامرة كأنى أدلل طفلا ، أنا الطفلة فى ذلك الحين ثم أشب لألقى الرغيف فى الفرن ٠٠ فاذا نزل من المطرحة مستديرا سوى الأطراف فرحت جدتى وجعلت هذا موضوعا للحديث ؛ واذا تكوم منى الرغيف على بلاطة الفرن قالت فى حنان غامر : لا تخافى أنا آكله ٠٠ فاذا استمرت علامات الخجل أو الألم على وجهى ، أعطتنى قطعة أخرى من العجين لأحاول من جديد أو فى الحقيقة لألعب من جديد فقد كانت العملية بالنسبة لى فى الحقيقة لعبة طريفة ٠

اختفى الآن الفران فى المدينة ، والفرن فى بيت القرية وغدونا جميعا نشترى العيش جيدا أو رديئا ، ولأنه جاهز ، لا نحس به ، زايلته مكانته القديمة فى النفس المصرية ٠٠ اننا الأمة الوحيدة التى تسمى الخبز « عيشا » وتكاد تقدسه حتى لتقسم به واذا وقعت كسرة على الأرض علمونا أن ننحنى على الأرض ونحنو على اللقمة ونرفعها الى شفاهنا ونقبلها ٠٠٠ ويزيد الكبار قولهم أستغفر الله العظيم ٠ لقمة على الأرض تورث الاحساس بالذنب والآن ترمى البيوت المصرية أرغفة كاملة وعزيزة فى صناديق القمامة أو للدجاج بحجة الرداءة التى تزهد النفس معها فى آكله ٠٠ أو اكتفاء بالعيش الفينو الأبيض فى عملية اعجاب ساذج بكل ما هو أبيض ٠٠ الرغيف الأبيض والرجل الأبيض ٠٠ وليس هذا بالشىء الهين ٠٠ انه تغير نمط حضارتنا وهنا مكمن الخطر ٠

تغير النمط الاستهلاكى ودلالته :

تحدثت عن الفران فى المدينة والفرن فى القرية والمسألة ليست مجرد صورة اختفت من حياتنا انها أبعد كثيرا من هذا ٠٠ ان تغير النمط الاستهلاكى يتبعه تغير النمط الحضارى وهنا كما قلت مكمن الخطر ٠ وليس الخبز الى مثلا قريبا ٠ هناك **الملبس** الذى تغير بدوره فبدأت تغمر الأسواق كميات رهيبة من الخيوط الصناعية وملابس مختلفة الأشكال والأنواع والرسومات والألوان الزاهية للاستهواء فأصبحت الأسرة المصرية تلبس الألياف الصناعية بعد عزوف أوربا عنها الآن ٠ اذ أثبتت الدراسة بالكليات الهندسية المتخصصة فى تكنولوجيا النسيج ، اخطارها ؛ فهى تفتك بجلد الانسان نتيجة الحرارة الاستاتيكية المتولدة منها على سطح جسم الانسان ٠٠ نفعل هذا وعندنا القطن الذى يناسب جونا الحار لسرعة

امتصاصه للعرق وسرعة تبخيره الماء ، فضلا عن تحمله أثر ضوء الشمس المباشر فلا يتوبر أو يتساقط منه أجزاء •

مكمن الخطر كما قلت أن التقليد فى الوسائل نتيجته الحتمية تعميق التبعية للدول المصنعة •

ان التغير دوما جزء من بيئة وطبيعة الانسان ولكن مخاوفنا تتركز فى نوعية هذا التغيير •• ومعدله وتأثيره فى كل منحى من مناحى الحياة حتى القيم الشخصية والمستوى الخلقى بل المعتقدات مع بعد هذه عن التكنولوجيا التى تتردد كثيرا هذه الأيام • وقد أدى التلاؤم الذى يقيمه تصور الحضارة الصناعية بين مستوى الحياة وبين التقدم التكنولوجى الى ما يسميه بعض الكتاب الاجتماعيين الغربيين أنفسهم ، بالغرور الحضارى سواء عند الخبراء الذين يعملون فى المجتمعات النامية أو عند الدول المعينة نفسها •

وهكذا يتمزق الانسان بين حضارته وحضارة الآخرين ، وطبيعة الصراع بين الحضارات الغالبة والمغلوبة وتمزق انسان الدول النامية بين قيمه الموروثة والمحببة وبين مقتضيات ومتطلبات الحضارة الصناعية ، ظاهرة نحسها •• وهكذا أصبحت قاهرة طفولتى ذات الطابع العريق ، برج بابل غدت أنماطا مختلفة وتيارات مختلفة وكلما كثرت الأنماط وتباعدت دلت على أن الأمة فى دور الاعتمال فى فترة قلق وحيرة نفسية وتظل هكذا الى أن (تتبوتق) لو جاز هذا التعبير ويسفر الانصهار عن شىء جديد ، والى أن يظهر هذا الجديد سنظل نعيش المتناقضات التى تحيط بنا •

أشرت ، قبلا الى برج بابل أى عن مجمع المتناقضات التى نراها فى مدينتنا القاهرة • ومعنى هذا أننا نراها بصورة أسوأ فى مدننا الأخرى التى ليست عواصم •

فى المسرح مثلا لو تأملت جمهوره خاصة مسرح الغناء تجده بين انسان يشرب الصمت ومأزوم يشرب الضجة وما أكثر غواة الضجة هؤلاء بيننا ومن ثم لا يستسيغ معظمنا الموسيقى السيمفونية • ان سماعها فن وحده بما يحوطه من هدوء قار ، صمت متعمق ، وتذوق واع ، وتجاوب شاعر ، وحب شفاف ، واستغراق مشرئب ، وتفتح مشبوب ، وتقبل هفاف صاف •• وهى قدرات لا تعز علينا ولكننا لا نطيقها ولا نصبر عليها •

وما نشهده فى الغناء ، نشهده فى البناء فبيت أو فيلا على الطراز الايطالى ، وأخرى على الطراز العربى ، وثالثة على الطراز الانجليزى المنحدر

السقوف مع أن جونا المشمس المشرق قليل الأمطار • وهذا كله دلالته الوحيدة أن مفاهيمنا وأذواقنا ونوازعنا فى شبه دوامة لم تستقر بعد على حال •

الكرنفال :

التعليم •• الأدب •• الفن •• القيم لا تخلو هى الأخرى من هذا التباين ولا هى منه بمنجاة •• فالتعليم منه الدينى الخالص ، ومنه المدنى على أنواع ، ومنه الأجنبى مذاهب شتى •

والأدب منه ، لا يزال يتعلق بأهداب الماضى ، ومنه ما يجافى هذا الماضى جفاء يقطع الصلة •• ويوسع الهوة ومنه ربيب أوربا مادة وروحا ، اقتباسا أو محاكاة ، ومنه المحلى النابع من صميم واقعنا •• ألوان •

واذا كانت الموسيقى أقرب الفنون الى الأدب فانها فى مصر أصدق مثال على هذا القرب ، والتشابه • الموسيقى فى مصر منها ما لا يزال يتعلق بالموسيقى التركية ذات البشارف التى كانت عماد موسيقانا فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ومنها الذى يقتبس من أوربا من غير كلفة ، ومنها ما يستوحى بيئتنا : ريفنا • والحضر •

وتأبى المرأة الا أن يكون لها دورها فى هذا الكرنفال فواحدة محجبة لا يظهر منها الا حدقتان تبرقان وأخرى سافرة الى حد متابعة بيوت الأزياء فى تقلباتها بين الطويل والقصير والضامر والمنفوش وثالثة تتعثر فى المسافة بين الطرفين •

وازاء هذا التباين ونتيجة له تتباين فى الحياة اليومية أساليب العيش وأساليب الحديث وأساليب التعبير عن ذواتنا حتى ليجمع البيت الواحد أنماطا من التعليم والأزياء والأذواق والعقليات وطرائق التفكير بل ولغة الحديث على ما بين أهل البيت من وشيجة القربى وصلة الرحم •

وينعكس هذا فى قصصنا : زقاق المدق ، « قنديل أم هاشم » وغيرهما •

ليس الا انتشار التعليم وازدهار الصناعة والوعى بتاريخنا وحضارتنا سبيلا الى الطابع القومى و « الشخصية المتميزة » ••• شخصية مصر •

وما عدا هذا فهو مسخ • ومن المسخ ، نسخ قومية الطابع وأعجمية الأسماء • عندما كنت طالبة يخطو صباى على دروب القاهرة ، كانت أسماء

المعالم رسمية وشعبية مصرية خالصة بل يحس الانسان مصريتها حتى فى أبعد الأشياء عن السياسة أو الوطنية فتجد بقالة النيل الأزرق ونادى وادى النيل وأحسب أن هذا امتداد للنهضة الاقتصادية التى أرسى قواعدها ، طلعت حرب فبنك مصر يتوسط القاهرة وشركاته جميعا تستهل باسم مصر ، أولا ، ثم الصفة المشتركة ثانية فالشركة المصرية للملاحة وشركة مصر للطيران ، وشركة مصر للغزل والنسيج الخ ٠

ومصرية الأسماء أيضا امتداد للكشوف الأثرية التى تلت كنوز توت عنخ آمون ٠ والاعتزاز بالمصرية ومصرية الأسماء أيضا ، امتداد للثورات المصرية ضد المستعمر ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٣٦ ٠ وكانت الجامعة مركز اشعاع ، وكان الأزهر مصدر مقاومة تخرج منه المظاهرات ٠ كان للأزهر رأى ، وكان للجامعة رأى ، وكان للشباب فى كلا الحرمين رأى وكا نللشعب رأى هو الرأى العام ٠٠ وما أكثر ما اعتدل به الميزان واستقام المائل حتى القصة المصرية ولدت فى هذه البيئة وهذا الجو كما يقول محمود تيمور على يقظة الوعى بكلمة مصر وكان أبطالها وأحداثها وأسماؤها وموضوعاتها مصرية صميمة ٠٠ كان يستحيل فى هذا الجو المشحون بالقومية والوطنية أن يجرؤ أحد ولو كان أجنبيا أن يطلق الأسماء الغربية على كل صغيرة وكبيرة فى حياتنا بل كان الأجانب يتوسلون للعيش بيننا بالتستر وراء الأسماء المصرية فاورورزدباك اسمه الذائع بيننا عمر أفندى ٠٠٠ ونماذج أخرى تخرج من الأسماء العربية القحة والأجنبية السافرة بالأسماء التاريخية خاصة الفرعونية فتوجت أعمالها بأسماء : ايزيس ــ أوزوريس ــ حوريس رمسيس ــ توت عنخ آمون ــ سيتى ــ أحمس ٠

عندما كان الانفتاح نابعا منا ، اقتصاديا ، على يد طلعت حرب ، وعلما على يد الجامعة المصرية ، ودينا على يد الأزهر ، وجذورا على يد المجمع اللغوى ، وتاريخا على يد التنقيب عن الآثار ، وهبات قومية على يد دعاة الاستقلال ٠٠ عندما كانت حياتنا جدا ترتفع فيها القيم ، جدت الأسماء ٠

لقد تحدثت فى هذا الموضوع فى الاذاعة أواخر سنة ١٩٨٣ ثم أثرت هذا الموضوع فى لجنة القاهرة بالمحافظة سنة ١٩٨٤ و سنة ١٩٨٥ فهل تستطيع محافظة القاهرة أن تخلصنا من الظاهرة المهينة التى تفشت وهى أعجمية الأسماء ؟ ماذا حدث للقاهرة ؟ ٠

أقول تفشت لأنى فى الريف أقرأ على الأكشاك الصغيرة والحوانيت المتواضعة مثل « كافتريا دالاس » ، « أوبرج ٠٠٠ » !!

ان القانون رقم ٦٢ الصادر فى ٣٠ أغسطس عام ١٩٤٢ يقضى

بايجاب (استعمال اللغة العربية فى علاقات الأفراد والهيئات بالحكومة ومصالحها وأن المادة الثانية معدلة بالقانون ١٣٢ لعام ١٩٤٦ تحتم أن يكتب باللغة العربية اللافتات التى تضعها الشركات والمحال التجارية أو الصناعية على واجهات محالها على أن ذلك لا يمنع من أن تكتب بلغة أخرى الى جانب اللغة العربية على ألا تكون أكبر حجما ولا أبرز • وبعد النص على العقوبة التى تتضمن السجن والغرامة تقول المادة [٣] فاذا وقعت الجريمة من احدى الشركات أو أحد المحال التجارية أو الصناعية رفعت الدعوى العمومية على مدير الشركة أو صاحب المحل •]

وهكذا نرى مهمة محافظة القاهرة ليست عسيرة بمقتضى القانون وبحكم ما تعارف عليه الناس فى بلادهم فلا تبدو القاهرة وحدها غريبة على أرضها •

الحدائق :

من الصور التى اختفت من القاهرة : الحدائق وأشهرها وأكبرها وأجملها **حديقة الأزبكية** التى أنشأها فى عهد اسماعيل ونظمها ، مسيو باربيه مدير حدائق باريس • وحديقة الأزبكية هذه التى اغتالتها يد الجهل وكان لها تاريخ • كان بها ثمانمائة شجرة نادرة وكان بها كشك موسيقى تعزف فيه الموسيقات العسكرية « والمزيكة الميرى » كما كان أهلها يسمونها تعزف ادوار (يا طالع السعد) و (العفو لسيد الملاح) وغيرها •

كما تعزف المقطوعات الأوربية مما يفصل الحديث عنه أستاذنا الدكتور حسين فوزى فى كتابه الصغير الكبير (سندباد فى رحلة الحياة) •

وحديقة الأزبكية بعد هذا رئة القاهرة التى اغتالوا كل خضرة فيها وحولها • فاقتصوا جزءا من حديقة الحيوان لكلية الهندسة واجتثوا جزءا من حديقة النهر • لمسرح الجيب وادارة مرور الجزيرة ثم اقتطعوا جزءا كبيرا منها مؤخرا من أجل كوبرى أكتوبر •

وامتدت يد الاعتداء الى حدائق الزهرية فأقيمت فيها المنشآت وبعض الأندية الرياضية ومراكز الشباب كما استقطع الجانب الأكبر من حدائق القصور بالزمالك وتم تحويله الى أرض للمعارض •

أحسبكم تلتقون معى فى ضرورة الحدائق لمدينتنا القاهرة •• ان نصيب المدن الكبرى فى الدول المتقدمة من الخضرة ٦٪ من مساحة هذه المدن أما القاهرة فنسبة الخضرة فيها أربعة من عشرة أى أقل من واحد••

أقل من نصف واحد !! هل يرضى محب للقاهرة ولمصر بما آلت اليـــه الخضرة في عاصمتنا الكبرى بل فى عاصمة المجد والتاريخ ؟

جاء في البحث الذى أعده وزير السياحة الأسبق الأستاذ عادل طاهر عن الحفاظ على البيئة الطبيعية وحماية التراث الحضارى أن المعدلات العالمية تحدد نصيب الفرد من المساحات الخضراء بمساحة تتراوح بين ١٢ ، ١٦ مترا مربعا ، وان كانت بعض الدول قد زاد نصيب الفرد فيها الى حوالى ٢٠ مترا مربعا ففى لندن يبلغ متوسط نصيب الفرد من المسطحات الخضراء ١٦ مترا ، وفى نيويورك ١٨ مترا أما فى القاهرة فلا يتعدى متوسط نصيب الفرد ٧٥ سنتيمترا على الرغم من أنها عاصمة مصر وأكبر مدن الشرق الأوسط وأفريقيا ٠

وقد كشف التقرير عن واقعــة خطيرة وهى أن مصر التى تنفق فى سخاء على مظهريات موسمية ليست بها ميزانية للحدائق منذ ثمانية أعوام كما أن الخطة الخمسية (٧٨ ــ ١٩٨٢) لم تذكر الحــدائق بشىء من الجدية أو التفضيل ٠

بقى أن نذكر نحن الحدائق وضرورتها لمدينتنا القاهرة ٠ ولم يقف الأمر عند الاعتداء على الحدائق العامة بل امتد الأمر الى الحدائق الخاصة ٠ ففى الزمالك البحرية والقبلية استشرت ظاهرة اقامة العمـــارات السكنية المنطلقة الارتفـــاع على حدائق القصور بهذا الحى المرموق سابقا ! بل تم تحويل القصور نفسها الى مصالح حكومية ، وحدائقها الى مكاتب موظفين ٠ حتى القصور التاريخية كقصر لطف الله بحديقته الرائعــة ذات الجبلاية أقيم مكانها فندق لا يهمه التاريخ فى حساب الربح والتجارة ٠

ومثل هذا حدث فى جاردن سيتى حيث اندثرت القصور التاريخية وحدائقها ٠

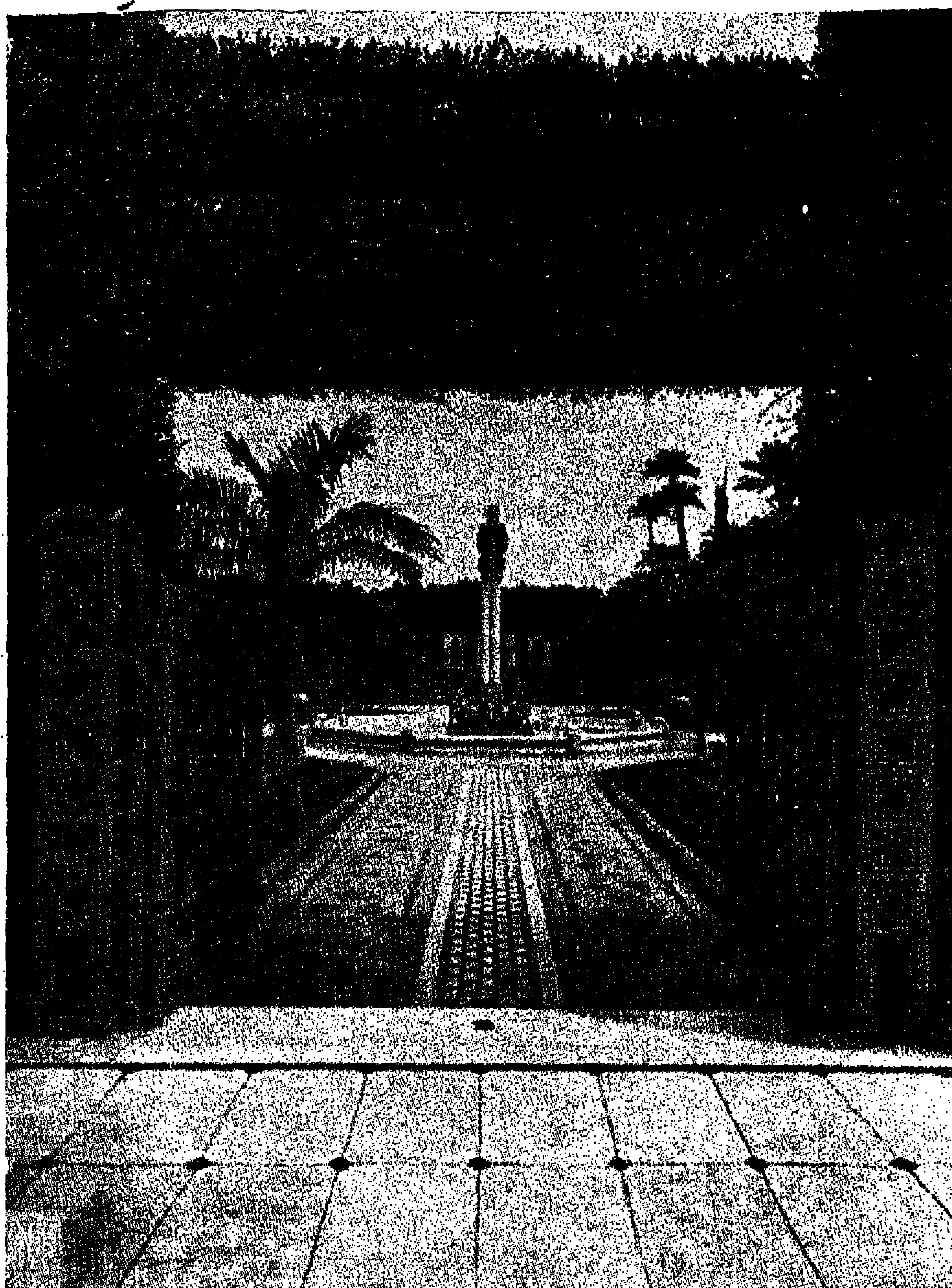
وتنعقد الاجتمـــاعات بمحافظة القــاهرة وتعرض التوصـــيات ثم تأخذ مكانها فى الأدراج حيث يخيم عليها النسيان أو التنــاسى وتزداد المآسى يوما بعد يوم وما حدث لجزيرة الزمالك حدث مثله لجزيرة الروضة التى حرمت من الحدائق التى غنيت بها سابقا ٠٠ وقام على اطلالها مبان ومسارح ودور لهو ومحطة مجارى أيضا ٠

حتى حدائق قصر المانسترلى فى جنوب الجزيرة التى كانت مع القصر تشرف على مقياس النيل وكانت أشجارها الباسقة والنـادرة يزيد عمر بعضها على مائة عام ، اقتطع منها خمسة أفدنة ليقام عليها محطة مياه ٠

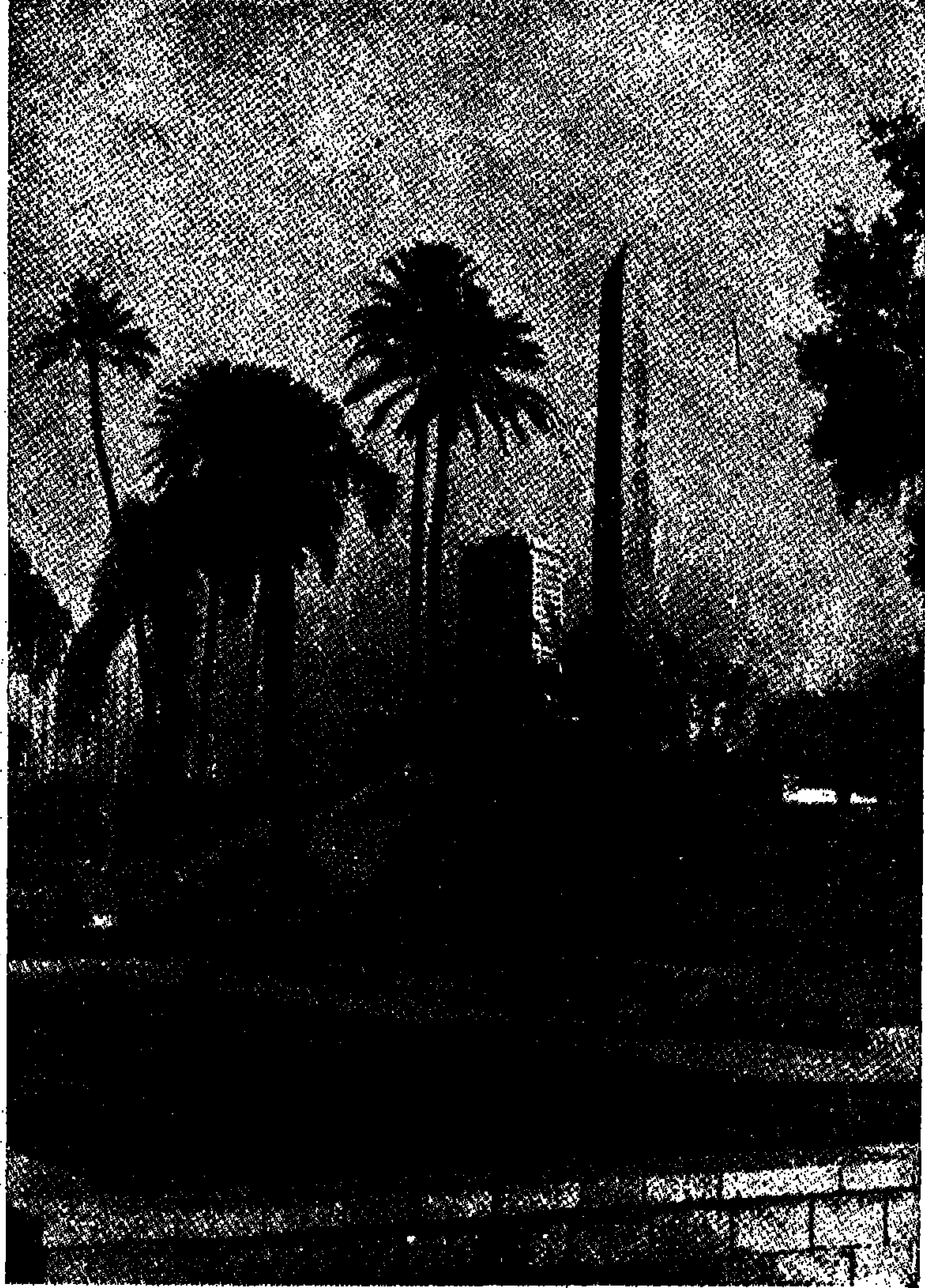
كان لنا الله ٠٠٠



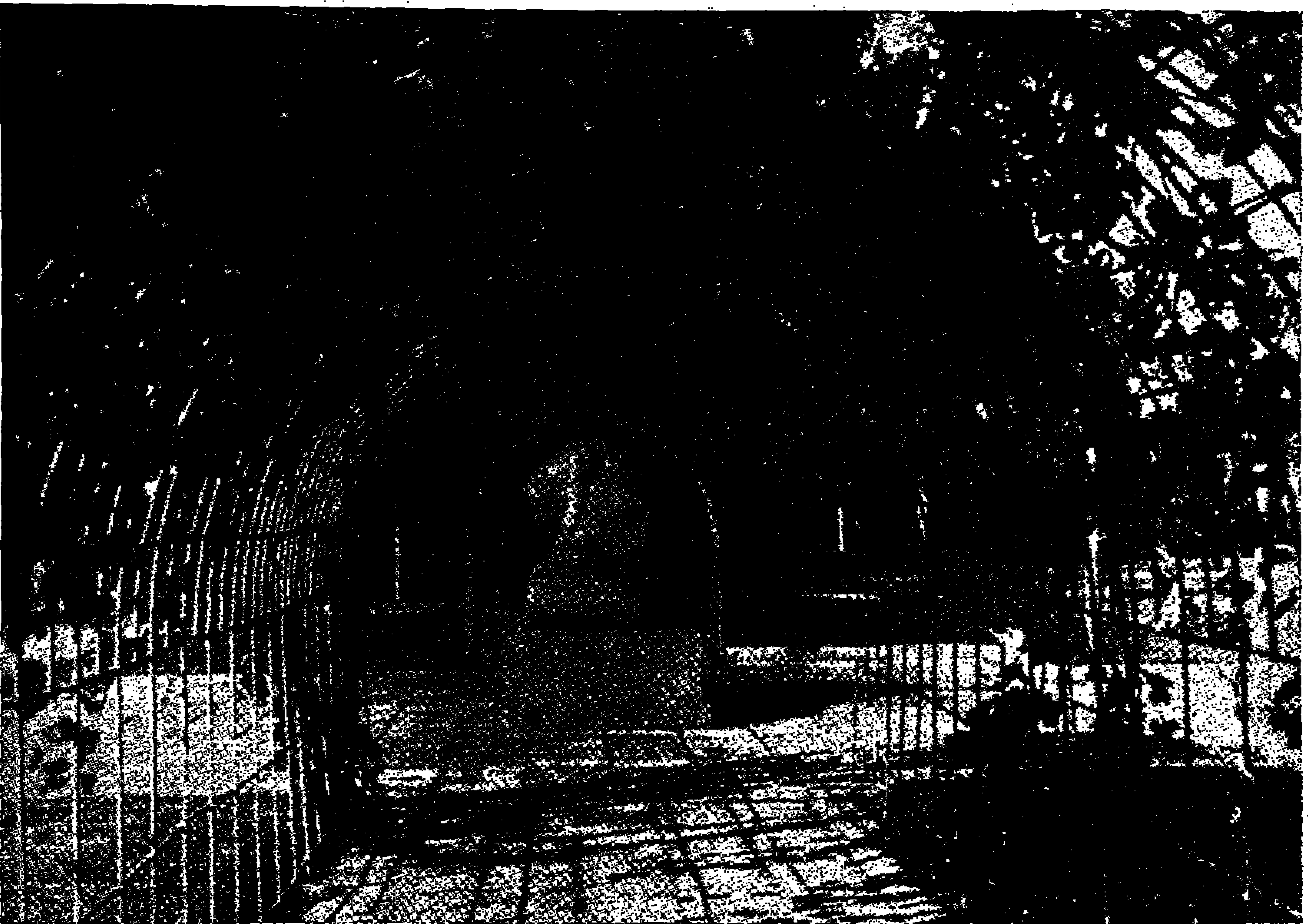
حديقة الفردوس بالجزيرة ـ الزمالك



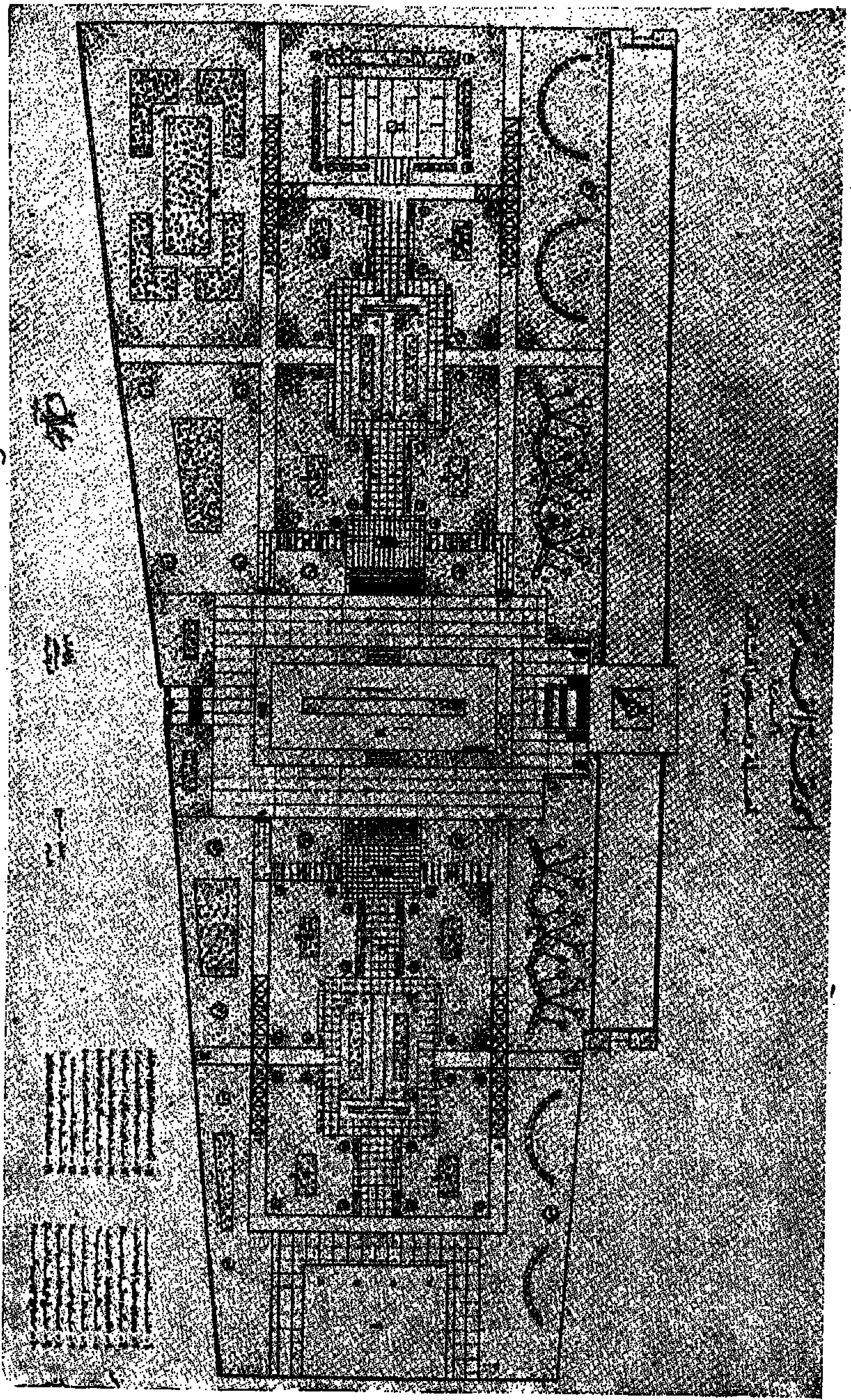
مدخل حديقة الفردوس الأندلسية



الحديقـــة الفرعونيـــة بالجزيرة ـ الزمالك
(اول حديقة فرعونية فى العالم)
« حديقـة النهر ســـابقا »

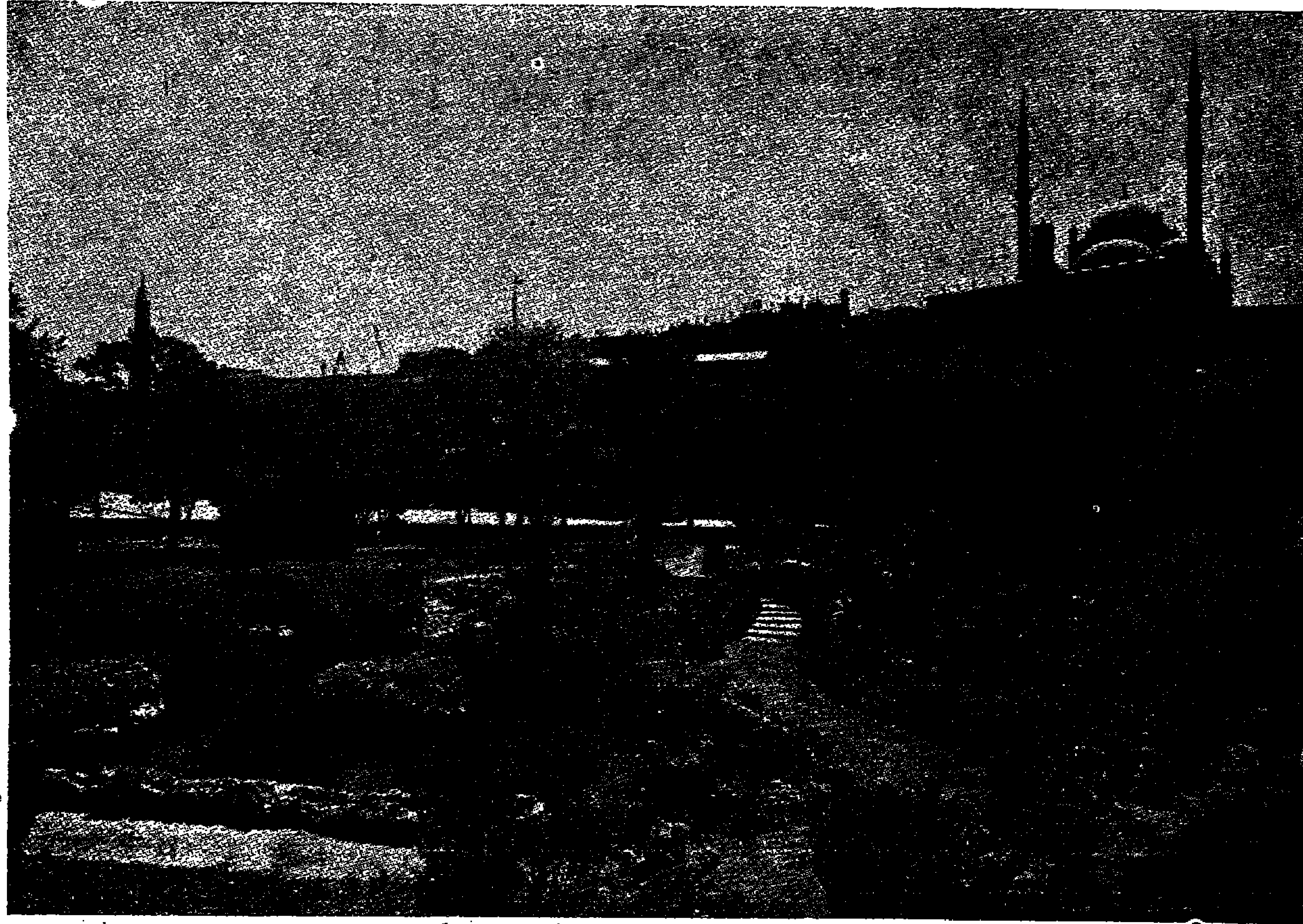


الأسود والأقواس فى الحديقة الفرعونية

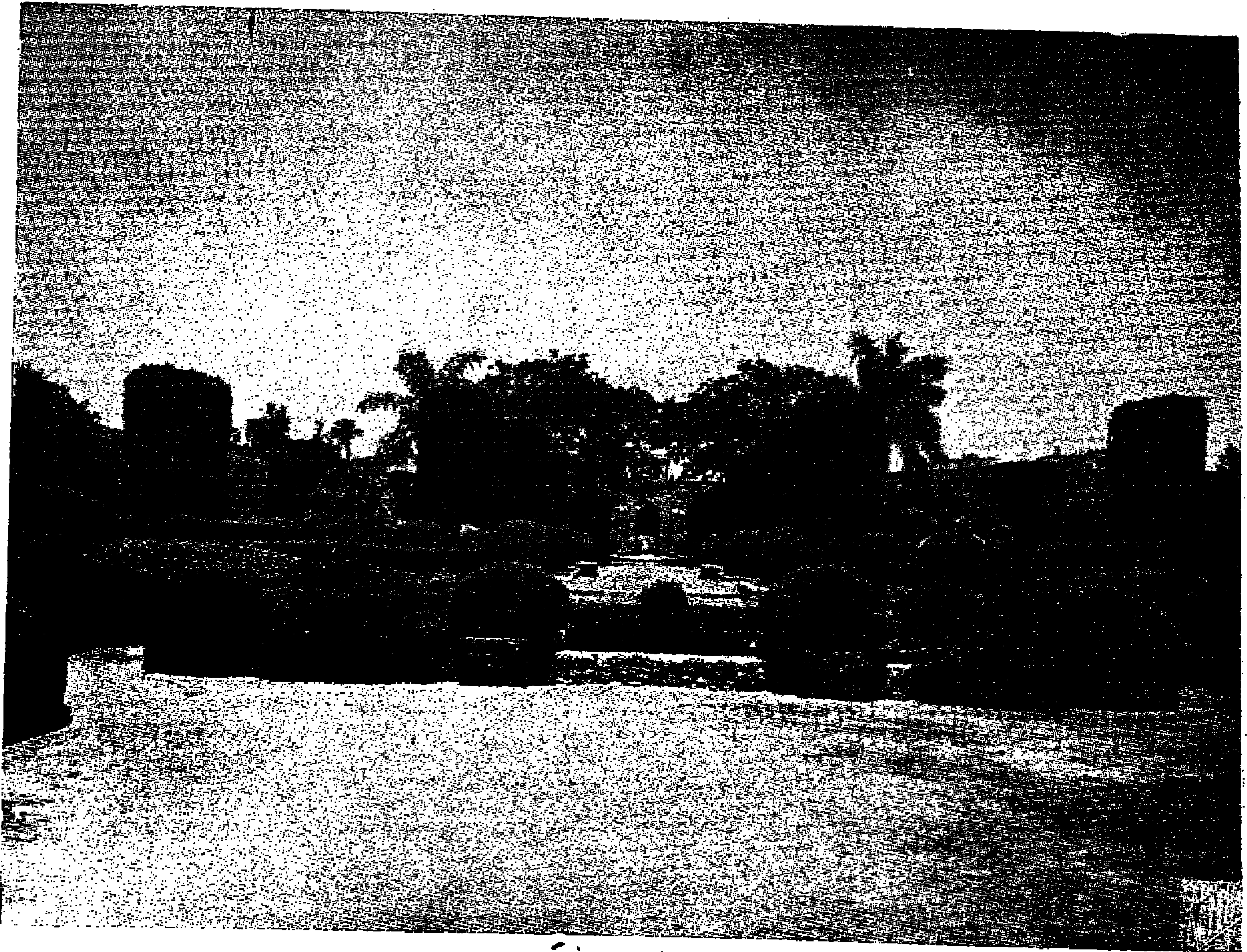




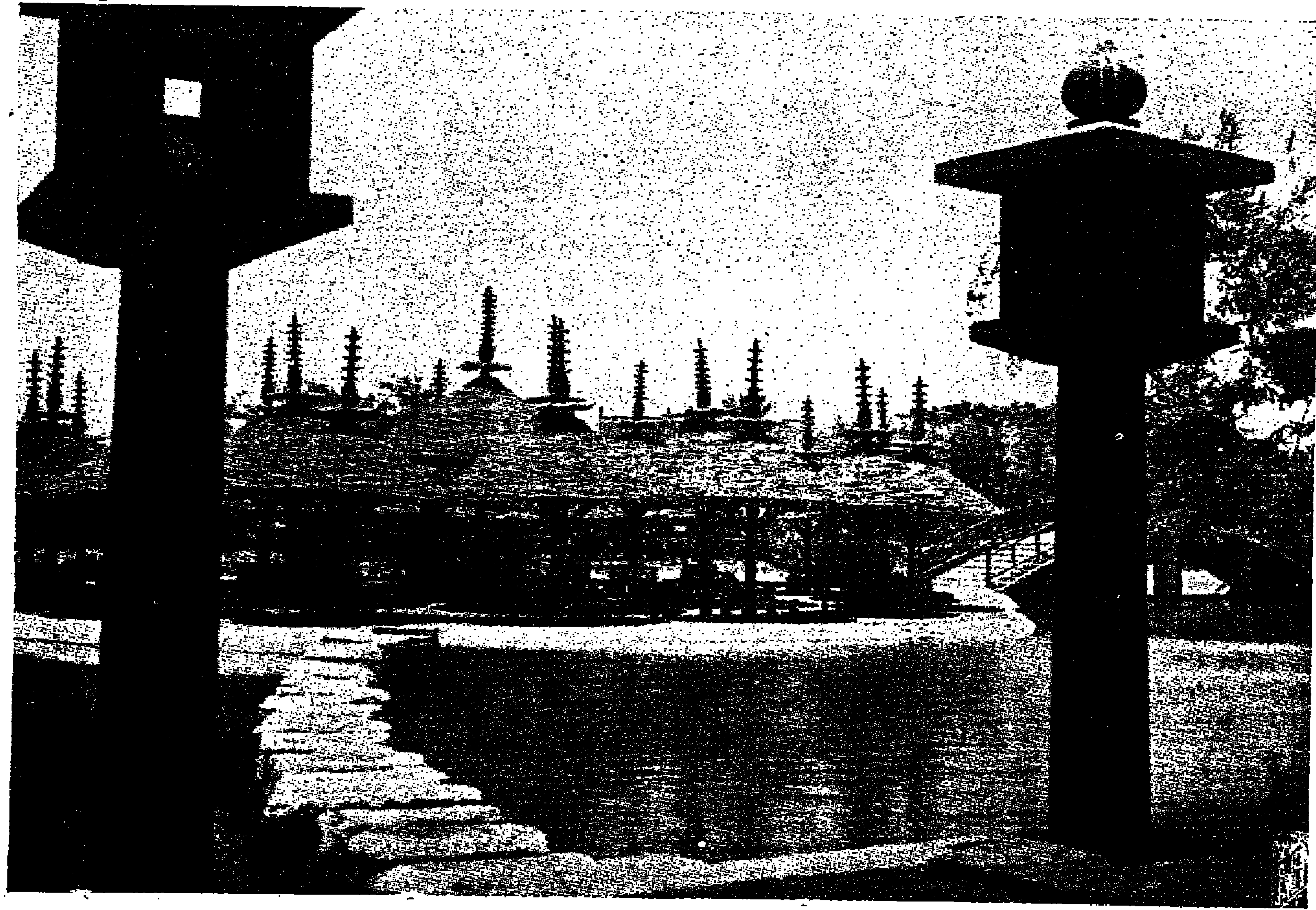
حديقـــة مور على الطراز الفرعونى



حديقة ميدان المنشية بالقلعة



حديقة ميدان القاهر



الحديقة اليابانية بحلوان

وكما حرمت جزيرة الروضة من الحدائق ، حرمت أيضا من النيل فان هذه العشوائيات الحجرية غدت تحجبه عن العين المصرية التى تدخره راحة .!استرواحة كلما لفحها الهجير .

أما حدائق ميدان التحرير فقد تم تحويلها بحمد الله الى مواقف أتوبيسات .

وأخيرا وليس آخرا كما يبدو .. حديقة قصر محمد على بشبرا ومساحتها خمسون فدانا . وكانت تعتبر احدى روائع حدائق القاهرة بل من أندرها وأنفسها بما تضمه من ألوان الشجر والزهر كما كان يعد القصر نفسه من أندر القصور فى العالم والقصر وبحيرته الصناعية وحديقته الغنية .. كل هذا كان واليوم ماذا بقى له من هذا كله وماذا ضاع منه ؟ .

أما الأمير محمد على توفيق وكانت حدائق قصره بالمنيل ، عالمية الشهرة من جمال وروعة . وكان قد وقف عليها من أرضه ، لصيانتها .. هذه الحدائق يعبث بها نادى البحر الأبيض الذى يرأسه روتشيلد اليهودى ..

وحديقة السيدة زينب (الحوض المرصود) .

وحديقة ميدان الظاهر ، وغابات الدراسة ، وحديقة ضريح أحمد ماهر ، وحدائق القبة ، وحدائق المتحف الزراعى بالدقى .

وحدائق بولاق أى البحيرات الجميلة .

كتب لى الدكتور اسماعيل مصطفى اسماعيل المدير العام السابق للادارة العامة للحدائق والتشجير بمحافظة القاهرة أن حديقة الحرية كانت موضع زهو مما حدا بالحكومة سنة ١٩٦٢ أن تدعو الأمير سيهانوك الى زيارتها ، وشرب الشاى بها .

أين حديقة الحرية الآن ؟ وأين حديقة مور أو الحديقة الفرعونية ؟ والى متى يظل مبنى المقاولين العرب يشوه حديقة النهر ، المبنى الذى زعموا أنه مؤقت لادارة الكبارى للتحايل على اقتطاع الأرض ليجثموا عليها عاما بعد عام حتى تصير مع التقادم أمرا واقعا ، وملكا ضائعا على الدولة التى هى نحن دافعى الضرائب ؟ .

أين حدائق فم الخليج وحدائق حلوان والكابريتاج ؟

يقول الدكتور اسماعيل مصطفى اسماعيل وهو رجل مختص ، ان القاهرة تملك مشتل البراجل ومساحته سبعون فدانا بصوباته الزجاجية

والخشبية وورش الصيانة ··· كيف تتعامل معه ادارة الحدائق ؟ وما مدى استفادتها منه فى « تخضير » القاهرة ، و « تحضير » نواحيها ؟

هكذا كانت حدائق القاهرة التى اندثرت وشوهت واستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير هذه الحدائق التى وفرت لها القاهرة كل ما يعجب الجمال والفن والذوق الحضارى والمستوى الرفيع ·· ثم أتت عليها جميعا معاول الهدم وكان القاهرة نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا ولكن لا ليست القاهرة ولكن أعداء الجمال والخضرة والنضرة أى أعداء القاهرة الزاهية الساحرة أو هكذا كانت حبيبتنا القاهرة ·

ان صورة القاهرة التى عرفتها طفولتى لا تمحى من وجدانى أبدا ·· هذه الصورة الغالية دخلت حياتى ·· القاهرة فى حياتى حقيقة لا مجازا · ولهذا تؤرقنى القاهرة اليوم ويقلقنى عذابها ··

قرأت فى ٧٣/٧/٢٣ فى جريدة الأخبار أن مدينة نابولى تبكى حزنا على موت شجرة صنوبر عجوزا وهى تلك الشجرة التى تصور على جميع الصور الفوتوغرافية ، والزيتية لمدينة نابولى الايطالية خلال الثمانين عاما الماضية كشعار للمدينة ·

وقد نشرت الصحف الايطالية نبأ موت شجرة الصنوبر الشهيرة وكأنها تنعى شخصية وطنية شعبية ! لو بكينا على ما يستحق البكاء مما ضاع من القاهرة ومن مصر لأغرق الأرض سيل من الدموع أو جرى فيها نيلا مع النيل ·

حكى المقريزى فى كتابه (المواعظ والاعتبار) أن أمير مصر موسى بن عيسى خرج الى منطقة الرصد فالتفت الى من حوله مأخوذا وهو يقول :

أتتأملون الذى أرى ؟ قالوا وما الذى يرى الأمير ؟ قال : أرى ميدان رهان وجنان ونخل وبستان شجر ومنازل سكنى ونهرا عجاجا وأرض زرع ومرتع خيل وساحل بحر وصائد نهر وسهلا وجبلا فهذه ثمانية عشر منتزها فى أقل من ميل فى ميل ·

والآن القاهرة كلها ليس بها ثمانية عشر متنزها ·· أو نصف هذا العدد ·

الهدوء :

تحدثت طويلا عن صور اختفت من القاهرة التى درجت فيها

طفولتى وشب صباى ·· الى الآن صور مادية محسوسة ولكنى الآن أريد أن أتحدث عن أشياء معنوية اختفت من القاهرة ·· أشياء عزيزة منها :

الهدوء : تتحدث القاهرة الآن من خلال الميكروفون وتغنى من خلال الميكروفون وتعلن عن السلع من خلال الميكروفون حتى القرآن الكريم على وقاره يرتل من خلال الميكروفون وكأن كل شارع وكل بيت به محطة اذاعة محلية · وبعد ضوضاء الأصوات تأتى ضوضاء المركبات بأنواعها ،

وضوضاء الصور التى تزحم العين ·
وضوضاء الزحام الذى يكرب الأنفاس ·
وضوضاء الفوضى التى تؤلم الحساس ·
وضوضاء السلوك الذى يرهق الناس ·

ألوان من الضوضاء تعانى منها حبيبتنا القـــاهرة ·· فى اليـــابان يستعينون على رفع كفاءة أطفالها بعزف الموسيقى بل ثبت علميا ان النبات ينمو بالموسيقى ونحن نحاصر أطفالنا بالضوضاء فى الشارع وفى البيت وفى المدرسة وفى دور العبادة نفسها التى يجب بل من حقهـــا أن يعمق فيها الصمت لنستمع الى كلمات الله ··· ان الصوت الخفيض لون من الدماثة وأدب السلوك ورهافة الأسلوب ·

يقول الله تعالى من سورة الحجرات : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » ويقول جل شأنه « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور · واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » لقمان ·

وحين وصفت مصر القديمة الاله قالت : (مفرح لمن يلوذ بالصمت) حتى فى الدعاء أوصى حكيمهم بالاقلال من الكلام فان « الله يعرف عنـــا ما يريد » ·

فى بيان أصدره مجلس العموم البريطانى فى أغسطس سنة ١٩٤٧ أن (اذا عزلت الضوضاء عن غرف كتاب الآلة الكاتبة ، فان ذلك يقلل ٢٩٪ من الخطأ ويزيد ٣٧٪ من الانتاج · أما فى حالة موظفى المصالح فان هذا العزل يقلل ٣٧٪ من الخطأ ويزيد ٤٧٪ من الانتاج) ·

ولأمر ما خلد الأنبياء والمصلحون الى الخلاء ومجالى الطبيعة فى الغار أو الجبل ليستمعوا الى وحى السماء والى صوت النفس المنبعث من الأعماق الصافية فيهم ·

ليتنا ندرك أن صوت الصمت أحيانا أروع وأوقع من صوت الكلام.

لقد عمل الدكتور على عبد الجليل راضى عدة احصائيات عن الضوضاء في أحياء القاهرة فخرج من النتيجة بصرخة ألم تقول (واقاهرتاه). واقاهرتاه عنوان كتابه الذى شخص فيه أمراض القاهرة جميعا وقد قسم الضوضاء فى القاهرة أقساما أو ألوانا :

فضوضاء يومية تعيشها جميعا على تفاوت بين الأحياء ولكننا لم يعد عندنا حى واحد ينعم بالهدوء حتى ولو كان مترفا ٠

وضوضاء موسمية كالتى تسبق عيد الأضحى وكورس الخراف على أسطح المنازل وعلى أبوابها ٠

وضوضاء عاطفية لو صح هذا التعبير كالتى تحدثها أبواق السيارات التى تحمل العرائس ٠

وضوضاء كروية كالتى يحدثها المشجعون فى أعقاب المباريات ٠

وضوضاء فئوية كالتى يحدثها الباعة المتجولون ٠

وقد ينام كل شىء فى القاهرة ولو فى ساعة متأخرة من الليل ولكن الضوضاء فيها لا تنام ٠ قد يخف معدلها فى بعض الساعات فقط ٠٠

ليت خطباء المساجد يقولون ان من الدين توفير الراحة للمريض والطالب والنائم والمجهد ٠٠ ليتهم يقولون ان من الدين الدماثة بل هو فى جوهره حسن الخلق ٠٠ ومن الدماثة المصقولة : الهدوء ٠

لقد طالب المجلس الدولى للموسيقى سنة ١٩٦٩ فى ندوة اليونسكو بباريس أن لكل امرىء الحق فى الهدوء ٠

ويشير الدكتور راضى الى منظمات مهمتها محاربة الضوضاء ٠ وقد قامت هذه المنظمات فى عدة دول سنت لها القوانين الرادعة مثل بريطانيا ــ سويسرا ــ أمريكا ــ ايطاليا ٠

مع أن ايطاليا كسائر دول حوض البحر الأبيض عالية الصوت ٠ بل هناك الآن اتحاد دولى ضد الضوضاء تكون سنة ١٩٥٩ ٠

ان الذى يرفع صوته انما يغطى صخبا فى داخله ٠

ان النفس المطمئنة يأتى حديثها من قرار مكين ٠

والصوت الهادىء أكبر قدرة على الاقناع والامتاع وأعمق أثرا ٠ وقد يبلغ الهمس بالخفوت ما لا يبلغه الضجيج والعجيج من مواطن الاصغاء ٠

رمضان في القاهرة

تقاليده واستقباله :

تبدأ الاستعدادات لرمضان قبل موعده بتوفير متطلباته التقليدية ٠ من طعام وشراب وترويح عقلى أيضا تضطلع به الاذاعة والتليفزيون جنبا الى جنب مع الغذاء العقلى والوجدانى من برامج الدين والعلم والفن ٠

أستطيع أن أقول ان رمضان بصورته الحالية رمضان حديث ولكن رمضان استقباله فى طفولتى يجرى على سنن آخر ٠٠ صورة أخرى ٠ كانت القاهرة ومدن الأقاليم وقراها تحتفل برؤية هلال رمضان فيخرج موكب من أرباب الحرف كل حرفة على عربة مزينة بآلات الحرفة ومعطياتهـــا وفوقها الحرفيون يمارسون حرفتهم ولـــكن بطريقة رمزية تحيـة منهم للاحتفال ، وتتفنن كل عربة فى زينتها من اعتداد أصـــحابها بحرفتهم واعتزازهم فى الوقت نفسه برمضان الذى يخرجون لتحيته ٠ وتســـير فى الموكب أرباب الطرق الصوفية يحمـــلون أعلامهم وشعاراتهم وفرق الجيش والشرطة والموسيقى وتطلق المدافع طلقاتها على صياح الأولاد على أثر كل طلقة (هيه) ويمشى هذا الموكب فى الشـــوارع حتى يفضى الى المحافظة فى القاهرة أو الى المديرية فى عواصم الأقاليم أو الى بيت البيــه المأمور فى المدن حيث يوزع الشربات وتطلق الزغاريد على طريق الموكب حتى اذا حل المساء أضيئت المآذن جميعا احتفالا بشهر الصــوم وهلت الفــوانيس الصــغيرة الجميلة الملونة وارتفعت أناشيد الأطفــال ، وحوى يا وحوى رحت يا شعبان جيت يا رمضان ٠٠ اياحة ٠

بنت السلطان لابسة قفطان أحمر اياحة ٠

ومرة أخضر ومرة أصفر وبعد كل لون ينشد الأطفال : اياحة ٠

وبهذه المناسبة وحوى تفسر بأنها كلمة مصرية قديمة من خـوى يحوى أى عمل كما يعمل الحواه ٠٠ ربما ٠

كما كانت تتردد أغنية :

يا رمضان يا ورق أخضر	أيامك زى الســكر
بتيجى لنــا بنفكر	ايه تعمل فيك يا رمضان
احنا الشبان البـكر	دائما بتجينا معطر
وبتعزنا فيك كمان	يا رمضان قوينا
دا صيامك بيهنينــا	وع المساجد بيودينــا
ونصوم ونصلى فيك يا رمضان	يا رمضان يا ورد جميل
وبينور فيك القناديل	وبتفرح كل الأطفال

وتذكرنى هذه الأغنية بأغنية قديمة موغلة فى القدم حين كان قدماؤنا يستقبلون النيل فى استهلال فيضانه بقولهم مما رواه ارمان فى كتــابه (أدب مصر القديمة) ٠

« شباب رعاياك وأطفالك يهللون فرحا بمقدمك والرجال يحتفلون بك كملك راسخ القوانين عندما يوافى الوجه القبلى والوجه البحرى ٠٠ ويروى الناس من مائه ويقر الحزين ويبتهج كل قلب » ٠

ان مصر وادى النيل ووادى الدين ٠

أما الكبار فكانوا يحيـــون رمضان بذكر وقراءة القرآن ٠ كانت البيوت الكبيرة « تسهر » أى يتفق كل منها مع أحد القراء المشهورين او « المصيتين » كما يقولون لاحياء ليالى رمضان بتلاوة آى الذكر الحكيم فى بيته وبين زواره ٠٠ أما البيوت الآن فتــكتفى عادة بسماع القرآن من الاذاعة ولا يحرص على هذه العادة الا بعض العائلات الكبيرة فى الريف أو بيوتات البلاد العربية الذين يستقدمون كبار القراء المصريين لاحياء رمضان فى قصور الملوك والأمراء والوجهاء ٠

ويعتقد النــاس فى رمضان أن الجن تحبس فيه ببركته ليكتمــل خيره ٠ انهم يعتقدون أن رمضان ملك من الملائكة وانه اذا حل قيد العفاريت والجن فى قماقم من النحاس فيرتاح الناس منها طول الشهر ويتحركون فى أمان حتى فى الظلام ٠٠ وينطلق أهل القرى خاصة وينتقلون بين قراهم من قرية الى قرية للزيارة والمودة دون خوف فبركات رمضـــان تحبس

العفاريت التى يتوهمون انها تترصد بالسائر فى الأركان المهجورة على طول الطريق ٠

وتعدى هذه الأوهام الأطفال بالطبع فيهللون على حريتهم أو براحتهم فى رمضان وهم يهللون فرحين ٠

يا رمضان يا عود كبريت   يا مقيد كل العفاريت

وهم أنفسهم عفاريت مطلقة السراح ٠

وطالما رددت هذه الأغنية فى رمضان فقد كنت أخاف من الظلام وكان بيت جدتى كبيرا عالى السقوف كثير الدهاليز والمسروقة على السلم وكنت أثناء صعودى أحس دقات قلبى تسرع عند هذه المسروقة فأنهب السلالم عندها نهبا حتى أنجو من العفريت الذى كنت أتوهمه يسكن فى المسروقة . لهذا كان ينتهى يومى فى المساء فلا أنزل السلم الا بصحبة الكبار ٠٠٠ وكانت هى تخشى على من النزول فى المساء فتزكى فى نفسى دون أن تقصد هذا الوهم ٠ أما فى رمضان فكانت تسمح لى وأسمح أنا لنفسى أن أمسك فانوسا وأشارك الأطفال فى فرحتهم وغنائهم ٠ ما أجمل ليالى رمضان وما أجمل ليالى القاهرة ٠

هكذا كان يستقبل رمضان بأغانى الفرحة به فى غير تكلف ٠٠٠ أغان ليست مصنوعة بل تلقائية نابعة من الوجدان الشعبى على سجيته فهى ليس لها مؤلف واحد ، وبالطبع لا يعرف قائلها ٠ وأصدق ما يكون الشعب المصرى حين يعبر عن احساسه باثنين : الدين والنيل ؛ وأصدق ما تكون المشاعر حين تنبع من القلب ابتهالات لله أو فيوضات من بحر النيل ٠

ورمضان يتميز فى كل شىء عن الشهور الأخرى : فى الطعام وتوقيته ونوعيته ٠٠ فى السحور ٠٠ فى الآذان ٠٠ فى النوافل ٠ ففى الطعام ، يفضل كثيرون أن يتناولوا شرابا ساخنا أو شرابا محلى بالسكر وغالبا ما يكون قمر الدين وفاكهة طازجة أو مجففة ثم يؤدون صلاة المغرب وبعدها يتناولون فطور رمضان التقليدى الذى تتفنن فيه ربة الدار وتحتشد له من أول يوم ٠٠ ومهما تنوع وتعدد فان الفول المدمس مرموق فى موائد رمضان فى الفطور وهو طبق أساسى فى السحور ٠

ومن تقليدات رمضان **الكنافة والقطايف** ٠

وفى رمضان يفضل كثيرون تناول فطوره فى بيوتهم لحاجة الانسان الى الراحة بعد صيام طويل خاصة اذا جاء رمضان فى فصل الصيف ٠

ويحكى ادوارد لين الذى كتب كتابا ضخما عن عادات المصريين وتقاليدهم فى القرن التاسع عشر أن البيوت الموسرة كانت تضع كرسى صينية الطعام قبيل المغرب فى غرفة الاستقبال بمنازل الطبقتين العليا والوسطى وتوضع على الصينية ألوان من الفاكهة ·· ولكن الذى استوقفنى قوله انهم كانوا يضعون عدة ، قلل من الماء المحلى بالسكر ومعها كوبتان زيادة عدد الزائرين المدعوين ، ليشترك فى الشراب كل من يقدم على غير انتظار ·· الذوق مافاتش باب النصر ·

وتبدأ الزيارات بعد ساعتين على الأقل ·· وكم يحلو السهر فى رمضان والقاهرة معا ·· ان ليالى القاهرة على مدار العام فاتنة ساحرة فما بالها فى رمضان حيث يمتع الحديث ويشوق ، وتصفو النفوس وتروق ، ويتلألأ الليل بالنور والسبحات والقراءات والأذكار فى ناحية وقصص السماء فى ناحية أخرى · وتستروح القاهرة وتحلو الحلوة أكثر وتغدو بكل شىء لا تقاوم ·· انها كاسمها ، قاهرة ·

أما السحور فان أهم ما فى السحور « المسحراتى » والمسحراتى له فى حياتى دور ·· وان كان مسحراتى بلدتنا فى الصعيد لا مسحراتى القاهرة ·· كان المسحراتى فى طفولتى الباكرة فى مغاغة شيخ عذب الصوت حسن السمات على غير عادة المسحراتية فى الأرياف · حتى الطبلة كانت منه رقيقة شجية كأى صوت يسمع فى سكون الليل ·

كنت فى السابعة من عمرى أو أقل قليلا ·· وكنت انتظر مروره للصوت الجميل الذى يقول فى مدح الرسول :

وأحسن منك لم تر قط عينى   وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب   كأنك قد خلقت كما تشاء

ولم أكن فى البداية أفهم كل كلمة ولكن الوزن بموسيقاه والصوت بحلاه والروحانية السائدة فى المكان والزمان ·· كل هذا كان يشجعنى بل كثيرا ما كانت تدمع عيناى منه · وبعد أن يبتعد الشيخ أحمد المسحراتى ، أعود الى سريرى وأستأنف النوم ·· وقد كان أهلى يحسبون يقظتى فرحا بالسحور أو رغبة فيه أو حرصا على أطايبه خاصة الكنافة التى كنت أحبها ولا أزال ولكن هذا كله لم يكن السبب ·· لقد تعلمت من الشيخ أحمد على البعد وقع ايقاع التعبير الجميل والصوت الجميل ·

ومنذ ذلك اليوم عشت للكلمة وللجمال أنشده فى اللفظ والمعنى والصوت والصور والحياة والكون ، منذ ذلك اليوم دون أن أعرف

ارتبطت حيـــاتى بفن الأدب وفن الموسيقى ٠٠ لقــد بدأت محاولاتى الأولى فى التعبير فى الثامنة من عمرى ٠ وبدأت أحفظ القرآن الكريم ٠ وعمق فى نفسى الاحساس بالكلمة وحاشيتها ٠٠ نعم ان الكلمة ملكة لها عرش وتاج ٠

أما فى القاهرة فالمسحراتى صورة أخرى مختلفة تماما ولكن لها طرافتها هى الأخرى ٠

ان المسحراتى يشكل ، لا أقول ظاهرة فى رمضان ، لكن يشكل على الأقل احساسا لطيفا فهو يطوف بالمنازل بيده طبلة يدق عليها ٠ أمام كل منزل ٠ لكل حى فى القاهرة ، مسحراتى خاص به وهذا أول فرق بين القاهرة ومدن الأقاليم وقراها . فهناك غالبا ما يكون المسحراتى واحدا أما القاهرة وهى بكل المقاييس « الكبرى » حتى قبل أن نطلق عليها نحن هذا الاسم ٠٠ لقد قرأت فى مجلة العمارة الانجليزية الصادرة فى أغسطس سنة ١٩٧٨ أن القاهرة فى القرن الرابع عشر الميلادى حين كان تعدادها نصف مليون كانت مساحتها أربعة أضعاف مساحة لندن وخمسة أضعاف مساحة باريس ٠

ان المسافرين الغربيين كانت تروعهم القــاهرة باثنين : حجمها ونفاستها ٠ ماذا أقول يا سيدة المدائن ؟ أحسب أنها ولدت (القــاهرة الكبرى) من أول يوم ولم لا ؟ ألست منف الجميلة والفســطاط والعسكر والقطائع والقاهرة ؟

أليست آلاف السنين لا ألفا واحدا كما يقول بعض منا ؟ أليست القاهرة عمرنا منذ كان لنا عمر ؟ ويمضى موكب الأجيال وكل جيـــل يودعها العمر وحصاد العمر ثم يمضى وتظل القاهرة ٠

المسحراتى :

ويأتى رمضان كل عام ويكر سريعا كما تقول جدتى وتعلل هــذا بأن أيامه معدودة ٠٠ وتظل القاهرة ، كل عام تسمع أذنهــا المسحراتى ونفرح نحن أطفال القاهرة به ، ولكن القاهرة تبتسم ٠ كم آلاف الرجال سحروها وبقيت هى الساحرة الوحيدة سحرت حتى الغرباء بل سحرت التاريخ الذى وقف عندها طويلا فكتب عنها الشرق والغرب ما لم يكتبه عن مدينة أخرى بنفس القدر والمقدار ٠

وبعض سحرها ما أفعله الآن ٠٠ أريد أن أتكلم عن المسحراتى فاذا بى أتكلم عن الساحرة ٠

في ليالى رمضان يباشر نفر من الرجال عملهم الموسمى أى تذكير الأهالى ، وما هم ناسون بالسحور • فالمسحراتى يطوف بيده طبلة يدق عليها أمام كل منزل دقة تقليدية معينة من الطريف أن ادوارد لين لم ينس أن يكتب لهذه الدقة نوتة ايقاع •

ويقول لا اله الا الله ثم يرد على نفسه قائلا محمد الهادى رسول الله •

ويسمى المسحراتى أصحاب الدور • طبعا يكون عرف جميع أسماء رجال الحى بطريقته الخاصة • يذكر المسحراتى اسم صاحب البيت قائلا أسعد الله ليالك فيفتح مغالق الاصغاء فليس أحب الى الانسان من سماع اسمه مقرونا بالتحية ومن الطريف أن المسحراتى يحيى أصحاب البيت من الذكور معددا أسماءهم ولكن النساء لا •• لعله احتشام يستثنى منه الفتيات الصغيرات فانه يقول (أسعد الله ســت العرايس فلانة وطبعا الطبلة شغالة بعد كل اسم •• بعد كل تحية وما أكثر تحيات المسحراتى المحفوظة عن ظهر قلب فهو يدعو للرجل بأن يقبل الله صلاته وصيامه ويدعو الله أن يحفظه ويبقيه لكل عام فاذا كان الرجل ذا حيثية فان المســحراتى لا يكتفى بالدعاء الموقع على الطبلة بل يضيف اليه أو يزيد عليه أغنيــة طويلة عريضة مسجوعة وقصة الاسراء والمعراج وقصص معجزات أخرى •• والطبلة أثناء هذا لا تلتقط أنفاسها بل تأخذ دورها بعد كل جملة بعد كل قافية هذا اذا كان ما يقوله مقفى كما يتوهم ولكنه فى الحقيقة ينطبق عليه ما قاله الأستاذ العقــاد فى الشـــعر الحر حين أطلق عليه جمـــلته الطريفة (ماذا عندهم من خوارق ومعان ولم يستوعبها الشعر المقفى متعللين بالشعب لا معنى ولا يحزنون •• قصـــارى الأمر أنهم ـ يقصد أدعياء الشعر ـ لا وزن لهم وهو شعب موزون) •

ومن طرائف المســحراتى التى يرويهــا الأثــرى المرحوم حسن عبد الوهاب فى كتابه (رمضان) قول المسحراتى :

اخـــلاق

ومن طرائف المســحراتى التى يرويهـــا الأثرى المرحوم حســن عبد الوهاب فى كتابه (رمضان) قول المسحراتى :

يا غفـــلان وحـــد ربك — وبالتقى عمـــر قلبـــك
ما يوم تقـــلق على رزقك — دا ربنـــا عالم بالحـــال
يارب قدرنا على الصـــوم — واحفظ ايماننا بين القــوم
وارزقنا يارب باللحم المفروم — أحسن يارب ماليش أسنان

وقوله :

أنا المسحر جيت أطبل لكم حافظ أساميكم صغير مع كبير
وفى كل ليلة لى على كل بيت اللى من الذمة خرج للفقـــير
ولى عدية عندكم كل عيد الكعك وكفوف الشريك والفطير
آجى أصحيكم وأنتم نيام وقت السحر عن كل خير غافلين

أحياكم المولى

أنا المسحر جيت معى طبـلتى وأحكى حكاية الفار وأقول قصته
وأحكى حكاية الفار وأقول ما جرى بينه وبين القط يوم وقعتــه
الفار جعل بيت الفقير مسكنه وكل يوم يسطى على مشـنته
وحرمه رغيف يخبزه ابن الحرام وآكل الحرام خلاه ملظلظ ســمين

ويظل يقص حكاية القط مع الفار الى أن وقع الفار بين مخالبه . ثم يختتم بقوله :

آدى جزاء من غرته شـهوته حتى هوت به فى مهاوى الهوان
وادى جزاء من راح بنفســه الى موته وخد له من عدوه الأمان
وادى جزاء من كان يصدق جميع ما يسمعه ويميـل لمدح اللسان
واختم حكايتى بالصــلاة والسلام على ابن رامه خاتم المرسلين
أحياكم المولى الى كل عــام وكل عام وأنتم بخير طيبين

كان المسحراتى لا يذكر النساء والبنات فى موال كل ليلة الا أن جدتى كانت تصر على أن يذكر اسمى ويدعو لى بل يطيل فى الدعاء .. كانت ترانى فى طفولتى قيمـــة كبيرة فى نظرها ولا أدرى كيف وكانت لا تتحرج أن تسوى بينى وبين الكبار وأنا طفلة ألهو .. بل تفرض هذا على من يخيط بها أو يتعامل معها حتى فى الترام أو الأتوبيس كانت تصر على أن آخذ كرسيا وعندما يبتسم الكمسرى تقول له وكأنها تفحمه اقطع لها تذكرة . والذى يحدث اننى كنت لا أبان من الكرسى . ولكننى بحكم التذكرة أقفز وأتقافز من الفرحة وأطل من النافذة وأحيانا أصف ما أرى وهكذا عرف أتوبيس القاهرة ، مبكرا مذيعة صغيرة . وتسمع جدتى وهى طروب لكل كلمة حتى ولو كانت غير ذات معنى شأن الأطفال .

وبالطبع كنت أفرح بهـذه العناية التى تخصنى بهـا وأفرح أكثر بترديد المسحراتى اسمى دون سائر أطفال الشارع وأقبلها تارة وأدعو

لها آنا وأمطرها بالأسئلة حينا وأثناء هذا تغمرني هي بأطايب رمضان من الطعام ٠

وكم لأهل القاهرة من قصص مع المسحراتي ٠ يروى ادوارد لين الذى عاش فى القاهرة في القرن التاسع عشر وكتب عنها كتابه الكبير ٠
The Manners and Customs of The Modern Egyptians.

أى أساليب وعادات المصريين المحدثين ٠ يحكي أن نساء الطبقة المتوسطة أى بنت البلد ٠ كانت النساء يعمدن الى وضع قطعة فضية من النقود فى ورقة تلقى بها احداهن من النافذة الى المسحراتي ولما كان الوقت ليلا والمسحراتي بالطبع لم يوهب عيون زرقاء اليمامة أو ليس صقرا حاد البصر فان السيدة تشعل الورقة ليرى المسحراتي مكان سقوطها فيستدل عليها وينقض عليها ويفضها ويأخذ القطعة الفضية يدسها فى جيبه ويرفع صوته بقراءة الفاتحة لصاحبتها ٠ وقد يكون منشرحا فيروى قصة قصيرة تمتع النساء ٠

ما أطعم بنت البلد وما أحفل رمضان القاهرة بالطرائف ٠

المسحراتي بعض زبائنه يطلبون اليه أن يمر قبيل الامساك أى قبيل الفجر ليذكرهم ان كان فاتهم الطعام فيتداركون ما فات وفى هذه الحالة يقرع المسحراتي على الطالب الباب ويأخذ فى النداء عليه حتى يجاب ٠٠ أما الضجة التى تحدث من قرع الأبواب فليست واردة فى ذهن المسحراتي أو من يطلب اليه هذا الفاصل من العزف المنفرد ٠

وعذر بعض الناس أن السحور عندهم يشكل الوجبة الرئيسية اذ يفضلون في الفطور غذاء خفيفا ويركزون على السحور ليقيهم النهار كله ٠ على كل حال الناس فى رمضان كل شيء تقبله : الضجة والصمت فرمضان كما تقول جدتى ضيف عزيز من السنة للسنة والضيف مكروم ٠

أنتقل الآن الى الآذان ٠ وهو من الأشياء الجميلة فى رمضان ٠ ففى رمضان يؤذن المؤذنون أذانا خاصا به قبل منتصف الليل يسمى آذان « الأبرار » وهذا الأذان قبل منتصف الليل بساعة وأحيانا بساعة ونصف أو بنصف ساعة فقط اذا كان الوقت صيفا الليل فيه قصير ٠

ويتكون هذا الآذان من الآيات الكريمة التى تضمها سورة : الانسان « ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا » عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ٠ يوفون بالنذر ويخافون يوما كان

شره مستطيرا • ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا • انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » •

هذا آذان ما قبل منتصف الليل أما الآذان الآخر الخاص برمضان فهو آذان بعد منتصف الليل بنصف ساعة ويسمى (السلام) وهو المجموعة من الصلوات على الرسول ، تشبه تلك التى تقرأ قبل صلاة الجمعة ، ولكنها ليست هى بالطبع •

كانت القاهرة تتمتع بهذه التقليديات والروحانيات يوم كانت المآذن تعلو على المنازل تتلألأ بالنور ، وينهل منها الآيات كالنور فترتاح من استرواح وطمأنينة •• ولكن القاهرة اليوم ، ترتفع فيها العمارات الحديثة ، وتمعن فى الارتقاء حتى تدانى السحاب •• ولم تعد العين تميز المئذنة من البيوت الا فى الأحياء الشعبية •• لا أريد أن أدخل الآن فى عشوائية البناء والتخطيط نحن فى رمضان •

وفى معرض الحديث عن الآذان أذكر آذان الفجر يؤذن قبل موعده بوقت كاف لتنبيه الغافل عن السحور ، رحمة وحنانا •• وهناك آذان آخر قبل الامساك • ولأمر ما •• تبدأ الفاتحة أم الكتاب ومثلها البسملة بصفة الرحمن الرحيم من دون سائر صفاته عز وجل وهى كثيرة لا يحصيها عد أو وصف وان قالوا تسعة وتسعين اسما صفة • انه تأكيد للرحمة وكان من المكمن أن يقول العظيم مثلا أو الجبار ولكنه اختار الرحمة دون سائر أسمائه الحسنى •

وقد تأدبت القاهرة بأدب القرآن واستنارت القاهرة المتحضرة الحاضرة سيرته واشتارت جناه فالأسماء فيها عبد الرحمن • عبد الرحيم •• عبد الودود ــ عبدالشكور ــ عبدالعليم •• عبدالسميع • عبد الغفار حين تسمى بلاد أخرى عبد الجبار •• عبد القهار •• بلاد كانت صاحبة حضارة أيضا ولكن الرحمة والسماحة أفق رفيع •• قد تتسم بالجهامة حضارة وقد تتسم حضارة أخرى بالسماحة والدماثة من رحمة تظلل الانسان والحياة • فاذا بها مستقرة وقريرة • وهكذا كانت حضارة مصر قبل الأديان • ولهذا عانقت مصدر الأديان واعتنقتها فى نقاء واخلاص بلغ حد الفداء فى موقعة الشهداء حين المسيحية وفى مواقع الصوارى وحطين وعين جالوت فى الاسلام فوق ما أهدته مصر فى السلم وأسدته فى العلم وأضفته فى الفن • مرة أخرى أقول انها وادى النيل ووادى الدين معا •

المرق والحلق والخلق :

كانت جـدتى كسائر سيدات جيلها تقسم رمضان أقساما ثلاثة : فتقول انه عشرة مرق وعشرة حلق وعشرة خلق وأسألها طفلة فى فضول ماذا تعنى ؟ فتقول ان الناس فى الأيام الأولى فى رمضان يعتنون بالطعـام تحية وحفاوة برمضان حتى اذا ألفوا المواعيد الجديدة وأصبحت عادية ، بدأ الناس يعدون العدة للكعك ، فاذا فرغوا منه فى أواخر الثلث الثانى من رمضان ، بدأوا يعدون العـدة للعيد فيشـترون الملابس الجديدة لأولاد الأسرة وهذا معنى :

عشرة مرق وعشرة حلق وعشرة خلق أى قماش وملابس ٠

لقد اعتنقت مصر الاسلام ولكنها فيه تمارس عاداتها القديمة حتى ولو لم يدر بعض النـــاس فعشرة المرق تذكرنى بحاملات القرابين من خير الأرض الطيبة الذى تحسر عليه اليهود بعد الخروج فقالوا كما جاء فى القرآن الكريم « لن نصبر على طعام وحد فادع ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفولها وعدسها وبصلها » ٠

أما عشرة الحلق فهو كعك العيد الذى تحتشد له البيوت المصرية دون سائر البلاد العربية بل ان المصريين يصرون على نقش الكعك بطريقة خاصة بمنقاش الكعك نقوشا خطوطا دائرية على شكل قرص الشمس هو النقش نفسه الذى صنعته ايزيس لابنها حوريس ٠٠ وأذكر فى طفولتى أن والدى جاء جـدتى بقالبين مختلفى النقش توضـع عجينة الكعكة فى القـالب وتضغط على موضع فيه فتخرج الكحكة منقوشة جاهزة وبسرعة وكان يظن أنه يسهل مهمتها وانها ستسر بالهدية ولكنها أخذت القالبين ودعت له ولأولاده اخوتى وأنا ثم ركنت القالبين وأخذت تنقش بالمنقاش ٠ تصنع قرص الشمس المعهود ٠

وكما كانت تزكى كل عمل أو قول لى ، أيدت بالطبع رأيهـا فى المنقاش وان كان السبب الدفين عندى أنها تشركنى فى هذه العملية المسلية فتعطينى الكعكة بعد تسويتها بيد وباليد الأخرى تعطينى منقاشا وتدعنى أنقش به على العجينة ٠ وكم كانت هذه العملية تمتعنى انها لعبة أخرى فى نظرى وأرسم رسوما مضحكة أحيانا ولكنها تتقبلها فى غبطة بل تمدحها فأسوق فيها ٠

ما أكرم رمضان وما أطيب جدتى ٠

ويقـال ان أكثر العهود عناية بالكعك ، الدولة الاخشـيدية التى أثر عن وزيرها أبى بكر محمد بن على المادرانى أنه عمـل كعكا حشـاه بالدنانير الذهبية أطلقوا عليه وقتئذ اسم (افطن له) أى حذر ... فذر فكان الجنيه . وهكذا كما يبـدو سبقتنا الدولة الاخشـيدية الى فوازير رمضان .

وكان للدولة الفاطمية طباخون لهم شهرة فى الكعك ورثتهم الدولة الأيوبية . ومن هؤلاء طباخة كانت تتفنن فيه حتى أطلق على كعكها (كعك حافظة) .

لقد تحدثت عن القوالب المنقوشة التى قدمهـا والدى الى جـدتى تيسيرا لها فى عمل الكعك وكيف ركنتها وأصرت على المنقاش ولكن هذه القوالب المنقوشة والمكتوبة ترجع هى الأخرى الى عهد بعيد . ففى متحف الفن الاسلامى قوالب منها يحتفظ بها المتحف . ومن الطريف أنه يكتب على بعضها كل هنيئا . كل واشكر . بالشكر تدوم النعم .

ونحن المصريين نتعاجب بالكعك ونتهادى به سواء فى القاهرة أو الريف ، وطالما حملتنى جدتى أطباقا الى جيرانها وأحبائها وتحفظنى السلام منها اليهم الذى كنت أبلغه مقرونا بكلمة (نينا تقول لك كل سنة وانتى طيبة) كما كان جيرانها يرسلون اليها بدورهم أطباقا محملة بالكعك فى عملية تبادل وتواد وكذلك يفعل أهل مصر والقاهرة وقبل زمن جـدتى بزمان فان محمد ابن السعودى الخياط وكان يسكن درب الأتراك بجوار الأزهر فى القرن الثامن الهجرى أو الرابع عشر الميلادى يقول انه جاءه فى عيد الفطر من الجيران أطباق كعك على عادة أهـل مصر ملأ بهـا زيرا كبيرا .

ووالد جـدتى نص فى وقفيتـه على توزيع الكعـك والفطـائر فى العيد على الفقراء والأيتام . وكانت حريصة على تنفيذ هذه الوصية حتى أنها كانت تصنع حلوى وكعك البيت فى يوم وفطائر وكعك الوقفة فى يوم آخر تمسكا بحرفية الوقفية .

وكثير من الوقفيات الأخرى كانت تنص على توزيع الكعك والفطائر ومنها وقفية الأميرة تتر الحجازية والتى نصت فيها على توزيع الكعك الناعم والخشن على موظفى مدرستها التى أنشأتها سنة ٧٤٨هـ ــ ١٣٤٨م .

كانت الأسر المصرية تستبقى فى الآخر قطعة من العجين فتعمـل لأطفالها كعكا خاصا لكل بنت عروسة ولكل ولد حصان . وكانت جدتى

تعمل عرائس من الكعك لا عروسا واحدة وأطلب منهـا حصانا أيضا فلا تمانع بل تلبى فى سرور • وهكذا أظفر فى العيد بما لم يظفر به طفل أو طفلة • ويبتسم الكبار حين يلمحون حرصى على تجنب الدسم من الطعام لأنهم يعرفون القصة •• وأنى شبعت طفلة الى ما فوق الامتلاء من يدى حبيبتى جدتى •

ويبدو أن قولنا « رمضان كريم » حقيقة ماثلة • فهو كريم جدا فى الليل على الأقل اذ أن قومنا يتهـادون أيضا بالقطايف والكنافة فضـلا عن الكعك •

القطايف :

وكما تعودت الأسر المصرية أن تهدى الكعك ، كانت تهدى القطايف • ومن طرائف الشعر فى هذا الباب ، قول ابن نباتة المصرى :

أقول وقد جاء الغـلام بصـحنه
عقيب طعام الفطر يا غاية المنى
بعيشـك قل لى جاء صحن قطايف
وبح باسم من أهوى ودعنى من الكنا

ويقول آخر : (المعلم المرصص)

وحقك ما أوليتنى من قطايف
ألذ وأحلى من وصال القطايف
وقد ضمنت مثـل العتاب حلاوة
ألم ترها ملفـوفة كالصحائف

ويقول الشاعر المصرى أبو الحسن الجزار فى خفة دم مصرية :

سقى الله أكناف الكنـافة بالقطر
وجاد عليها سكر دائم الدر
وتبـا لأوقات المخـلل انهـا
تمر بلا نفع وتحسب من عمرى

ويقول ابن نباته :

وعى الله نعماك التى من أقلها   قطائف من قطر النبات لها قطر
أمد لها كفى فأهتز فرحـــة   كما انتفض العصفور بلله القطر

ويقول سعد الدين بن عربى :

وقطايف مقرونة بكنـــافة   من فوقهن الســـكر المذرور
هاتيك تطربنى بنظم رائق   ويروقنى من هذه المنثور

ويقول أبو الحسن الجزار مرة أخرى :

تالله ما لثم المراشـــف   كـلا ولا ضـم المعـاطف
بألذ وقعـــا فى حشـــا   ى من الكنـافة والقطائف

ومن الطريف أن عالمنا جلال الدين السيوطى له رسالة طريفة عنوانها (منهل اللطايف فى الكنافة والقطايف) أنه حدث فى القرن العاشر الهجرى أن ارتفعت أسعار الحلوى فرفع المصريون شكاة منظومة الى المحتسب وكأن النثر لا يؤدى ! ولكنها الفكاهة المصرية التقليدية · ماذا تقول هـــذه الشكوى الظريفة ؟ ·

لقد جاد بالبركات فضـل زماننـا   بأنـواع حلوى نشرها يتضـــوع
حكتها شـــفاه الغانيات حـــلاوة   ألم ترنى من طعمها لست أشبع
فلا عيب فيهـــا غير أن محبها   يبـــدد فيها ماله ويضـــيع
فكم ست حسن مع أصابع زينب   بهـا كل ما تهـوى النفوس مجمع
وكم كعكة تحكى أساور فضة   وكم عقدة حلت بها البسط أجمع
وكم قد حلا فى مصر من قاهرية   كذاك المشـبك وصـله ليس بقطع
وفى ثوبه المنفوش جاء برونق   فيا حبذا أنواره حين تسطع
وقد صرت فى وصـــف القطايف   هائما ترانى لأبواب الكنافة أقرع
فيا قاضيا بالله محتســبا عســى   ترخص لنا الحلوى نطيب ونرتع

فانوس رمضان :

تكلمت عن الكنافة والقطايف فى الشعر ·

وهى ليست وحدها التى حظيت بتسجيل · لقد تكلمت عن فوانيس الأطفال · ولكن الكبار أيضا لهم فانوس ، هو **فانوس السحور** · وكان يعلق على المنارات مضاء حتى السحور ، ثم يطفأ ايذانا بالامساك ·

فانوس السحور هذا تبارى الأدباء والشعراء فى وصفه فواحد يقول :

أحبب بفانوس غدا صاعدا وضوؤه دان من العين
يقضى بصوم وبفطر معا فقد حوى وصف الهلالين

وأنشد ابن ظافر :

ألست ترى شخص المنار وعوده عليه لفانوس السحور لهيب
تراه يراعى الصبح ليلا فان دنا طلوع صباح حان منه غروب
فهل كان يرعاها لعشق ففراذ درى أن رومى الصباح قريب

ولمح آخر الخنساء قائلا :

هذا لواء سحور يستضاء به وعسكر الشهب فى الظلماء جرار
والصائمون جميعا يهتدون به كأنه علم فى رأسه نار

ويقول ابن نفطويه :

نصبوا لواء للسحور وأوقدوا فى رأسه نارا لمن يترصد
فكأنه سبابة قد قمعت ذهبا وقامت فى الدجى تتشهد

وأفرح بالفانوس الملون صغيره ، وأقرأ الأدب العربى كبيرة ، ويستقر هذا كله فى أعماقى وأرعاه تحية لهذا الشعب الذى نمانى وتحية للقاهرة فكلما جاء رمضان حرصت على الفانوس الملون يتوسط مائدتى وأشعل فيه الشمعة ويبدو فى عينى أبهى نورا من النجفة الكبيرة التى تتدلى من السقف فوقه .. ويقول الفانوس ويروى بغير حروف .. ويفهم عنه، مثلى ، ضيوفى ، وان لم يقدر هذا أولادى الذين يرقبون ما يجرى فى صمت تأدبا وهم معذورون فلم تعرف طفولتهم الفانوس كما عرفته ، ولم يسمعوا فى الزمالك التى ولدوا بها ، المسحراتى ، الذى سمعته فى أحياء القاهرة الشعبية ولكنهم الآن ، ألفوه ، ودخل فى وجدانهم فهم لا يسمعون منى الا حديثا عن مصر والقاهرة فاذا شرعت فى اعداد المائدة خفوا الى الفانوس فجاءوا به ووضعوه وسط المائدة تقليدا رمضانيا فى بيتنا يتنفس طيب مصر وعرف القاهرة ، ويطوفون معى أوربا ثم يعودون أشد تمسكا بمصر وأشد تعلقا بالقاهرة .

الحوانيت فى رمضان :

كان سوق الشماعين فى النحاسين يستعد استعدادا كبيرا لمقدم

رمضـــان فتعلق على وجهـات الحوانيت وأمامها وعلى جوانبهـــا فوانيس ، وشموع مختلفة الأحجام أكبرها حجما ووزنا شموع المواكب الكبيرة ٠

والحوانيت في رمضان تظل مفتوحة الى ساعة متأخرة من الليل ٠ أما سوق السكرية فكان البدالون أى أصحاب البقالة يفرشون على أبواب محالهم الياميش وقمر الدين وكانت رخيصة السعر فى متناول الجميع ٠٠ حتى كانت تقدم للضيوف فى رمضان للتفكه والتســلية بل كانت تبدر على الأطفال الذين يسيرون فى زفة بالفوانيس ٠

في رمضان الحوانيت مفتوحة والبيوت الأنوار فيها ، ساهرة والقراءات ذاكره سارية ٠٠ وكان الصيام أشد حرمة يحرص عليه الجميع ، بل يشجع عليه الأطفال فى المدارس والبيوت حتى المفطر لسبب يستتر فلا يجاهر بالفطر والا لحقته نظرات الزراية حتى من الأطفال الذين كانوا ما يكادون يبصرون مفطرا حتى يعلو صياحهم ٠

يا فاطر رمضان يا خاسر دينك ٠

ومن الطريف أن الحكومة كانت تعاقب موظفيها الفاطرين بغير عذر شرعى ، بل كان اخوتنا الأقباط لا يأكلون خارج بيوتهم فى نهـــار رمضان احتراما لشهر رمضان ورعاية لشعور المسلمين الصائمين ٠

وكانت المطاعم تغلق أبوابها فى رمضـــــان وتنتهز الفرصة فتقوم بعملية تجديد وتنظيف ٠ وكانت المقاهى تغلق نهارا لتسهر الليل كله حتى مطلع الفجر ٠

كان رمضان شهرا جامعا وممتعا ٠٠ شهر الصيام والقيام والاطعام بل الاغداق فيه على المعوزين ٠ كان شهر التسبيح والترويح والتفاريح ٠٠ كان شهر القراءات والابتهالات والطيبات ٠

كانت المساجد الكبيرة فى القاهرة ، مرادا وموردا فى رمضـــــان كان كل منها لؤلؤة فى جوف الليــل ٠ كانت تمتلىء بقاصديهـــا ٠٠٠ انها بيوت لله يذكر فيها اسمه ويرفع ذكره ويتقرب اليه بالصــدقات ٠٠٠ بالعطاء والصفاء ٠٠٠ بالعلم ٠٠٠ بالاستماع ٠

وتزدحم القاهرة بعد الفطور بعد أن تكون الشوارع قد أقفرت من الســــائرين قبل مدفع الافطار ٠ كان الامـــام الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة والسيدة سكينة والامام الشـافعى والامام الليثى مزارا ودارا ومنارا ٠٠ وتعتز العواصم الاســلامية بأحد أبناء السلالة الطاهرة وتعتز القاهرة بصفوة أهل البيت ٠

ويطلق أهلها عليها مصر المحروسة ويحفظون عن النبى عليه السلام قوله (مصر كنانة الله في أرضــه من أرادها بسوء قصمه الله) وفى قول (من أرادها بسوء آكبه الله على وجهه •)

وفى كل مرة تعلو مصر المحنة ويزول الشر عنها •

وفى كل مرة يسلم لنا وجه القاهرة •

فســـتان العيد :

نحن الآن فى العشرة الأخيرة من رمضان • أتذكرون ما رويتــه عن تقســيم جــدتي للشهر : عشرة مرق وعشرة حلق وعشرة خلق ••• أى ملابس جديدة لأطفال الأسرة • وهنا أقول ان جدتي كانت تتحفنى بفستان جميل جاهز من عمر أفندى وحذاء جديد وشراب أبيض قصير ولا يتجاوز هذا كله جنيهين • ويأتى دور الشرايط الملونة وكان البائع يقترح عليها أن تأخذ مترا ونصفا تقسمه للضفيرتين نسيت أن أقول انها كانت تربى جسمى ، وتربى شعرى ، وتزهو بأنه صار على يديها ضفيرتين طويلتين. وتربى نفسى يوم عهدت به الى قريبها شيخ مشايخ القراء لتحفيظى القرآن الكريم •

كانت تصر على أن يقطع البائع مترين لكل ضـــفيرة متر لتصنع لى فيونكات كبيرة • كان حبهــا لى يتبدى فى كل تصرف من أصغر الأشــياء الى أكبر الأشياء • نبع حنان هى لا يزال يتدفق فى قلبى حتى بعد طول الغيــاب •

وكلما دفعت ابنتى غاليا فى ثوب لها أو حذاء أتذكر فســــــاتينى الجاهزة التى كانت تشــــتريها لى جدتى بقروش •• وتكاد ابنتاى لا تصدقان لولا دماثة التهذيب •

والصحف التى تنشر أخبار المجتمع والمال والأعمال فى الخمسينات أو الأربعينات أو ما بعدهما أو ما قبلهما تتحدث عن أسعار زهيدة متواضعة لأشياء تعد ثمينة فى أيامنــا هذه بمقاييسنا ••• وأدعوهما الى قراءتهــا من باب الدعابة أو الطرافة كالذى نشرته مجلة الأهرام الاقتصــــادى فى عددها الصادر ٥ يوليو سنة ١٩٨٢ من مثل فســـتان مشجر سعره الأصلى ٤٨ قرشا مخفضا الى ٢٧ قرشا • وتضحك البنتان •

ويكر شريط الذكريات فأتذكر توحيش رمضـــــان حين يتغنى المسحراتى بالوحشة لشهر رمضان فيسرى الشجن منه الى الأتقياء • كان المسحراتى يقول (لا أوحش الله منك يا شـــهر الصيام ، لا أوحش الله

منك يا شهر القيام ، لا أوحش الله منك يا شهر الولائم ، لا أوحش الله منك يا شهر العزائم ، لا أوحش الله منك يا شهر الكرم والجود) ٠

ويسمع توحيش رمضان أيضا من المآذن وفى ساحات القراء ، وخير ليالى رمضـــان ليلة القدر التى ينعقد الاجماع على أنها بدء نزول القرآن ومن أصـــدق من الله قيلا) ٠ « انا أنزلنــاه فى ليـــلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ٠ ليلة القدر خير من ألف شهر ٠ تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر » ٠

ومن أجل ليلة القدر المباركة ، يعكف كثيرون على العبادة والتهجد ٠ فى العشرة الأخيرة من رمضان ، لأن الأقوال تباينت فى تحديدها بين ٢١ أو ٢٣ أو ٢٥ أو ٢٧ أو ٢٩ فلتكن كلها أو بعضها انها ليلة من العشر الأخيرة يستجاب فيها الدعاء ويتحقق الرجاء بل يصير الماء المالح عذبا فجـــأة فى رأى بعض المؤمنين ٠٠٠

انها ليلة القدر ٠٠ طوبى للموعود ٠

الثلث الأخير من رمضان :

تحدثت عن النصف الأول من رمضـــان بكل لوازمه وتقليدياته ، أو عن الثلثين الأول والثانى منه ، والأخير يقع فيـــه احتفالان هامان كانت القاهرة تحتشد : ليلة النصف من رمضان وفيها كانت القاهرة تقيم حفلة نيلية تشترك فيها الزوارق والبواخر المزينة بالأنوار فما يكاد يمضى يومان حتى يحل ١٧ رمضان فتحتفل القاهرة فى جميع المساجد بذكرى ليـــلة بدر ٠٠٠ ان ذاكرة مصر لا تخطىء يومـــا من أيام الاسلام المشهودة حتى تلك الأيام الباكرة عليها أقصـــد على اســـلامها وان كانت بقيمها القديمة أقرب ما تكون الى مثل الاسلام ومعطياته ٠ ولأمر ما وجدت فيها الأديان من الاســـتجابة والفهم والنفاذ ما لم تجد فى غيرها لا يستثنى بلد أو جيل أو قبيل ٠

كان المفروض أن أحكى حياتى فى القاهرة ولكنى فى حضرة القاهرة نسيت نفسى طويلا وطافت الحكاوى والغناوى من قلبى للقاهرة ٠٠٠ تحدثت عن القاهرة فى حياتى ولم أتحدث عن حياتى فى القاهرة ولكنى فى رمضـــــان أقابل نفسى ٠٠ أكتب أؤلف ٠٠ أقرأ ٠٠ أعيـــد تنظيـــم خطوطى ٠

وفى رمضان أقابل الصفوة من العلماء والأدباء ٠ وفى رمضان زارلى

الأستاذ الزيات ، والأثرى حسن عبد الوهاب ٠ وفى رمضان زارنى زكريا أحمد ورامى وأمضوا عندى جلسات خصبة عن تاريخ مصر الفنى ٠٠ وفى رمضان زارنى كثير من صفوة البلاد العربيــة وان كانوا زارونى فى غير رمضان ، ولكن ميزة رمضان أنه يمد فى المجلس ويطيب فيه الحديث ٠

ماذا دار فى زيـارات رمضــان ٠٠ ماذا قال بيرم وزكريا ٠٠ ماذا قص رامى وروى وأنشد ٠٠ ماذا قال لى الســنباطى يوم طلب بنفسه زيارتى وهو العازف عن الزيارات واللقاءات ٠

ليالى جميلة وكريمة تقترن عندى برمضان ٠

وينتهى رمضان وما انتهت ذكرياته عندى ٠٠ هذا الشهر الخصب الذى أراه موسمى للكتابة ٠٠ لقد ألفت فى رمضان كتابا عشت أتمنى كتابته على امتداد ســنوات ولكن التركيز والتعميق ، كانا دائما فى رمضان ٠٠ وقد اعتدت حين أفرغ من كتاب ، أن أطويه عن المطبعة وقتا ٠٠ أعود اليه ، بعده ، أقرؤه بعين القارىء المستريح لا المؤلف المرهق فى الكتابة أو حتى غداة الكتابة ٠٠ وأعدل وأبدل وأحذف وأضيف ٠ انه القلق المشحون الذى يحســه الكاتب المسئول أمام الله وضــميره والناس ٠

فى رمضان كتبت أعز كتبى ٠٠ كتابا عن عبقرية الاسلام وأسمح لنفسى بذكره بل الافصاح عن اسمه لأن هذا الكتاب نفـد ، بل أنه أصلا طبع للعالم الاسلامى ولم ينزل السوق المصرية فى الطبعة الأولى ثم نزل فى طبعة ثانية وسار ٠

رمضان شهر الصوم والعبادات ، لم أكتب هذا الكتاب من زاويــة الطقوس أو النصوص على كرامتها عنــدى وأدائى والتزامى بها ولكنى كتبته من رؤية حضارية يعظم بها الاسلام عندى وعند الانسان فى كل مكان بل عند المنصفين من أبناء الأديان الأخرى وان لم يعتنقوه ٠

كيف كان الاسلام ثورة ثقافية واعية بالخلفية الروحية للوجود ٠٠ تلك الخلفية التى غابت عن الوعى المعاصر ٠٠ ثورة ثقافية حين ربط الانسان بالكون الرحيب ولم يحصره فى ركن واحــد تحت اسم العلم أو المـادة ٠

فالثقافة ليست التخصص لأنه اذا اقتصر ، انغلاق أو جمود عنـد نقطة واحدة ضيقة ٠٠ ولكن الثقافة هى كيف الحيــاة فى مجموعهــا ٠٠

هي انسانيتها • وهنا نفهم عبارة « والله ولى التوفيق » أى يعطى الاستفادة والنماء مما تحصله الحواس فتسمع العين وترى الأذن • ان الأخذ الرشيد عطاء كامل ، كالنحل يأخذ رحيقا ويعطى شهدا •

بكل صفاء رمضان يصفو الانسان ويصغو الى حديث نفسه ، وفى رمضان أقابل نفسى •

وأقابل فى بيتى الصفوة من أهل العلم والأدب والفن • وكم هؤلاء من لطائف وطرائف •

دعونا مرة الشاعر أحمد رامى على الافطار •• وكان على المائدة حمام فلما انطلق مدفع الافطار قال رامى : الآن لا جناح •

وبعد الافطار يأخذ رامى فى حديث الذكريات •• حديث أشهى من أى طعام يتحدث عن طفولته فى (كتاب الشيخ رزق) وأعلامنا جميعا عرفوا حياة الكتاب وفيه حفظوا الكتاب الكريم • ويتحدث رامى عن بيته وأسرته بين مسجد السلطان الحنفى وجامع الشيخ صالح أبى حديد مجاورا لبيت أسرة شوقى المشهور الى الآن ببيت الموردلى • وكيف أن هذه البيئة الشعبية الحافلة بالتراتيل والأناشيد وتسابيح الفجر تصعدها الى السماء فى هدأة الكون ، مآذن ــ المساجد المحيطة بالبيت ، طبعت نفسه على التوقيع والترجيع والتنغيم فكان يسعى الى الغناء بأية وسيلة ويحكي لنا أنه كان يتعرف الى « بائعى اللب » ليقف منهم على مغانى الأفراح • وكم ذهب اليها من غير دعوة •• ومتى •• فى الحادية عشرة مساء حيث يتجلى المغني ويحلو معه السهر •

ويستمع أحمد الصبى ، ثم أحمد رامى الشاعر ، الى الغناء فى شطح واستغراق • وله معرفة بالصناعة واجادة اذا غنى •

كان المغنون يعرفون فيه « سميعا فيقربونه ، ومنهم فى صباه يوسف المنيلاوى وعبد الحى حلمى ، وفى شبابه داود حسنى ، وأبو العلا محمد ، وابراهيم شفيق ، وصالح عبد الحى ، ثم سيد درويش كما سمع منيرة المهدية • كل هذا وهو طالب لا يزال بالمدرسة الخديوية ومدرسة المعلمين •

ويسترسل رامى فيقول انه وهو طالب لم يشغله تحصيل العلم عن الفن • ومن طرائفه فى هذا الباب أنه كان يقف فى مناحات الخميس ويبكى حتى العصر !! وكان يهيم وراء البائعين المتغنين فى الشوارع والحارات حتى لقد مشى يوما وراء عربة جميز من بيته فى حى السيدة زينب حتى بولاق • (١)

---

(١) كتاب (أحمد رامى قصة شاعر وأغنية) للدكتورة نعمات أحمد فؤاد

والشعب المصرى يحب الغناء حتى أن الباعة المتجولين ينادون على سلعتهم فى تنغيم وتطريب .

وكان رامى وهو مدرس يخرج عن موضوع الدرس ويلقن تلاميذه أناشيده الشعرية بعد أن يلحنها لهم ، على غرار بعض الأغانى الشائعة .. ومن فصله .. ومن تلاميذه ينتشر النشيد فى المدرسة كلها ... بل فى أحيائهم التى تقع بيوتهم فيها ... يفعل هذا حتى فى حصص الديانة .

وهو لا ينظم الا اذا سمع موسيقى أو غناء ، واذا نظم لا يكتب شعره ، بل يغنيه ترنيما . ولعل هذا سر ليونة لفظه وطواعيته .

وللشعراء عادات تغيب عنا نحن القراء ونحن مسحورون بالقصيدة . شوقى يزعم أنه ضعيف النظر فيسعى ويأخذ مكانه فى الصفوف الأمامية وهناك يترنم به (ويدندنه) . وفى الاستراحة يقابل (رامى ويسمعه شعره) .

وهنا أقول ان شوقى أعجب برامى واختصه ، وكان يطيب له أن يدعوه الى بيته فى حفلاته ، وأن يرافقه فى خلواته خارجة ... وكان رامى يروق له أن يلقى شعر شوقى فى الأندية . وتوثقت الأسباب بينهما حتى أن (شوقى) كان يسمع (رامى) شعره قبل اخراجه للناس .

وتشاء الأقدار أن تجمع بينهما فى الشعر كما جمعت بينهما فى الحياة . فحين سافر رامى سنة ١٩٢٣ الى باريس فى بعثة علمية ، كان شوقى يزور فرنسا كل صيف فيلم به رامى .. وفى سنة ١٩٢٤ عاد رامى من فرنسا وعرف أم كلثوم ولازمها . حين لازم عبد الوهاب (شوقى) فالتقى الشاعران عن طريق الغناء فقدم شوقى (بلبل حيران) و (فى الليل لما خلى) حين قدم رامى (ان كنت أسامح وأنسى الأسية) و (أخذت صوتك من روحى) . والتقيا مرة أخرى عن طريق المسرح ، اذ قدم شوقى للمسرح المصرى مسرحيته (مجنون ليلى) ، وقدم رامى مسرحيته (غرام الشعراء) . ومثلت المسرحيتين ، السيدة فاطمة رشدى .

وكثيرا ما ضمهما على الوداد ، نادى الموسيقى الشرقى .

ويحكى لنا رامى ، قصة عمره ... قصة أم كلثوم .. قصة غنية ونقية معا .. وهى أكبر من صفحات معدودة لقد كتبتها فى كتاب يربو على خمسمائة صفحة وفى نفسى مزيد .

لقد سافرت مرة فى رحلة على امتداد شاطىء البحر الأحمر . وكان على الباخرة الشاعر أحمد رامى واتصل من جديد حديثنا عن أم كلثوم حبيبتنا كلنا على امتداد الساحة العربية كلها .

سألته مرة : ألم يحدث أن أحببت غيرها ؟ سألته كمن يطمئن على شيء كبير ٠٠ كبير ٠٠ وطال انتظارى للجواب ، على لهفتي وخوفي ٠٠٠ حتى هتفت به : قل لا ٠٠٠

اشتهيت أن يقول لا ولكنه قال نعم ! ٠٠ وتركنى ذاهلة مبهوتة لحظات ٠

وفتح رامى عينيه بعد أن كان أسبلهما طويلا ثم ابتسم وقال :

كنت فى كل مرة أكتشف سريعا أننى أحب فى الأخرى سمار أم كلثوم أو عينيها أو يديها ٠٠٠ شيئا منها ٠٠ جزءا ٠٠ فأدرك السر وأعود أكثر ولعا الى المنبع ٠٠ هى الكل ٠٠ الكل فى الكل ٠٠ انها سومه ويقر وجيبى ٠

ثم حاولت أن أسأله : وهل أحبتك هى هذا الحب كله ؟ ولعل الشاعر صادف مثل هذا السؤال كثيرا فى طريقه فهو يقول :

أرادونى على أنى أبوح ... وهل يتكلم القلب الجريح
وماذا يبتغون وفى فؤادى ... جوى أفضى به الدمع الفصيح
نعم أهوى ولا أخفى غرامى ... ومن شرف الهوى أنى صريح
وأما ان سئلت هل اصطفتنى ... سكت فما استرحت ما أريح
ومن لى أن أقول تعلقتنى ... وقاب الغانيات مدى فسيح
تلاقينى فتخلص بى نجيا ... وألمس حبها فيما يلوح
وتزدحم القلوب على هواها ... فتنكرنى ولى كبد قريح

ويلمح اشفاقى فيقول لقد غنت لى وحدى خمسة وثلاثين عاما

وقفت ترسل الغناء فأنت ... بلسانى ونوحت فى غناها
وشجاها ما رجعت من نسيبى ... وشجانى من صوتها ما شجاها
فاحتواها الشجا وراحت تغنى ... « يا هناه » فى هجرها ورضاها
يا هنائى شقيت بالهجر حتى ... وصلتنى وزال عنى جفاها
يا شقائى نعمت بالقرب حتى ... حرمتنى الأيام طيب لقاها

وحرمتنا الأيام معه طيب لقاها وبتنا نتعزى بطيب غناها الذى يقف فى حياتنا الفنية ، قمة وحده حتى بعد الغياب ٠

بيرم التونسى

تحدثت عن شاعرنا أحمد رامى ٠٠ أطياف ذكريات ٠ وكان يزورنى فى رمضان من أعلام الأدب والفن الأستاذ بيرم التونسى ، والفنان العظيم زكريا أحمد ٠

أتحدث عن بيرم التونسى وكل زجـال فى مصر أفاد من بيرم حتى من يكبرونه سنا • واذا ذكر بيرم ذكرت قصـيدته الشهيرة « المجلس البلدى » وكم كان يحلو له أن يقولها وزكريا يستحثه • وفى هذه القصيدة يسخر من رسوم بلديات المدن وان كان يعنى بها مجلس بلدى الاسكندرية فى صباه :

قد أوقع القلب فى الأشجان والكمد
هوى حبيب يسمى المجلس البلدى

ما شرد النوم عن جفنى القريح سوى
طيف الخيال خيال المجلس البلدى

اذا الرغيف أتى فالنصف آكله
والنصف اتركه للمجلس البلدى

ولم أذق طعم قدر كنت طابخها
الا اذا ذاق قبلى المجلس البلدى

ولا كسوت عيالى فى الشتاء ولا
فى الصيف الا كسوت المجلس البلدى

أقول حتى اذا ما فى الطريق أرى
قرشين ذا لى وذا للمجلس البلدى

كأن أمى بل الله تربتها
أوصت فقالت أخوك المجلس البلدى

هل دامت الرسل بين العاشقين كما
تدور بينى وبين المجلس البلدى

أمشى فأكتم أنفاسى مخافة أن
يعدها عامل للمجلس البلدى

وان جلست فجيبى لست أتركه
خوف اللصوص وخوف المجلس البلدى

الأرض والناس والأنعام أجمعها
الكل ليس لغير المجلس البلدى

حتى قبور الالى ماتوا اذا نبشت
فليس الا بفأس المجلس البلدى

يا بائع الفجـل بالمليـم واحـــدة
كم للعيـــال وكـم للمجلس البلدى

أخشى الزواج وأخشى أن ينافسـنى
على العروس صديقى المجلس البلدى
وربمــا وهب الرحمن لى ولــدا
فى بطنهــا يدعيــه المجلس البلدى

أقســمت لا أدخل الجنــات ، عن ثقــة
فى الحشر ان كان فيها المجلس البلدى

وقد كان لهذه القصيدة دوى امتد صداه عشرات الأعوام بعد نظمها ، ولا تزال علامة فى أدب بيرم لا يخطئها دارس له ·

ويطلب الشيخ زكريا الى بيرم المقامة السندوتشية فيتربع بيرم على أريكة عندى يفضل الجلوس عليها والاتكاء الى مسندها ويقول وعين زكريا تلتهم الكلام فى اعجاب لا يلبث أن يصبح استغراقا فى الضحك ·

اليكم طرفا من مقامة بيرم السندوتشية ·

(قال صاحبى شفيق أفندى ، وجعل يسهر كل ليلة عندى · وشفيق هذا لا يحب الشيوخ الا انه يحترمنى ويمسح لى جوخ لأنى أشرح له معنى الكلام ولبابه ، وأكشف بالنحو خطأه وصوابه ·

جاءنى شفيق ذات يوم يقول : قم فاستنشط ، ودقنك فمشط ، وأظافرك فقمع ، وحـذاءك فلمع ، وجبتك فالبس ، وعمتــك فاكبس فسآخذك الى حفلة راقصة ، وليلة أنس هائصة لتعرف مجارى المياه ، وترى كيف تكون الحياة · قلت ماكنا من أهل النقص ، حتى نذهب الى حفلة رقص ، أو ترقص انت أيضا ؟ قال وأفيض فيضا · فقمت فلبست جبتى التى لونهــا كمونى ، وقفطــانى الذى أرضـيته خضراء وخطوطه زيتونى · وتعطرت من القـــدم الى الدماغ ، وركبنا عربة بخمسة عشر قرش صاغ · فلما وصلنا الى الحارة ، لم نجد على المنزل دليلا ولا اشارة ·

ولكن بيرم ما لبث أن وجد البيت ووصف الحفلة والمائدة وصفــا رائقا فائقا وكاركاتيريا أيضا ··

ويحكى لنا بيرم عائدا بذكرياته الى سنة ١٩١٩ حين أصدر (المسلة) بدون رخصة · التسمية أعزائى القراء لها مدلولها لقد كان بيرم متعلقا بمصر تعلقا شديدا ويؤلمه أن ننسبه الى غيرها بحكم الجذور البعيدة ·· كان دائما يقول لى : بعد كل هذا تظلمونى وتقولون بيرم التونسى · ومن تعلقه بمصر ، انغماسه فى الأحياء الشعبية وتعبيره عنها ·

ومن تعلقه بمصر كتابته بالعامية المصرية التى اعتبرها العربية المصرية واجادته فيها الى حد البراعة البارعة حتى كان شوقى أمير الشعراء يقول (لا أخشى على الفصحى الا من بيرم) وهو اعتراف له قيمته بأنه يبز الفصحاء ·

يقول عنه الأستاذ العقاد :

كانت آية الآيات فى بيرم أنه كان يفهم السريرة الناطقة بالعربية من بواطنها الخفية قبل أن يحكيها بلهجاتها الكثيرة على الألسنة أو الأقلام) ·

أعود الى ذكريات بيرم والى مجلة المسلة ·

لقد أصدر منها ستة أعداد ثم نفى وأخذ يراسل مجلة (الشباب) ·
كان يكتب أزجالها وأشعارها وصورها الوصفية فكانت متعة ومدرسة ·
وصاحبها محمد عبد العزيز الصدر (توفى سنة ١٩٥٨) ·

مدرسة للشباب المصرى ·

وأكبر راوية لبيرم الشاعر حمام الذى كان يملأ المجالس بأشعار بيرم وأزجاله ومقاماته وسخرياته حتى لم يبق من كبار الأدباء ورجال المجتمع الا من عشق بيرم ·

وبيرم مصور ، وصور بيرم هى فن الكاريكاتير القلمى :

هذه صورة لها نظائر ، يصف فيها بيرم لبان الحى :

لباننا لا رعاه الله ذو ورع   يبيعنا الماء لم يخلطه بلبن

ومن روائع بيرم تقليده للشعراء وفى مقدمتهم شوقى :

قلد الشاعر أحمد شوقى حين يرثى ، على هذه الصورة :

أحد الفرقرين بالأمس طاحا   ويحه ألهم السما النواحا
سمعت نعيه البرية خالت   أن ميكال بالبرية طاحا

وقلد حافظا حين يرثى ـ كذلك ـ فقال :

صدرنا نهار الروع عن قبر مصطفى   كأنا يتامى ينشدون المواسيا

وقلد محمد الهوارى فقال :

زلزلة اليابان جاءت بلا أوان
فهلك العباد لكن نجا الميكادو

ويشتد ضحك زكريا حين يسمع تقليد بيرم للشاعر البدوى الشيخ محمد عبد المطلب ونسمع وسط الضحك صوت زكريا « قول يا خويا » ويقول بيرم :

اذا بعبعت أو جعجعت يـــومـــا   تحعمصت الخـلائق أجمعـــونا

وقلده متحدثا عن زلزال :

واهـــا لربـــع قـــام يستبكى   متبعجص الجنبـــات منـــدك

وقلد شعر المنفلوطى على أنه يصف التليفون قال :

يا يراعى أســـعد يمينى وانظم   فى التليفـون هـذه الأشـــعارا
وتوخ الســـهل المنيع وحـادر   أن تـرى يا يراعنـــا مهـــذارا
هـذه آلـة التكلـم دقت :   فتغنت وحـــــركت أوتـــارا

ويغرق زكريا فى الضحك ونحن معـه ، ويغرق خيـــال بيرم فى الوصف مقلدا أعلام عصره ·

قلد بيرم المرحوم الشيخ ابراهيم سليمان وهو أحد خطباء ثورة ١٩١٩ وشعرائها فنظم على لسانه فى وصف التلغراف كما فلد الشيخ الهاشمى يصف الأنوار الكهربائية وقلد « بقيت » ·· بصف الترام ·

وما وصف هؤلاء ولكنه خيال الفنان بيرم التونسى ···

يصف بيرم الأنوار الكهربائية متقمصا شخصية الشـــيخ الهاشمى صاحب كتاب (جواهر الأدب) ·

بشرى فقد وصف الأستاذ ما عرفا   شمس الكهارب فى أفق العلا طلعا
تضى فى الليل والعداد يحسبهـا   الساعتـان بمليـم فواعجبـــا
لها كذلك زر شـأنه عجب   يضيئها الزر طـرا كلمـا انفتحا

اما صورة الترام التى رسمها بيرم بأسلوب الشيخ بخيت فهى :

ان ارتكانا عـلى لوح من الخشـــب
لم يبق شخصا من الاشخاص فى تعب
لله هذا تـرام حـين تركبـــه
نستغنى حقا عن الأفراس والنجب
ان الترام عجيب حين يخـرج منـه
شبرا فكالوت فالميـــدان فالعتب

(يقصد كلوت بك) أى العتبة الخضراء

وهكذا طلع بيرم على الحياة الأدبية بالجديد النابض الجذاب حتى الأوزان جدد فيها · لقد اخترع بيرم أوزانا فى الزجل · ومن ابتكاراته الزجل الرباعى فى هذه الصورة الرائعة من صور بيرم ·

فى كل عام للورد أوان	الا النسوان
بقـدرتك نابتين ألـــوان	أبيض وأحمر
وانت اللى تعلم وأنا أجهل	فيه ايه أجمـل
من الخدود اللى لا تدبل	ولا تتيغـــير
ودى العيون اللى أشهد لك	بها واسجد لك
دى خلت الطاغى انقـادلك	والمتــــكبر
والشـــفتين اللى فالقهـــم	كنت خالقهـم
للابتســـــام ولا رازقهـــم	دا انت تحـير
لـــك قـــوالب للأجسـام	غلب الرســام
يقـلدك بحجـــر ورخام	يلقاك اشـطر
بـــذمتى يـا جـــاذبنى	يــا معـــذبنى
ويـــاللى ذوقـــك يعجبنى	لمــا تصــور

وهكذا يصنع أو يبدع الفنان ويصور ولكنه الى جانب روائع الله فى الخلق يحار أمام المصور الأعظم الخالق البارىء ومن أحسن من الله صبغة ·

حكى لى بيرم فى زياراته أن الترام فى أول ظهـــوره فى شـــوارع الاسكندرية كان حدثا أو أعجوبة فى عين الناس الذين كانوا يتنـــاقلون أخباره وحوادثه أيضا ·· ويلعب الخيال الشعبى دوره فى حكايات ضحايا الترام ممن دهسهم أو كهربهم ·· أما الظرفاء فقـــد أخرجوا لســـانهم للعربجية أصحاب الحناطير فى أغنية تقول :

الكهربائية الكهربائية	عطلت ع العربجية

ولكن عربجية الكارو اقتصوا لزملائهم عربجيـــة الحنطـــور فكانوا لا يحلو لهم السير الا على طريق الترام أى بين القضيبين ولا عليهم أن يكون هنـــاك ترام وراءهم أو أمامهم أو كمسارى يصرخ أو تصيح زمارته فيهم · ويحكى بيرم أنه كان جالسا على عربة كارو مع أطفـــال آخرين فى صحبة أمهاتهم متجهين الى حى « الأنفوشى الشعبى » · وكانت العربة الكارو التى يركبونها تسـير على القضـــبان معترضة تراما ضخما مهولا وزمارة

الكمسارى التى ترفع عقيرتهـا أشـد هولا ٠٠ ولكن صاحب العربة الكارو لايبالى كمن يتحدى ٠ وفزعت النساء والأطفال وصرخت الأصوات من الفزع القاتل ٠ من الطريف قول بيرم : أن بعض النسوة كن يتوسلن الى العربجي:

يبارك لك يابنى تقول له يحود ٠٠ قل للترماى يروح من ناحية تانية ٠

الترام هو الذى (يحود) لا العربجى ٠

وبعد لأى أو جهد اذعن العربجي مضطرا وهو يرغى ويزبد ويلعن أسرة سائق الترام واحدا واحدا بدءا بالآباء وانتهاء الى الأجداد ٠

ويظل بيرم ساعات يتنقل بالذكريات من الأنفوشى الى مسجد المرسى أبى العباس وكيف يثق الناس فى بركته وكيف أن الرجـال يطوفون به ملتمسين البركات ٠ أما النساء فيملأن من الميضة القلل لأبنائهن المرضى بالحصبة والتيفود وكان الأخير فى ذلك الوقت مرضا خطيرا ولكن المرسى أبا العباس في نظر سـيدات الاسكندرية سره باتع فماؤه يشفى جميع الأمراض ٠ ويعلق بيرم : وماؤه أى ماء حنفياته من ماء ترعة المحمودية ، ولكنه الوجدان المصرى الدينى والأنيس ، فكل بلد له شيخ يؤنسه ويريحه ويلتمس عنده البركات ٠٠ مع اعتقاد مصر الراسخ والأصيل فى الله الواحد الذى لا خير الا خيره ولا اله غيره جلت صفاته ليس له كفوا أحد ٠

أحاول أن أقفل ذكريات بيرم لأنها عندى بحر ، ولكنى أريد أن أنتقل الى غيرها من الذكريات ذكـرياتى وذكريات من عرفتهم من أعـلام مصر والقاهرة ٠ دعنا من حى السيالة وفيه الكتاب الذى تردد عليه بيرم طفلا ٠٠ لقد عاش بيرم فى مختلف البيئات وعرف كافة الأوساط حتى لم يترك شيئا الا وصفه أقصـد صوره فى سخرية ضاحكة ولكنه الضحك المندى بالدموع ٠٠ وانى لأحفظ عن ظهر قلب حتى قبـل أن يزورنى ويغدو لأسرتى صديقا ، لوحته : (فى الطريق) ٠

أربع عساكر جبابرة يفتحوا برلين
ساحبين بتاعة حلاوة جايه من شربين
شايله على كتفها عيل عنيه وارمين
والصاج على مخها يرقص شمال ويمين
ايه الحكاية يابيه ؟ خالفت الجوانين !
اشمعنى مليون حرامى فى البلد سارحين

ولكن زكريا الفنان يعدو هذا كله ويطلب الى بيرم لوحة أخرى ٠٠ لوحة الغناء وينطلق بيرم وكأن زكريا لمس منه وترا حساسا ؟

طلعت موضة غصون وبلابل شابط فيها حزين
شاكى وباكى وقال مش عارف يشكى ويبكى لمين
واللى جابت له الداء والكافيه ، طرشه ماهش سامعاه
ياأهل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله
ردى عليه ياطيور بينادى ، وارمى له الجناحين
وانت كمان يابابور الوادى ، قل له رايح على فين
قل له اياك يرتاح يا بابور ، ويريحنا معاه
ياأهل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله
حافظين عشرة اتناشر كلمة نقل من الجورنال
شوق وحنين وأمل وأمانى وصدوتيه ودلال
واللى تعاد يتزاد ياخوانا وليل ونهار هواه
ياأهل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله

أه لو امتد العمر ببيرم وشهد موضة أخرى وبيله وهي موضة الكاسيت وقد سبق أن تكلمت عنها فلا حاجة بى الى الاعادة ٠

دخل مرة بيرم وكانت ليلة حفلة أم كلثوم ووجدنى مستغرقة أستمع اليها فى أغنية (عودت عينى على رؤياك) وبعد أن انتهت الوصلة جلست معه أحلل أداءها فى استغراق أشد ٠٠ واذا بى أرى بيرم يتميز غيظا وهو يقول : انى ، فنانا ، أقدم روائع فلا أجد بعض هذا الاستغراق أو لمحة منه فأنقل الحديث فى محبة الى قصته مع أم كلثوم وهنا يشتد عتابه على رامى لا عليها ٠ كان يقول مهما عملت لا أستطيع مغاضبتها ٠ ما حيلتى وعندها شاعر يقدم لها القصائد مجانا فى ولاء وفناء ؟

وأسأله هل فكرت أن تعطى مثلا رائعة (شمس الأصيل) لأى صوت آخر من الرجال أو النساء فيقول : مستحيل ٠٠ ولو عاد بى العمر لا أعطى غيرها مختارا ٠ ان أداءها يكتب للشاعر الخلود ٠٠ انها « أم كلثوم » ٠

زكريا أحمد :

دعونى أروى لكم ذكرياتى عن الفنان العظيم زكريا أحمد وكان

لنا صديقا . كان زكريا يحدثنا كأننا أطفاله وهو الأب الحانى . جعبته مليئة بالحكايات ، وكنا نستمع له فى شغف واستمراء . وكان يحس هذا منا زوجي وأنا . فيعود بنا الى السنبلاوين حيث دعاه سنة ١٩٢٠ التاجر (على أبو العينين) الى احياء ليالى رمضان بتلاوة آى الذكر الحكيم .. وكان الفنان زكريا شيخا مقرئا .. وهو سر نفاذه الى أعماق اللفظ والمعنى وارتفاع ألحانه وتحليقها تحليقا .. واشترط تاجر السنبلاوين على الشيخ زكريا أن .. يغنى أيضا بعد تلاوة القرآن .

وافق الشيخ زكريا على الشرط وبدأت سهرات رمضان .. وما هى الا بضعة أيام حتى أسرو اليه أن في جعبتهم له مفاجأة عظيمة .. ولم يطل تساؤله فقد أخبروه أنهم اكتشفوا فى البلد المجاورة لهم أجمل صوت سمعوه . ولم يطل انتظاره فقد حضرت الفتاة أو أحضروها على الأصبع . ودخلت الصغيرة ذات العقال تتعثر فى خطواتها من تهيب وحياء يلفه الخوف ومعها شيخ صغير يلبس الطقم كاملا .. الجبة والقفطان والعمامة .. ولعل هذا (التكامل) في الزى الوقور أكسب الفتى ثقة فى نفسه جعلته يتقدم أخته فى اعتداد كمن يرسم لها خطواتها .

ولكن عين زكريا الفنان وقعت على الفتاة دون أخيها فأجلسها الى جواره ، وأخذ ينفض عنها خوفها بالحديث الحانى . فاذا بالريفية المتلعثمة الخطوات طليقة اللسان والعقل والصوت ، واذا بحديثها منور من الذكاء ولطافة الروح . وما لبثت أن غنت فتم لها الاستيلاء على الشيخ زكريا الذى يقول :

(ومنذ ليلتها وأنا أصم لا أسمع الا صوتها ، أبكم لا أتحدث الا باسمها ... لقد أصبحت مفتونا بها وأقول مفتونا ، لأننى أحببتها حب الفنان للحب الخالد . تمنى العثور عليه دهرا طويلا .

لست بحاجة الى أن أقول ان الفتاة الخفيفة اللطيفة الذكية الموهوبة ، هى الصغيرة أم كلثوم فى مطلع حياتها .

دعا زكريا الصغيرة أم كلثوم طيلة شهر رمضان فلبت جريا وراء القصائد والأغانى التى يغنيها وتطرب لها ، والتى كثيرا ما كان يحاول تحفيظها لها كما دعته الى زيارتها بقريتها « طماى الزهايره » ويحكى لنا الشيخ زكريا ، ويبرم ويسمع ، معنا طرائف أول زيارة لأم كلثوم في قريتها ويتصل الحديث ويسهر معنا الليل طروبا مثلنا .

مضينا مع الفنان زكريا أحمد الى قرية طماى الزهايره حيث دعته الصغيرة أم كلثوم الى زيارتها . يقول زكريا : لبيت الدعوة وتناولت

الطعام على طبلية جلسنا حولها على كليم لا أزال أذكر لونه أحمر على أسود ونهشنا أوزة كاملة ثم لعبنا عشرة كوتشينة • ومنذ يومئذ اخذت أم كلثوم وشقيقها يحضرون لسماعى كل يوم فى سراى أبى العينين • ومما أذكره أن المرحوم الشيخ خالد لم يبد اعجابه بصوتى • ولكن الذى أعجبه منى أننى (الفقى) الوحيد في مصر اللى عنده عشرة أزواج من الأحذية •

ومن الطريف أن الشيخ زكريا ظل يردد بعد أن اشتهرا معا ثم تقاضيا :

(أم كلثوم لها عندى وزه ولى عندها ٤٠٫٠٠٠ جنيه) والحقيقة أن حقه كان عند الاذاعة ، لا عندها وتسأله عن عمر أم كلثوم فى ذلك العهد فيقول :

كانت أم كلثوم سنة ١٩٢٠ صبية لم تتجاوز بعد طور الحداثة حتى ليترضاها زكريا بمص القصب معها ، ويلاعبها الورق على الطبلية فقد كانت لا يستهويها شيء كالموسيقى والمرح •

يقول زكريا أنه عاد الى القاهرة بعد أن انتهت ليالى رمضان مخلفا أم كلثوم بطماى الزهايره ولكنها بلقانه الفطرة كانت حريصة على هذه الفرصة الفنية التى أتاحها الله له فقد أخذت تراسله • ويصف لنا زكريا خطاباتها الأولى في ذلك الحين بأنها كانت تحمل عبارات ساذجة مكتوبة بحبر أخضر يذكرنى بالخضرة والصوت الحسن ، وكانت خطاباتها تدفعنى دائما الى القيام بالدعاية لها هنا من حيث لا أدرى ولا تدرى •

أما أول رسالة كتبها لها فلم تكن فى مثل عقوبة رسائلها • كانت رسالة لها مضمون محدد الغرض فقد طلب اليه صديق تاجسر احياء فرح له فكتب لها فلبت دعوته • ومن الطريف ان الأجر المتفق عليه كأن ثمانية جنيهات وهو الرقم الذى ارتفع اليه أجرها سنة ١٩١٩ عند ما ارتفعت أسعار القطن رفعها الشيخ زكريا بعد الحفلة الى عشرة •• وقد دعا الى تلك السهرة المرحومين الشيخ محمود والشيخ أحمد ندا فأمنا على ذوقه ورأيه •

ويحكى زكريا ولم يكن الصلح قد تم بينهما بعد ـ أنه عشق صوت الصغيرة أم كلثوم فكان يهديها ألحانه واندفع بملء حماسته يدعو لها ويشيد بها ويقيم لها الحفلات الغنائية في الحسين مرباه وجعل الدخول بتذاكر • وأغراه نجاحها باعادة الكرة فى نادى الشبيبة •

ويقول زكريا ان أم كلثوم في ذلك الوقت تقدم اليها الخطاب ومن بينهم العمدة الثرى والتاجر الملىء وكثيرون • غير أنها لم يفلح معها الثراء والاغراء بكل ألوانه •• لقد اختارت •• اختارت الفن •

ويقول ان الاشتغال بالفن كان يأتى لأصحابه صدفة حتى الموهوبين ، الصدفة وحدها هى التى كشفت عن مواهبهم • وكان من الجائز أن تظل مخبوءة لا يدرى بها أحد ، ولا الأيام •

ومن طرائف الصدف أن أسندت الى الشيخ زكريا الطيب السمح دورا تمثيليا بعيدا كل البعد عن الطيبة (فى بدء عهد مصر بالسينما) • وكان يتندر برواية هذه القصة فى مجالسه كلها • يقول الشيخ زكريا (اتفقت مع مدير انتاج — فيلم انشودة الفؤاد على أربعمائة جنيه مقابل الألحان وبعد أن فرغت منها ، وذهبت أطالب بالمبلغ ، وكان هذا أقبل بدء التصوير ، فوجئت بالمنتج يقدم لى أربعمائة قرش صاغ فثرت وهجمت عليه أريد ان أطبق فى زمارة رقبته) وكدت أفتك به •• وتصادف ان كان مخرج الفيلم موجودا ولاحظ علامات الشر فى وجهى فأصر على أن أقوم أنا بدور البطل الثانى فى الفيلم) •

ومن الطريف أيضا أن فيلم أنشودة الفؤاد هذا قصة وضع حوارها وأغانيها الأستاذ عباس محمود العقاد •

ومن طرائف زكريا والانسان التى رواها لنا ، فى احدى زياراته الرمضانية ، أنه عاد يوما الى بيته فاذا ببائعة فجل ترجوه أن يشترى منها •• فاشترى زكريا المشنة كاملة وأنقدها جنيهين •

ولم تصدق المرأة المسكينة عينيها الا بعد أن حمل المشنة وسار بها فأخذت تدعو له •• ويسمع دعاءها فتترقرق عيناه • ولكنه ما ان دخل البيت حتى انزعجت زوجته ماذا تصنع بمشنة فجل فقال لها زكريا : تصرفى وزعيه على جيرانك ولكنى لا أستطيع أن أترك المسكينة تمضى اليوم كله تبيع الفجل واحدة واحدة وتشقى • انها عاطفة الفنان •

ومن طرائفه ما يرويه من أن عبده الحامولى ومحمد عثمان ، فى وقت ظهورهما ، كان اذا ظهر فى الأفق صوت جديد يقوم كل منهما بامتحانه امتحانا عسيرا فيطلب اليه أحدهما أن يغنى موالا من عدة نغمات ثم يؤديه على (الواحدة) ثم توشيحا من ضرب معين ، فاذا اجتاز هذا الامتحان لبس (حزام) الطرب وأصبح مطربا •

ويقول انه لمعت فى الربع الأول من القرن العشرين أسماء : كامل

الخلعى ومحمود رحمى وكان ٠٠ أستاذ فن التوشيح وداود حسنى صاحب (لحن المراكبية) و (ليلة فى العمر) وغيرهما ٠

والدكتور صبرى النجريدى ومن العوادين (على أحمد صادق) وكان مشهورا بكثرة محفوظه من البشارف والموشحات والسماعيات التى أخذها سماعا من كامل الخلعى ودرويش الحريرى دون أن ٠٠ يستعين أثناء العزف بالنوتة ٠

ومن عازفى العود محمد عبد الله بك رشيد ٠

ومن هواة العازفين على الكمان مصطفى ممتاز ٠

ومن عازفى القانون الهواة محمود رأفت ٠

ومن المطربين والملحنين سيد مرسى ومحمود صبيح الذى كانت نوادره أشهر من أعماله الفنية ٠

ومن المطربين عبد الحى حلمى الذى كان زكريا يستمع الى اسطواناته حتى يضبطه أبوه متلبسا بالطرب فى نظره ، فيلهب ظهره بالسياط ليصرفه الى حفظ القرآن ٠ ان القرآن الكريم لايمثل فقط بلاغة اللغة العربية ولكنه يحوى موسيقاها أيضا وتطريبها وكل ما فى جرسها من رنين ٠ هذا اذا قرىء قراءة ٠ فأما اذا رتل ترتيلا فهو يضم الى موسيقى الأسلوب الكثير من الأنغام الشرقية ٠

وقد كان زكريا فى سنته الأخيرة يريد أن يضع له ترتيلا جديدا ليضم الى مجموعة أنغامه باقى الأنغام الشيقة ٠

نعم حفظ الشيخ زكريا القرآن ٠٠ ولكنه مضى فى عشقه للفن والنغم الجميل ، ولعل حفظه للقرآن هو الذى عمق فى نفسه حب التنغيم ٠ نسى زكريا العلقة وقدم بداية ألحانه سنة ١٩٢٤ فاذا بالشعب يستقبلها استقبالا حفيا ٠ بل ان زكريا وضع ما بين سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٣٠ بضع مئات من الألحان ٠٠ المسرحية وعاش جمهور المسرح سنوات ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ فى فيض هذه الألحان وتسيد زكريا فن الطقطوقة خاصة وهو اللون المصرى الصميم بين الأدوار التركية والموشحات الأندلسية والأوبرات الأوربية ٠

كم كانت خصبة ممتعة جلسات الفنان العظيم زكريا أحمد ٠٠ لا تزال الذكريات تنهل ٠

يقول الشيخ زكريا فيما رواه لنا ، كان فنانو الشام يسعون الى القاهرة يأخذون عنها أغانيها وألحانها ويعيشون عليها بعد عودتهم الى

بلادهم ، حتى اذا بليت من الاستعمال ، سعوا من جديد الى .. القاهرة .

ويؤيد هذا ما قرأته في مجلة (المسلمون) العدد ٣٥ الصادر في ٤ رمضان سنة ١٤٠٢هـ ٢٥/٦/٨٢ من ذكريات الشيخ علي الطنطاوي الكاتب السوري الكبير .

يقول حين دعي في شبابه الى زيارة مصر (انكم لا تدرون ماذا أثارت هذه الدعوة في نفسي من مشاعر وفي ذهني من خواطر) .

كانت مصر في خيالنا يومئذ دنيا مسحورة ، فيها العجائب ، وكل مرغوب فيه يأتينا منها ، المجلات والصحف والحركات الفكرية والوطنية . فيها الرجال الذي نقرأ لهم والشعراء الذين نحفظ شعرهم منهما ، وكان تخيل ذهابي اليها ، أكبر من أن يمر وصفه من شق القلم والتعبير عنه مهما كان بليغا لا يبلغ حقيقته .

وكنت أسمع أن الأحرار من أرباب الأقلام ، ومن عشاق الحرية يؤمون مصر : أستاذ محمد كرد علي ومن قبله شيخ مشايخنا السيد رشيد رضا ، ومن بعده خالي وأستاذي محب الدين الخطيب ، يأتون من كل مكان من (المغرب من الجزائر من تونس من ليبيا) .

حتى اذا وصل اليها ... (حتى اذا قيل : هذه مصر ورأيت محطة باب الحديد ، رأيت شيئا عظيما كان فوق ما كنت أتخيل) .

الصالونات الأدبية

الصالونات الأدبية

كانت القاهرة فى طفولتى عاصمة مصر ثم عاصمة الثقافة والفن والأدب ـ كانت صحفها تضم كل صحيفة صفحة يومية للأدب وكان بالقاهرة سبع ـ مجلات للثقافة منها « الرسـالة » للأستاذ الزيات « والثقافة » للدكتور أحمد أمين و « المجلة الجديدة » لسلامة موسى » ، و « الجديد » للمرصفى ، و « العصور » لاسماعيل مظهر و « الفصول » لزكى عبد القادر و « المعـرفة » لعبد العزيز الاسلامبولى و « البيان » للشيخ البرقوقى و « عكاظ » ٠

وكان فى القاهرة جمعيات أدبية ، وكان فيها صالونات أدبية وفكرية منها صالون تيمور ولكن أشهرها صالون عبد الرازق الذى أنشأه عميد عائلة عبد الرازق الشيخ مصـطفى عبد الرازق ، والذى كان أستاذا بالجامعتين جامعة القاهرة والجامع الأزهر بل كان شيخا للأزهر واماما أكبر للمسلمين ٠

كان الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذا فى الجامعة وأستاذا رائدا فى صالونه الأدبى ، وأستاذا وهو شيخ الأزهر وأستاذا وهو وزير ٠٠ فقد كان ، وزيرا ، يشرف على الرسائل الجامعيـة التى بدأها قبل توليه الوزارة ٠

انه ابن التقاليد ، وبيتـه فى المنيـا فى الذؤابة من بيوتاتها شرفا ومحتـدا ٠

وفي صالون آل عبد الرازق تألف أول فرع عربي لنادى القلم الدولي ، بل كانت مؤتمرات النادى الدولي تعقد في بيت عبد الرازق .

وكان الشـيخ مصطفى عبد الرازق دوحة وارفة الظلال تفيأها الحران ــ واللاغب وشادى الأدب وشاعر القوافى . بل كان صالونه يكرم النابغين منهم ، وأحد هؤلاء الذين كرمهم صالون عبد الرازق ، الشاعر الشعبي محمود أبو الوفا بل توج تكريمه له بارساله في رحلة الى باريس .

وكان صالون عبد الرازق مهوى الأساتذة والأعلام من رجال الفكر ــ والفلسفة يتناقشون ويتحاورون ويخططون لمستقبل القاهرة الفكرى والثقافي .

كان من رواد هذا الصالون أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد ، والدكتور طه حسين ، والدكتور محمد حسنين هيكل ، والدكتور عبد الرحمن بدوى ــ وقاسم أمين .

وفي هذا الصالون ولدت مجلة « السفور » وولدت الفكرة الى تحرير المرأة ووضع لطفي السيد كتاب (الأخلاق عند أرسطو) ، ووضع كتاب (ثورة الأدب) . للدكتور هيكل و (خطرات نفس) للدكتور منصور فهمي وكتاب (في الأدب الجاهلي) للدكتور طه حسين وكلها هزت القاهرة وفجرت مناقشات تعنف وتهدأ ولكنها في الحالين خصبة ممتعة باقية .

وفي صالون عبد الرازق ولدت فكرة الاعتزاز بالشرق فنشأت « الرابطة الشرقية » أى التى تضم أبناء آسيا وأفريقية .

طويل طويل يروق ويشوق موضوع صالونات القاهرة .

***

« صالون مى » :

من الصالونات الثقافية الأدبية في القاهرة ، « صالون مى » .

ولم يكن صالون مى ، الصالون النسائى الوحيد فى مصر فقد كان هناك صالون الأميرة نازلى فاضل ... ولكن الأخير كان صالونا أرستقراطيا للخاصة من أهل المال والفكر وكانت السياسة وأحاديث الاصلاح الاجتماعى تغلب عليه ... فقد كان من رواده الشيخ محمد

عبده وقاسم أمين ، وسعد زغلول ومحمد المويلحى وحسن عبد الرازق •

أما صالون « مى » فكان للأدب والثقافة والفكر ما يدور فيه ، سجالا بين رواده من الأدباء والشعراء ••• وكانت ، مى ، أدبية تعشق الفن شعرا ونثرا وغناء وموسيقى •

وكانت سافره فى عصر ، طابعه ، الحجاب ••• حتى لقد كانت الأديبتان اللتان ظهرتا قبل ، مى ، تكتبان من وراء حجاب وأعنى بهما ، عائشة التيمورية ، وباحثة البادية ، ملك حفنى ناصف •

وكان صالون مى يعقد يوم الثلاثاء من كل أسبوع ••• وقد دخل هذا اليوم تاريخ الأدب العربى الحديث فقد كان يوما مرموقا مشوقا عند رواد صالونها ، بل سجله فى ، الشعر ، الشاعر المصرى ؛ اسماعيل صبرى فى بيتيه •

روحى على بعض الحى حائمة ... كظامىء الطير ، تواقا الى الماء
ان لم أمتع بمى ناظرى ، غدا ... أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

وكان الشاعر اسماعيل صبرى لا يتخلف فى هذا اليوم عن الصالون وصاحبته الا لعلة مانعة حتى ليقول :

وأستغفر الله من لحظة ... من العمر لم تلقنى فيك ، صبا

و « مى » الأديبة ، ريحانة هذا الصالون ، عاشت حياتها فى القرن التاسع عشر الذى ولدت على مشارفه فى فلسطين سنة ١٨٩٠ ثم انتقلت مع والديها الى لبنان ثم جاءت مصر معهما قبيل الحرب العالمية الأولى فكانت مصر موطنها الثانى وميلادها الثانى فى الوقت نفسه أو ميلادها الحقيقى ••• بما أتاحته لها من أسباب الازدهار الأدبى وما قابلته ، على أرضها من الصفوة الأعلام مما غذى طموحها ، وأمد ، له ، فطرح ونجح وتألق •

كان اسمها الأصلى « مارى زيادة » فاقتصرت كما يقول أستاذنا الزيات من اسمها الأعجمى على طرفيه ليكون منهما اسمها العربى « مى » (١) •

وكان صالونها فى شارع عدلى ثم انتقلت الى عمارة الأهرام ، القديمة •

كتاب (وحى الرسالة) المجلد الثانى ص ٣٠٨ ـ ٣١١ •

وكان يتردد على صالونها الشعراء والأدباء بل القضاة فقد كان شيخهم عبد العزيز فهمى باشا من رواد الصالون وان لم يشارك فيه ٠

كان يلتقى فى هذا الصالون ، المحافظون والمجددون ٠٠٠ اللغويون مثل شيخ العروبة أحمد زكى ــ والصحفيون ، والنظراء والغرماء ٠٠٠ وعلى ما كان بينهم الا أنهم فى صالونهـا يتركون خلافاتهم عند الباب ٠ وتهـدأ المعارك ويرق العنف ، وتشـف الخصومات ، وكأنهـا آضت الى قرار ٠

وقد كتبت مى ، وكتب الكاتبون عن مى ٠٠٠ فهى « هند » فى قصة « سارة » للأستاذ العقاد ، وهى المقصـودة بكتاب الرافعى : (أوراق الورد) ، (رسائل الأحزان) ، (السحاب الأحمر) ٠

وكان لمى وصالون مى فى أدب العصر آثار وسمات : يقول الأستاذ الزيات (ألهمت صبرى وأوهمت الرافعى ، وألهبت جبران ، ثم أخرجت من سواد المداد صورا مختلفة الألوان متنوعة الأفنان ، أضافت الى ذخائر الفكر الانسانى ، ثورة) ٠

وعاش صالون « مى » نحو ثلاثين عاما ثم انفض السامر ، وتفرق السمار ٠٠٠

ولم يبق الا القاهرة :

القاهرة الجميلة والعبقرية معـا ٠٠٠ وقلما يجتمع الجمـال والعبقرية ٠

أما أن القاهرة جميلة فهذا لا يمترى فيه أحد ٠٠٠ أما أنها عبقرية فدليل هـذا ، وبعد عطائها فى العلم والأدب والفن ، أنهـا لا تعترف الا بالمستويات الرفيعة فى هذا كله ٠٠٠

يقول الدكتور زكى مبارك :

(فى كل بلد من بلاد الشرق يستطيع الرجل الوسط أن يعيش لأن الدنيا فى بلاد الشرق لا تزال تتسـع للأوسـاط من الرجال ٠٠٠ أما مصر فليس فيها للرجل الوسط مكان ٠٠٠

العالم الوسط لا يستطيع العيش ٠

والأديب الوسط لا يجد الرزق ٠

والمغنى الوسط يضيع ٠

والطبيب الوسط لا يجد ثمن الدواء حين يمرض ·

والصحفي الوسط لا يملك الوصول الى حيز صغير ·

والممثل الوسط قد لا يجد الفرصة لشهود رواية صغيرة فضلا · عن القدرة على الاشتراك فى التمثيل ·

القاهرة تقول فى كل وقت : كن قاهريا ·

أليست القاهرة هى التى فرضت الخمول على مئات من الشعراء لأنهم لم يكونوا فى عبقرية شوقى وحافظ وصبرى ومطران ؟

أليست القاهرة هى التى فرضت الخمول على مئات من الكتاب لأنهم لم يكونوا فى عظمة محمد عبده وعلى يوسف وعبد العزيز جاويش ومصطفى المنفلوطى ومحمد المويلحى ·

القاهرة لا تتسع أبدا الغير الأفذاذ الذين يغلبون الزمان) ·

والحقيقة أن القاهرة الكريمة لا ترد أحدا فهى تتسع أيضا لغير الأفذاذ ولكن على أن يعيشوا فى الظل ··· وليس ذنبها ·



وفى القاهرة عرفت المجامع الأدبية ·· وفى القاهرة ارتدت المعارض الفنية ، وتزاوج فى نفسى الأدب والفنون ··· غدت فى حياتى ، صحبة ··· واصطبغت كتاباتى ، بالتعدد من تعدد اهتماماتى ··· وهى نعمة أحمد الله عليها ··· ومن الرزق ما يفوق المال بلا حدود ، كالموهبة ·· انها حظ عظيم وثراء عريض ·

ومن المواهب بهجة الرؤية ·· وفن التذوق ·

وفى القاهرة التقيت بقمم رفيعة الذرى ···

رأيت العقاد ولطفى السيد وأم كلثوم وطه حسين وأحمد حسن الزيات ومحمود تيمور وعبد الوهاب عزام ورامي وبيرم التونسى وزكريا أحمد والسنباطى ···

رأيت محمد حسين هيكل ورأيت حسين فوزى ·

رأيت من رجال السياسة والدبلوماسية محمود فوزى ·

بلا ألقاب سجلت هذه الأسماء لأنها أكبر من الألقاب ·· كل الألقاب ··· أكبر كثيرا ···

زرتهم وزاروني في بيتي وأنا لم أتجاوز بعد ، في ذلك الوقت ، مرحلة الشباب وحللت من نفوسهم مكانة كنت أنا نفسي أغبط نفسي عليها ٠٠ كان الزيات يدعوني : ابنته ٠٠ وكان يطلب الى ان أناديه : بابا ٠٠٠ كان يقول : انه لم يرزق في حياته بنتا ولكنه وجدها كما يتمنى أن تكون ٠٠٠ وكم كان قوله هذا يغنيني ويشجيني ٠٠٠ كان ، أبا ، يقلق اذا مرضت ، ويقلق أكثر اذا ولدت ، حتى اذا زال عني رهقي ، كان أول الداخلين الى حجرتي ٠٠٠ كان يفرح اذا كتبت ، ويسعد اذا تفوقت ، ويفخر اذا تقدمت الصفوف ٠

ومن الطريف أن الأستاذ الزيات حين كان يصدر مجلة الرسالة حال سكرتيره بيني وبينه علي الرغم من وجود موعد سابق ٠٠٠ والقصة تبدأ حين كنت طالبة بالسنة الأولى بكلية الآداب جامعة القاهرة ٠ كنت أكتب أبحاثا نقدية في الأدب وأرسلها الى مجلة الرسالة التي يرأسها أحد كتابي الأثيرين الذين كنت أقرأ لهم منذ كنت في العاشرة من عمري ٠

وكنت على طراءة السن ، فرحة سعيدة بانتسابي الى كلية الآداب أيام كانت كلية الآداب باعلامها المرموقين ومواقفهم المرموقة الشامخة في الحياة المصرية لا الأدبية فحسب ٠٠٠ وكنت أترجم اعتزازي بهـا في امضائي الذي أقرنه دائما باسمها ٠

وكانت مقالاتي وأبحاثي في هذه السن الغضـة تنشر في مجلة الرسالة بعناية ظاهرة ٠٠٠ وعرفت فيما بعد أن الأستاذ الزيات ومعاونيه في المجلة كانوا يحسبونني أستاذة في كلية الآداب لا طالبة قياسا على هذه الأبحاث ٠٠٠ وشجعني هذا على أن أطلب لقـاء الأستاذ الزيات وما كاد صوتي يصله عبر أسلاك التليفون أو (المسرة) كما يريد المجمع أو الهاتف كما يقول اخواننا في سوريا حتى جاءني صوته مرحبا متهللا وبسرعة حدد لي موعدا ٠

وذهبت في الموعد بعد أن احتشدت طالبة السنة الأولى ، له فاذا بالسكرتير وقد رآني فتاة صغيرة ، يتطوع بالحيلولة بيني وبين لقائه ، متعللا بتعللات سكرتيري المكاتب الكبيرة ٠٠ أتراه حسب اني أنتحل شخصية الكاتبة الجديدة وليست هي التي تقف أمامه ؟ أرجح هذا ٠٠ أو هو بالطبع ٠

ومضى على هذه الواقعة أربع سـنوات وتخرجت من كلية الآداب وملأت الصحف والمجلات والحياة الأدبية كتابة ونشرا ٠٠ ومن هذا المقال الذي نشرته سنة ١٩٥٦ بعد تأميم القناة بعنوان (من أجل هذا يحاربوننا).

فاذا بالأستاذ الزيات يرد فى الصحيفة نفسها ـ الشعب ـ مسترسلا فى المعنى مستهلا كل فقرة من فقراته :

(وكما قلت فى مقالك الأدبى الجميل يا سيدة نعمات •••) •

ولم ألبث أن طرق باب بيتى عصر ذلك اليوم طارق •• وأفتح الباب فاذا بى وجها لوجه أمام سكرتيره الذى صدنى عنه منذ بضع سنوات ، يطلب تحديد موعد ليزورنى من ؟

الأستاذ الزيات ! !

وابتسم لى القدر •••

واتصلت الأسباب •

وكان الأستاذ العقاد يلقى الناس يوم الجمعة من كل أسبوع وبينهم صفوة من الأدباء والمفكرين ونخبة من مريديه وتلاميذه وكان يلقانى وحدى كل سبت من الخامسة الى التاسعة مساء ••• ويلغى مواعيده فى هذا اليوم من أجلى يحدثنى حديث الأدب والفن والسياسة •

كنت فى ذلك الوقت حديثة التخرج أحضر رسالة الماجستير عن المازنى رفيق عمره وصديقه على امتداد أربعين عاما لم يكدر صفاءهما كدر ، أو يشب علاقتهما طائف ينال •

وكان أستاذ الجيل لطفى السيد يطلب من ممرضته أن تدعه معنا زوجى وأنا وترجىء طلباتها فيما يتعلق بصحته حتى الدواء والعشاء كان يرجئهما على الرغم من الحاحنا عليه بتعاطيه •

ومن الطريف أنه أهدى الى يوما كتابه (صفحات مطوية) وكتب فى الاهداء « الى صديقتى » ••• ثم استدرك فى خفة روح أو كمن يستدرك وقد نظر الى زوجى ، وأضاف كلمة (الشابة) أى الى صديقتى الشابة •••

كم سعدت وكم سمعت وكم تعلمت وكم رأيت وكم وعيت وكم أثريت الثراء الذى يرتفع كثيرا على الأرصدة والمكاسب والأرباح مما يشغل عباد المال •

ويسألوننى فى برامج الاذاعة وفى لقاءات الصحافة فيما يسألونه عن مولدى فأقول المنيا أم التوحيد وأم تل العمارنة حيث أرسل العظيم اخناتون سبحاته •• المنيا التى كرمت المرأة الى الحد الذى اتخذت معه « نفرتيتى » شعارا لها ••• المنيا المعطاء على مسار التاريخ •

ولكن اذا كانت المنيا التى أعتد بها ، وأعتز بأمجادها ، مسقط الرأس ، فان القاهرة ، بعد سنوات ، مرفع الرأس ٠

فى المنيا ميلادى الأول وفى القاهرة ميلادى الثانى ٠

فى المنيا نشأت وفى القاهرة شـــببت وتعلمت وكتبت وتزوجت وأنجبت وحققت ذاتى بألوان من الأمومة ليس آخرها بنوة الأبناء ٠

شريط طويل حافل حياتى فى القاهرة ، والقاهرة فى حياتى ٠ وكم يطيب لى الحديث المفصل عمن ذكرت من الصفوة الأعلام لولا أنى كتبت عن « الأدباء » منهم كتابة مستفيضة فى كتابى (قمم أدبية) وكتبت عن « الشعراء » فى كتابى (خصــائص الشعر الحديث) وكتبت عن أعــلام الفن الموســيقى ، فى كتــابى (أم كلثــوم وعصر من الفن) وكتبت عن التشكيليين فى كتابى « فكر ــ أدب ــ فن ــ سياسة) الذى أترقب مولده ولهذا اكتفيت بلمحات منهم اقتضاها السياق فى قصتى مع القاهرة مكتفية بما جاء فى كتبى الأخرى من تحليل متوسع بل أفردت لبعض هذه الأسماء النوابغ ، كتـــابا مستقلا لكل منهم مثل : العقاد ــ المازنى ــ رامى ــ أم كلثــوم ٠

قالوا عن القاهرة

قالوا عن القاهرة

قلت وما ارتوى الشوق ٠٠ أتراني وحدى أسيرة القاهرة ؟ لقد أسرت الغرباء أنفسهم فقالوا ٠ والذين قالوا عن القاهرة هذه المرة ، هم الرحالة ٠

زار القاهرة فى القرن الحادى عشر ناصرى خسرو فقال :

(وفى المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار وفى قصر السلطان بساتين لانظير لها ، وقد نصبت السواقى لديها ٠ وغرست الأشجار فوق الأسطح فصارت متنزهات) ٠

أين هى البساتين اليوم ٠٠ لقد غدت بفضل عبقريتنا الهندسية أو الاقتصادية شوارع وعمارات فى الهرم والدقى والروضة ٠

ويقول ناصرى خسرو :

(وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول انها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الجص والآجر والحجارة ٠٠ وهى بعيدة عن بعضها ، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر ، ويستطيع كل مالك أن يعمل ما ينبغى لبيته فى كل وقت ، من هدم أو أصلاح ، دون أن يضايق جاره) ٠

ماذا جرى لنا هل هو الزحام ؟ أم أننا لم نعد نحرص على جمال مدينتنا الجميلة ٠٠ العريقة ؟

ولم يكن ناصري خسرو وحده ، في الاعجاب بالقاهرة وبيوتهـا خاصـــة فقد التقى معـــه في التسبيح بهـــا بعد قرن من الزمان عبد اللطيف البغدادي ٠

يقول البغدادي :

(قلما تجد منزلا الا وتجد فيه بأذاهيج ٠٠ وباذاهيجاتهم كبـــار واسطة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الاحكام حتى أنه يقوم على عمارة الواحـد منهـــا مائة دينـــار الى خمسمائة دينـــار وان كانت باذاهيجات المنازل الصغار يقوم على الواحدة منهـا دينـــار ٠ وأسـواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شـاهقة ٠ ويبنون بالحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الآجر وشكل طوبهم على نصف طوب العراق ٠

وأما حماماتهم فلم أشاهد فى البلاد أتقن منها وضعا ولا أتم حكمة ولا أحسن منظرا ومخبرا ٠٠ أما أولا فان أحواضها يسع الواحد منهـا ما بين زاويتين الى أربع زوايا وأكثر من ذلك يصب فيه ميزابان ثجاجان حار وبارد وقبل ذلك يصبان فى حوض صغير جدا مرتفع فاذا اختلطا فيه جرى منه الى الحوض الكبير وهذا الحوض نحو ربعـه فوق الأرض وسائره في عمقها ينزل اليـه المستحم فيستنقع فيـه ٠ وداخل الحمام مقاصير بابواب ، وفى المسلح أيضا مقاصـــير لأرباب التخصص حتى لايختلطوا بالعوام ولايظهروا على عوراتهم وهذا المسلح بمقاصيره حسن القسمة مليح البنية وفى وســـطه بركة مرخمة وعليهـا أعمدة وقبة ٠ وجميع ذلك فروق السقوف وفوق الجدران مبيضـــها مرخـم الأرض بأصناف مجزء باختـــلاف ألوانه ، وترخيم الداخـــل أبدا أحسن من ترخيم الخارج وهو مع ذلك كثير الضياء مرتفع الازاج ، جاماته مختلفة الألوان صافية الأصباغ بحيث اذا دخله الانسان لم يؤثر الخروج منه لأنه اذا بالغ بعض الرؤســـاء أن تتخذ دارا لجلوســه وتناهى فى ذلك لم تكن أحسن منه) ٠

عبد اللطيف البغدادي في مصر

أما ابن سعيد المغربى فيبدو أن ابن البلد القاهرى اراد معابثته بمزاح زاد حبتين : ولندع ٠٠ القصة لابن سعيد يرويها :

(ولما استقررت بالقاهرة تشوقت الى معاينة الفسطاط فسار معى اليها أحد أصحاب القرية ٠٠ فرأيت عند باب زويله من الحمير المعدة لركوب من يسير الى الفسطاط جملة عظيمة لا عهد لى بمثلها ٠ فى بلد ٠

فركب منهـــا حمارا وأشـــار الى أن أركب حمـــارا آخـــر ، فأنفت من ذلك جريا على عادة من خلفته في بلاد المغرب • فأخبرني انه غير معيب على أعيان مصر ، وعاينت الفقهاء وأصحاب البزة والشـــارة الظاهرة يركبونها فركبت •• وعندما استويت راكبا أشار المكارى الى الحمار فطاربي وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عيني ودنس ثيـــابي وعاينت ماكرهته •• ولقلة معرفتي بركوب الحمار ، وشدة عدوه على قانون لم أعهده ، وقلة رفق المكارئ وقعت في تلك الظلمة المثارة من ذلك العجـــاج فقلت :

لقيت بمصر أشـــد البوار — ركوب الحمار وكحل الغبـــار
وخلفي مكار يفـــوق الريـــاح — لا يعرف الرفق مهما استطار
أنـــاديه مهـــلا فلا يرعـــوى — الى أن سجدت سجود العثار
وقد مد فوقي رواق الثـــرى — وألحد فيهـــا ضـــياء النهار

فدفعت الى المكارى أجرته وقلت له : احسانك أن تتركني أمشي على رجلي •

وهكذا أقال الله ابن سعيد من عثرته أو سجدته وخرج من رواق الثرى الذى أدخله فيه أو دفعه اليه المكارى المصرى المكار ••

وبعد أن يصف ناصرى خسرو جامع عمرو يفضى به الوصف الى السوق •• وكان السوق معلما من معالم المدن في ذلك العصر •

وعلى الجانب الشمالى للمسجد سوق يسمى « سوق القناديل » لا يعرف سوق مثله في أى بلد ، وفيه كل مافى العالم من طرائف •

ورأيت هناك الادوات التى تصنع من الذبل كالأوعيـــة والأمشاط ومقابض السكاكين وغيرها •• ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية في الجمال ، وهم يحضرونه من المغرب •• وقيل أنه ظهر حديثا ، عند بحر القلزم ، بلور ألطف وأكثر شفافية من بلور المغرب •• ورأيت أنياب الفيل ، أحضرت من زنجبار ، وكان وزن كثير منها يزيد على مائتى من •• كما أحضر جلد بقر من الحبشة يشبه جلد النمر ، ويعملون منه النعال •• وقد جلبوا من الحبشة طائرا أليفا كبيرا ، به نقط بيضاء وعلى رأسه تاج مثل الطاووس ••

ويصنعون بمصر الفخار من كل نوع ، وهو نظيف وشفاف بحيث اذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهر من الداخل ، وتصنع منه الكئوس

والأقداح والأطباق وغيرها ، وهم يلونونهـــا بحيث تشبه البوقلمون فتظهر بلون مختلف في كل جهـة تـكون بها ، ويصنعون بمصر قوارير كالزبرجد فى الصفاء والنظافة

انه الفن ٠٠ هوى مصر وهوايتها منذ القدم ٠٠ لقد شكلت مصر فى « العصر العتيق » أى فى الأسرة الأولى والثانية قبل عصر بناة الأهرام ـ شكلت مصر ذرات الصوان وشكلت من البلور الصخرى ألوانا من الآنية فيها الحس الصافى للشكل ٠

ان العصر العتيق أعز فترة فى تاريـــخ البشرية كلهـــا لا مصر وحدها ٠

ان رؤوس الســـهام والأوانى ارهاصـــات بفن النحت أى لغـة التشكيل ٠

ان الأوانى المصرية فيها حس له روعة خاصة ٠٠ فيها العطاء الناضج لفن الاناء ٠٠ فيهـا القلب البشرى ينبض لم يعله سـأم ٠٠ سـأم آخـر الحضـــارات ٠

وليست المســـألة التشكيل على ذروته ، ولكن «ادراك القيمة » وهو معنى نريد أن نغرسه ونعمقه فى نفوس صـغارنا فأن التربية هى غرس التاريـخ فى النشء ولأمـر ما يعبر أولاد البلد عن طحن ٠٠ انسان أو سحقه بقولهم « يعدمه العافية » ٠

ان التربية الحقيقية تعطى العافية ٠٠ القوة ٠٠ الأمل ٠٠ الحلم ٠٠ الارهاصات أى ٠٠ همس الوجدان ٠

ان أزمة الانسان المعاصر أن وجدانه لايضاهى تقدمه التكنولوجى فملك الآلة ولم يملك السلوك وحسن الاستعمال ٠

ان الأهرام ليس منجز مصر الوحيد فاللغة والكتابة منجز حضارى ، كالعمارة ، رائع ٠ الادارة منجز حضارى بارع ٠

الرى منجز حضارى كبير ٠

التشكيل ، الذى بهر عبد اللطيف البغدادى ، منجز حضارى أنيق

هنا على هذه الأرض نضج الانسان ٠٠ والنضج وعى ٠٠ والوعى سعى ٠٠ انه تحريك القوى فى كل مجال ٠٠ وهذا بعينه حدث فى مصر ٠

وجـاء القاهرة ابن خلدون المؤرخ الفيلسوف العـالم الاجتمـاعى

الأديب الذى يعد قمة فى تاريخ الحضارة الاسلامية وفى تاريخ الحضارة الانسانيــة وأحد القلائل الأفذاذ الذين يجمع الشرق والغـرب معـــا على اكبارهم ٠

استشرف ابن خلدون الى القاهرة فى القرن الثامن الهجرى بعد أن شارك فى أحداث تونس السياسية والاجتماعية حتى نهـــاية الحلقـة الخامسة من عمره وناء بما حمل فازمع الرحيل الى مصر ٠٠ الى مجالات القاهرة كعبة الحضارة الاسلامية بعلومها وأعلامهـــا وكأنه كان يقتفى أثر ابن بطوطه الذى سبقه اليها قبله بنصف قرن ٠

وما كاد ابن خلدون يدخـــل القاهـــرة حتى هتف وقد وقع فى بحران من الحماسة السكرى يقول :

(رأيت حاضرة الدنيا وبســتان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر وايوان الاسلام وكرسى الملك تلوح القصور والأواوين فى جوه ، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه وتضىء البدور والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطىء النيل نهر ، ومدفع مياه السماء يسقيه العلل والنهل سيحه ، ويجبى اليهم الثمرات والخيرات ثجه ، ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة ، أسواقها تزخر بالنعيم)٠

وفى القاهرة تطلع ابن خلدون الى الجامع الأزهر وهناك تحلقت حوله الندوة ٠ يقول أبو المحاسن بن تغرى بردى :

(واستوطن ــ ابن خلدون ــ القاهرة وتصـــدر للاقراء بالجامع الأزهر مدة ، واشتغل وأفاد) ٠

ويقول السخاوى :

(وتلقاه أهلهـــا ــ أى أهل مصر ــ وأكرموه وأكثروا ملازمتـه والتردد عليه ٠ بل تصدر للاقراء بالجامع الأزهر مده ، ويقول عنـه الحافظ بن حجر العسقلانى :

(وكان مسنا فصيحا ، حسن الترسل وســط النظم مع معرفة تامة بالأمور خصوصا متعلقات المملكة) ٠

ثم اسند اليه السلطان التدريس بالمدرسة القمحية بجوار جامع عمرو ٠ وقد استهل عمله فيها بخطبه طريفة حفلت بالسجع وهو صاحب الأسلوب المتحرر من قيود البديع ٠ ولست أدرى ما الذى جعـــله يلتزم

السجع فى ذلك اليوم ٠٠ لعله لون من التعبير عن الفرحة بمنصبه الجديد ٠٠

أليس طريفا أن يقول ابن خلدون صاحب المقدمة :

(ولما سبحت فى اللج الأزرق ، وخطوت من افق المغرب الى المشرق ، حيث نهر النهار ينصب من صفحة المشرق ، وشجرة الملك التى اعتز بها الاسلام تهتز فى دوحة المعرق ، وأزهار الفنون تسقط علينا من غصنه المورق ، وينابيع العلوم والفضائل تمد وشلنا من فراته المغدق ٠٠ أولونى عناية وتشريفا وغمرونى احسانا ومعروفا ، وأوسعوا بهمتى ايضاحا ونكرتى تعريفا ٠٠ ثم ٠٠ الخ) ٠

وفى سنة ٧٨٦ هـ (١٣٨٤ م ٠ عين قاضيا لقضاة المالكية ٠ ومع ما لهذا المنصب المرموق من مكانة رفيعة ، فان ابن خلدون لم يقل فيه خطبة مسجوعة – يبدو انى وقعت ، أنا أيضا ، فى السجع – بل انطلق على سجيته يقول بلا تزويق :

(وأقمت على الاشتغال بالعلم وتدريسه الى أن سخط السلطان على قاضى المالكية يومئذ فى نزعة من النزعات الملوكية فعزله واستدعانى للولاية فى مجلسه وبين امرائه فتفاديت من ذلك وأبى الا مضاءه) ٠

ولا يخفى مافى هذه العبارة من سخرية من الملوك ذوى(النزعات) ٠٠ على أنه لم يلبث أن عزل فى قول بعض المؤرخين ، أو قبل رجاؤه بالاعفاء ، أى قبلت استقالته بلغة عصرنا ٠٠

لم يكن قد انصرم عام على تولية القضاء حين أقصى عنه أو استقال منه فعاد الى التدريس وخلص الى التأليف وفيما بين هذا تكرر العود والاقصاء ، أو العزل والاسناد ٠

حاول ابن خلدون أن يوثق عرى الصلة بين مصر والمغرب بالصلات فكتب الى سلطان تونس يحثه على التودد الى ملك مصر بالهدايا والالطاف ، فتدفقت الهدايا على القاهرة من سلطان تونس ، وأمراء المغرب ويبدو أنها كانت كثيرة الى درجة تخصيص يوم لعرضها ٠٠ يوم يقول عنه ابن خلدون انه شعر فيه (بالفخر وحسن الذكر بما تناوب بين هؤلاء الملوك من السعى فى الوصلة الثابتة على الأبد) ٠

وهكذا استقبلت القاهرة ابن خلدون وأفسحت له مكانا فيها فى قاعات الدرس وساحات القضاء ، وحظى فيها باقبال الناس وتقدير الحكام وطيب المقام ٠

أكرمت مصر وفادته وأسبغت عليه نعمة اثارت حسد مواطنيه أنفسهم فأبن عرفه مفتي تونس يقول :

(كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب فلما وليها هذا عددنا بالضد من ذلك) ..

هذا حين اثنى عليه وانصفه من العلماء والمفكرين المصريين أعلام منهم : المقريزى فى كتابه (السلوك) و (درر العقود الفريدة) وأبو المحاسن بن تغرى بردى فى منهله الصافى ، والقلقشندى فى موسوعته (صبح الأعشى) .

ان أعظم أعمال ابن خلدون مقدمته التى كتبها لتاريخه . وهذه المقدمة كتبها قبل قدومه الى مصر ، ولكن مصر أتاحت لابن خلدون بما وفرته له من الهدوء وبسطة الرزق وأهم من هذا كله المناخ العلمى، مصر بهذا كله أتاحت له ان يراجع هذه المقدمة وان ينقحها ويصقلها ويضيف اليها أحداث سبعة عشر عاما فقد كان وقف فيها عند سنة ٧٨٣ هـ فبلغ بها فى مصر الى نهاية القرن الثامن الهجرى وبلغ بها وهذا هو الأهم — من حيث التفكير والتحبير مبلغا باقى الأثر .

لم يكن ابن خلدون فى تاريخه راوية يسرد الأخبار سردا ، بل كان يتعمق الأحداث ويعلل الظواهر الاجتماعية ويفلسفها ناقدا محللا .

انه فى مقدمة ابن خلدون من الآراء والنظريات الفلسفية والاجتماعية والسياسية ما سبق به (ميكافيللى) و (فيكو) الذى يحاول الايطاليون ان يجعلوه أول اجتماعى أوروبى ، ومونتسكيو وآدم سميث ، وأوجست كونت ممن جاءوا بعده .

وابن خلدون بتراثه ، فى عين الغرب يقف فى صف مع الفلاسفة وعلماء الاجتماع والاقتصاد السياسى ويعتبره (فون كريمر) مؤرخا للحضارة بما فصله من حديث عن النظم السياسية ومذاهب الحكم والاجتماع والاقتصاد وألوان العلوم والفنون والآداب .. ويؤيده فى هذا الرأى الكاتب الألمانى (فون فيسندنك) .

ويراه (دى بوير) فيلسوفا لا يقل شأنا عن ابن سينا والغزالى وابن رشد وابن طفيل ..

و (لدفيج جمبلوفتش) يرى كما يقول الأستاذ عبد الله عنان ان ابن خلدون العالم الاجتماعى سبق كثيرا من أقطاب الاجتماع المحدثين

فهو قد اهتدى الى نظرية الأجيـال الثلاثة الخاصـة بنهوض الأسر وانحلالها قبل ان يعرضها أوتوكار لورنتس في أواخر القرن التاسع عشر. ويقول جمبلوفيتش ان ابن خلدون يرتفع الى ذروة البحث الاجتماعي حينما يعرض ملاحظاته عن تفاعل الجماعات الاجتماعيـة وكيف أن هذه الجماعات نفسها انما هي ثقة الوسـط · وأقواله في هذا المقـام عن الأجناس الغالبة في منتهى الأهمية ·· وفي أقواله عن الوسط ومؤثراته ما يدل على أنه عرف (قانون التشبه بالوسط) قبل أن يعرفه داروين بخمسة قرون وفيما يقوله عن تشبيه الانسـان بالحيوان في الخضوع للقوانين الاجتماعية العـامة ، ما يدل على أنه عرف مبدأ (وحدة المادة) قبل أن يعرف هيكيل ·

أما الأسـتاذ ناتانيل شميث الأسـتاذ بجامعـة كورتل بأمريكا فيرى ابن خلدون مؤرخـا يمـكن أن يوضـع في صف مؤرخين مثل ديودوروس الصقلي ، ونقولاوس أو ترجوس بومبيوس ممن كتبـوا في القرن الأول الميلادي أو مؤلفين من كتـاب القرن الثامن عشر مثـل جالنيرر وشلنسر ، هذا مع كونه يتفوق عليهم سواء في الانتفاع بالمصادر القديمة أو الرواية الأصليـة · والمؤرخ المعاصر ارنـولد توينبي يعتبر ابن خلدون سابع سبعه وهم :

« توكوتيدروس (ثيوديد) ويوسيفوس ومكيافللي ، ويوليبيوس ، ولورد كلارندون ، وابن خلدون » ·

ويرى توينبي مقدمة ابن خلدون بما فيهـا من فلسفة التاريخ (أعظم عمل من نوعه ، ابتكره أي عقل في أي عصر ، أو في أي بلد) ··

ويرى (التاميرا) مقدمة ابن خلدون (نظرية كاملة للحضارة) · ويقول فيها يروى عنه الأسـتاذ عبد الله عنـان (كفى أنه في القـرن الرابع عشر ، حينما كانت دراسة التاريخ الأوروبي في منتهى النقص ، ومنتهى البعد عن آراء كالتي يعرضها ابن خلدون ، ويدافع عنها ، قد كتب كتابا كالمقدمة درست فيه أو افترضت كل المسـائل ، التي غدت فيما بعد ، على تفهمها بمختلف الصور ، هي المهمة الجوهرية للمؤرخين المحدثين) ·

وقد عاش ابن خلدون في القاهرة بضعة وعشرين عاما وتوفي بها وكأنه آثرها دار بقاء ومثوى خلود · ودفن بمقبرة الصوفيـة خارج باب النصر ·· وقد وصـل الاثري المصري المغفور له الأسـتاذ حسن عبد الوهاب الى تحديد موقعها ·

ما أحق هذا المكان أن يكون مزارا يقصده عارفو فضل ابن خلدون وتلاميذ فكره ـ وما أكثرهم وهو بهذه المنزلة خليق ..

هؤلاء بعض أهل الشرق من الرحالة والمفكرين . أما أهل الغرب فقد أولعوا أيضا بالقاهرة ..

فصاراى هنا أن آتى ببضعة أمثلة .. ومن الأجانب الذين عشقوا القاهرة « ادوارد وليم » فى كتابه :

The Manners and Customs of the Modern Egyptians.

والكتاب (١) يتغنى القاهرة ويستميلها .. يهواها ويستهويها .. ومنهم « جاستون فييت » (٢) الذى يقول (على طول الطريق من الأسوار الشمالية للمدينة الفاطمية الى حدود المدينة الجنوبية ، يصاحبنا نغم متناسق بخاتمه مهيبة حيث تسمع لحنا لنشيد رفيع فخم ، حين تواجه أسوار مسجد السلطان حسن ، أعيننا ، فى تحد قوى) ص ١١ .

ومنهم « ديزموند استيوارت » فى كتابه « القاهرة » الذى يقول :

(انها مدينة مسلمة نشأت بفضل دين محمد النبى العربى . هى عند المسلمين لاتقل جلالا عن مكة ، التى تتجه اليها قبلة الصلاة فى مساجد القاهرة ، ولا عن المدينة مثوى الرسول) ص ٨٥ .

ويقول عن الطابع الاسلامى فى القاهرة :

(حقا كل من زار بورصة (فى الاناضول) ورأى عمائرها لايسعه الا الاعجاب بألوانها الزاهية ، وان عشاق نقاء الشكل فى الفن المعمارى يهللون لقصر الصيد المسمى بالأخيضر (فى كربلاء) أو لبقايا قصور سامرا (سر من رأى) التى بنيت فى القرن التاسع ، وان ضريح تاج محل الذى تنعكس واجهته على الماء له من المعجبين به قدر ما له من الهائمين بالتقاط صورته ولكنها جميعا اما أبنية فرادى ، واما ـ كما هو الحال فى بورصة ـ أبنية من نتاج عصر واحد . أما القاهرة فهى وحدها التى تشهد بتطور متصل قرنا بعد قرن ، يتدرج من السذاجة عبر البساطة الى تعقيد التركيب ، ومن الازدهار العقلى الى الذبول السقيم . وهكذا فان سجل حضارة بتمامها يتكشف على الحجر والآجر والخشب

(١) نقل هذا الكتاب الى العربية الأستاذ عدلى طاهر نور باسم : (المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم) .

(٢) (القاهرة مدينة الفن والتجارة) ترجمة الأستاذ مصطفى العبادى .

طوال زمن يزيد عن ثلاثة عشر قرنا هو الآن معروض للناظرين • وقد كانت بغداد خليفة بأن تنافس القاهرة ، ولكن بغداد ضربها المغول بعد سنوات قليلة من بناء قصر المستنصرية المشهور بانسجامه اللطيف • لذلك اذا أردنا أن نتذوق الفن الاسلامى بغير أن تفسده رتابة التفاصيل كما فى قصر الحمراء ، وبغير أن يشوهه زخرف مبالغ فيه ــ كما فى عمارة الهند ــ فينبغى لنا ، كما يقول ستانلى لين بول ــ أن نتأمل مساجد القاهرة وأضرحتها) •

وكتب عن القاهرة المهندس الفرنسى Hector Horeau فى كتابه :

Panomama D'Egypte et de Nubie. المطبوع ١٨٤١

تحدث عن القاهرة الحديثة دون أن تغيب عنه « منف » و « والفسطاط » و « العسكر » و « القطائع » ألم أقل انها « أم المدائن » ؟

وكتبت « لادى دف جوردوف » التى أحبت مصر حبا جما وترنمت باسمها حتى النهاية بل بلغ بها الخيال حدا (تحدث عن نفسها كمصرية عربية واعتبرت فيما اعتبرته ، أنها مسلمة) •

أما القاهرة فقد كتبت عنها ولما ينصرم على وصولها اليها غير أيام أنها (قد انغمرت فى ألف ليلة وليلة الحقيقية ، وأن الحياة فى القاهرة ما هى الا حياة ذهبية بلغت الحد الأقصى من التسامى والشعر بل الوجود فيها ليس الا خليطا من التعاطف والأدب الجم) ••

ومتى كان ذلك ؟ تاريخ الرسالة ٦٢/١١/١١

كم ذا يكابد عاشق ويلاقى فى حب مصر كثيرة العشاق

مصر الكل •• ومصر القاهرة •

أما أبناء مصر فقد كتب منهم عن « القاهرة » القدماء والمحدثون • أبرز القدماء الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى صاحب (حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة) •• فقد وقف فى كتابه على من كان بمصر من الصديقين والعلماء والأئمة وحفاظ الحديث والفقهاء والزهاد

(١) ص ١٣٤ من الترجمة العربية قام بها الأستاذ يحيى حقى •

(٢) كتاب (رسائل من مصر) •

والمتصوفة والقصاص والمؤرخين والشعراء والأدباء بل الخلفـــاء والأمراء والوزراء والقضاة ·

وقبل هؤلاء جميعا من دخلها من الأنبياء ·· ومن ولدوا بها وكانت لهم مربى ومباءة حضارية ·

ولم يكتب السيوطى هذا الكتاب من فراغ فقد استقى معلوماته من سلسلة طويلة من المراجع والمصادر ، نص عليها فى صدر الكتاب ، وأشار اليها فى تضاعيفه ·

مدارس مصر ــ مساجد مصر ــ آثار مصر ــ نيل مصر ــ معـــادن مصر ــ جزر مصر ــ فواكه مصر ــ نبات مصر ·

ولم يترك السيوطى شيئا الا كانت له عنده ، وقفة تطول أو تقصر ولكن لا تقصر أو تحول ·

ومعظم القول فى هذا كله يطوف بالقاهرة ·

... ...

أما المحدثون ، فقد كتب منهم عن القاهرة :

الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى فى أعز كتبه (١) ·

د· حسين فوزى فى كتابه (سندباد مصرى) ·

د· عبد الجليل راضى فى كتابه (واقاهرتاه) ·

أ· حافظ محمود فى كتابه (القاهرة بين جيلين) ·

أ· شحاته عيسى ابراهيم فى كتابه (القاهرة) ·

أ· جمال الغيطانى فى كتابه (ملامح القاهرة فى ١٠٠٠ سنة) ·

هذا غير كتب بين التاريخ والحضارة ·· بين العمارة والأدب مثل كتب المرحوم حســـن عبد الوهاب وكتاب الأســـتاذ عبد الرحمن زكى (القاهرة) ·

هذا غير الذين كتبوا عن القاهرة من خلال أعمالها وأعمالهم ·

مثل الأدباء والقصاصين والمؤرخين والجغرافيين ·

---

(١) من هذه الكتب التى صورت القاهرة (ابراهيم الكاتب) ، (ابراهيم الثانى) - (صندوق الدنيا) ، (من النافذة) ·

فيجيب محفوظ لم يكتب كتابا باسم القاهرة ولكن القاهرة كانت تمتزج بدمه حين كتب قصصه (خان الخليلي) و (زقاق المدق) وثلاثية : قصر الشوق ـ بين القصرين ـ السكرية ٠

وتوفيق الحكيم كان يكتب عن القاهرة حين كتب (مسرح المجتمع) . و (المسرح المنوع) ٠

حتى (عوالم الفرح) كن فى تصويره ، لمحة من القاهرة ٠

وكتب عن القاهرة الأستاذ (فتحي رضوان) فى كتابه (خط العتبة) (١) ٠

والشاعر أحمد رامى ، بأغانيه ذات اللهجة القاهرية العذبة ، كان يسمع القاهرة ويسمع القاهرة ٠

والشاعر ابراهيم ناجى صاحب ديوان (ليالى القاهرة) ٠

وغنى للقاهرة فأطرب ، الشاعر صالح جودت ٠٠

حتى ابن البلد فى الأسماء التى يطلقها على أطفاله فى البيت ، وعلى دكانه خارج البيت ، انما يردد أسماء القاهرة ٠٠ واذا عظم المرء ، تعددت أسماؤه ٠

حتى أحياء القاهرة ظفرت بالكتابة عنها فكتب الدكتور طه حسين عن حى الأزهر ، وحياة الأزهر وأيام الطلب ، والطلاب (٢) ٠

وكتب الأستاذ العقاد عن حى مصر الجديدة (٣) ٠

وكتب الأستاذ سند الكيلانى عن « الأزبكية » ٠

لقد كتب عن القاهرة ، الذين كتبوا عن مصر باعتبارها كما يقول الدكتور جمال حمدان :

(عاصمة تستقطر وتستقطب روح الوطن وترمز الى جوهر كيانه حضاريا وماديا ، جغرافيا وتاريخيا ، ربما كما لا تفعل عاصمة أخرى) ٠

وباعتبارها ، مصر ، اسما ٠٠ فان القاهرة يطلق عليها المصريون والعرب اسم « مصر » ٠

---

(١) من سلسلة الألف كتاب ٠
(٢) كتاب (الأيام) للدكتور طه حسين ٠
(٣) كتاب (فى بيتى) للأستاذ عباس محمود العقاد ٠

وكتب عن القـــاهرة أولئك الذين كتبوا عن (الفسـســطاط) و (القطائع) و (العسكر) فهي هؤلاء جميعا ، وان اختلفت أسماء . وهي بقدرتها الأولى على الاستيعاب ، احتوتها وضعا وموضعا ٠٠ تاريخا وموقعا ٠

انها أم المدائن ٠

وليس اعتباطا بل اغتباطا أن يقول أوجين فرومنتان :

(بغبطة أدخل هذه المدينة الفريدة)

ومن أجمل الكتابات الحديثة عن القاهرة ما كتبه الأستاذ يحيى حقى في مقدمة ترجمته لكتاب ديزموند استيوارت (١) ، والدكتور جمال حمدان في بحثه الذى يتصدر الترجمة ، كما كتب عنهـــا فصلا زاخرا وباهرا ثريا ، بها حفيا في المجلد الرابع من موسوعة (شخصية مصر) ٠

يقول الأستاذ يحيى حقى :

(لم يستطع معول التنظيم الغشوم ، ولا أكداس العمارات الشاهقة المسلحة بالأسمنت ، ولا غوائل الشوارع الطارئة المفروشة بالأسفلت ، ولا أحياء حجارة الدومينو تنبت كالفطر وتتضخم كالسرطان ، شقاء الى القلب كالطعنة ، النجلاء ، أو لفا على جوانب ، غلاف فوق غلاف ، ولا ظل قبعة قميئة مستعارة وضعتها على الرأس ، يد عمياء متلهفة على التقليد ٠٠٠ لم يستطع شيء من هذا كله أن يمس طابعها الأصيل وجلالها المكنون هبة لها من حضارة الشرق ، ونفحة من سمائه ، كلاهما خارج عن متناول الزمن وعواديه ٠ ان كنت تأنس لجمالها حين يطـــوف به خيالك اذ هو بالأمس في قصره ، في عز مجده فانك أشد أنسا به وأنت تزوره اليـوم فتراه منكمشا منزويا في صومعته ٠٠ بقى من الثمرة سر الحياة والديمومة في نواتها الصلبة ، هيهات أن تتحطم ٠٠ انها صلابة الدفاع المستميت في آخر خندق ، وهذا التجمل بالستر اذ الحب فاتر ومس أشد نبلا من أريحيتها ، وأغداقها اذ هي مأخوذة بالأحضان والدنيا مقبلة ٠٠

لم تستطع الأسطح المتعالية يوما بعد يوم أن تحجب مآذنها العديدة ، باقية هي ناحية بشممها وشموخها ، ولا الضجة الهائلة التى اندلقت عليها أن تخنق ضراعات هذه المآذن ، يخشع لها القلب وتطرب الاذن عند مولد كل فجر ٠٠

---

(١) مقدمة كتاب (القاهرة) تاليف ديزموند ستيوارت ترجمة الأستاذ يحيى حقى ٠

جدران عتيقة يتراكم عليها التاريخ • آية فى فن العمارة ، فى ذروة الصدق ، تصون داخلها أمثلة رائعة للجمال ، تحكى فى صمت قصة آلاف من الفنانين بناة الحضارة عملوا في ورع وهم متطهرون ثم مضوا لا يعرف أسماؤهم أحد ، لا يذكرهم أحد ، حق لهم أن يتضاعف ثوابهم ، جزاؤهم عند رب ، بهم عليم •

وأسواق لاتزال متشبثة بأمكنتها ، كان لها جذورا ضاربة الى الأعماق ، هيهات أن تنقصف أو تذوى ، شاخت ولكنها لا تزال متشحة بأطياف من وسامة شبابها وزينة عرسها • تغير عن يمين ، عن يسار ، من حول • كائن واحد لا يتغير ابن البلد بكرمه ومروءته ، بلطفه وظرفه ، ببشاشته وخفة دمه ، بنكاته وقفشاته ، بذكائه وحضور بديهته ، هو الذى رقق العامية على لسانه وأثراها بأبدع مجاز واستعارة ، ساخر وحكيم ، تحسبه لطيبته غرا ولكنه « حويط » يلقط العملة الصحيحة ولو ممسوحة من بين عملات كثيرة زائفة « ولو براقة » لا ينطلى عليه الكذب والنفاق ودموع التماسيح •

هذه هى القاهرة ، ان كنت لا تعرفها يا أخى فاعرفها ، اذن ستحبها ، ستعشقها ، ستنضم الى زمرة عشاق لها كثيرين ، هاموا بها ولاء والتحاما ، منذ أن ألقى فى نهر النيل عندها ، ما تخلف عن ولادتهم من مشيمة مصرورة في منديل ، عشق بالغريزة •• بالارث •• بالقسمة والنصيب والحمد لقدر لا تعلل تصاريفه •••)

لكأنه يتحدث ، أو هو كذلك ، يتحدث عن قاهرة اليوم •

••• ••• ••• ••• •••

ويقول الدكتور جمال حمدان عن القاهرة :

(اذا عدت المدن العواصم العظمى فى العالم ، فالقاهرة واردة بالتأكيد فى العشرة الأولى أو العشرة ونيف • وهى المدينة الأولى — المطلقة — فى قطاع هائل متصل من العالم القديم قد يجاوز ثلثه مساحة ويتعدى آفاق القارة الافريقية الى تخوم الألب ووسط آسيا • بل ان بضعة لا يستهان بها من الدول الافريقية لتقل سكانا — سكان كل منها أقصد — عن حجم القاهرة كثيرا أو قليلا ، وذلك دون أن نذكر أن القاهرة تستأثر وحدها بنحو نصف سكان العواصم الافريقية الخمسين مجتمعة !) •

ويقول :

(لقد خرجت القاهرة عن وصاية الجبل الأبوية ، وانساحت من المقطم الى الهرم ومن الصحراء الى الصحراء ، ومن حلوان الى شـــبرا الخيمة ، وبعد أن بدأت بحدود صارمة كالخط الهندسى هى سور المدينة أصبحت تتخلل المزروع وتخلخله كمدينــة بلا حدود • ومن السهل أن تتتبع انعكاس هذا كله رقميا فى تعداد السكان ، ولكن يكفى هنا أن نذكر أن المدينة التى بدأت مع محمد على ربع مليون وانتهت معه ثلث مليون قد تعدت الآن الخمسة ملايين) •

وأضيف « تعدت العشرة ملايين » •

وهى عنده وعندى أولا وأخيرا العاصـمة التى تستقطر وتستقطب روح الوطن وترمز الى جوهر كيانه حضاريا وماديا ، جغرافيا وتاريخيا ، ربما كما لا تفعل عاصمة أخرى) •

من مؤلفات الكاتبة

ـ شخصية مصر	الهيئة العامة للكتاب
ـ رحلة الشرق والغرب	الهيئة العامة للكتاب
ـ أدب المازنى	الهيئة العامة للكتاب
ـ أم كلثوم وعصر من الفن	الهيئة العامة للكتاب
ـ من عبقرية الاسلام	دار المعارف
ـ الأدب والحضارة	دار المعارف
ـ الجمال والحرية والشخصية الانسانية فى أدب العقاد	دار المعارف
ـ أحمد رامى (قصة شاعر وأغنية)	دار المعارف
ـ قمم أدبية	عالم الكتب
ـ رسائل الى ابنتى	عالم الكتب
ـ النيل فى الأدب المصرى	عالم الكتب
ـ مشروع هضبة الأهرام أخطر اعتداء على مصر	عالم الكتب
ـ شعب وشاعر (أبو القاسم الشابى)	عالم الكتب
ـ خصائص الشعر الحديث	دار الفكر العربى
ـ مصر تدخل عصر النفايات (بالاشتراك مع الدكتور حامد ربيع)	دار الفكر العربى
ـ التراث والحضارة	دار الهلال
ـ أزمة الشباب وهموم مصرية	دار الحرية
ـ الاسلام وانسان العصر (العودة الى المنبع)	دار غريب
ـ صناعة الجهل	دار المستقبل العربى

فهرس

الصفحة

د • نعمات أحمد فؤاد

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٦/٤٢٧٢

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٠٥٤ ـ ×

كل من يؤلمه تشويه جمال الفاتنة أم المدائن عاصمتنا القاهرة ويتمنى أن يراها كما كانت :

- الأحياء الشعبية بمذاقها الخاص .
- أهل البيت على أرضها وفى وجدانها .
- الأزهر الشريف .
- أسلوبها فى الفن والصناعة وحياة كل يوم .
- صالوناتها الأدبية .
- مواقفها مع الحكام .
- حديقة الأزبكية والأوبرا والمسرح ومنتديات شارع عماد الدين من مفاتن القاهرة .

من يريد أن يرى الصور التى غابت عن القاهرة .

من يريد أن يراها فى عين الغرباء من شرق وغرب ممن كتبوا عن القاهرة ، وقالوا عن القاهرة .

ذكريات الكاتبة مع أعلام الأدب والفن :

العقاد - أحمد لطفى السيد - الزيات - أحمد رامى - بيرم التونسى - زكريا أحمد - السنباطى .

دنيا عريضة من الصور والأعلام والثقافات فى هذا الكتاب .

٢٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب